أصدقاء غير شرعيين

Illegal Friends

يجب أن يموت أحدنا، ليعيش البقية

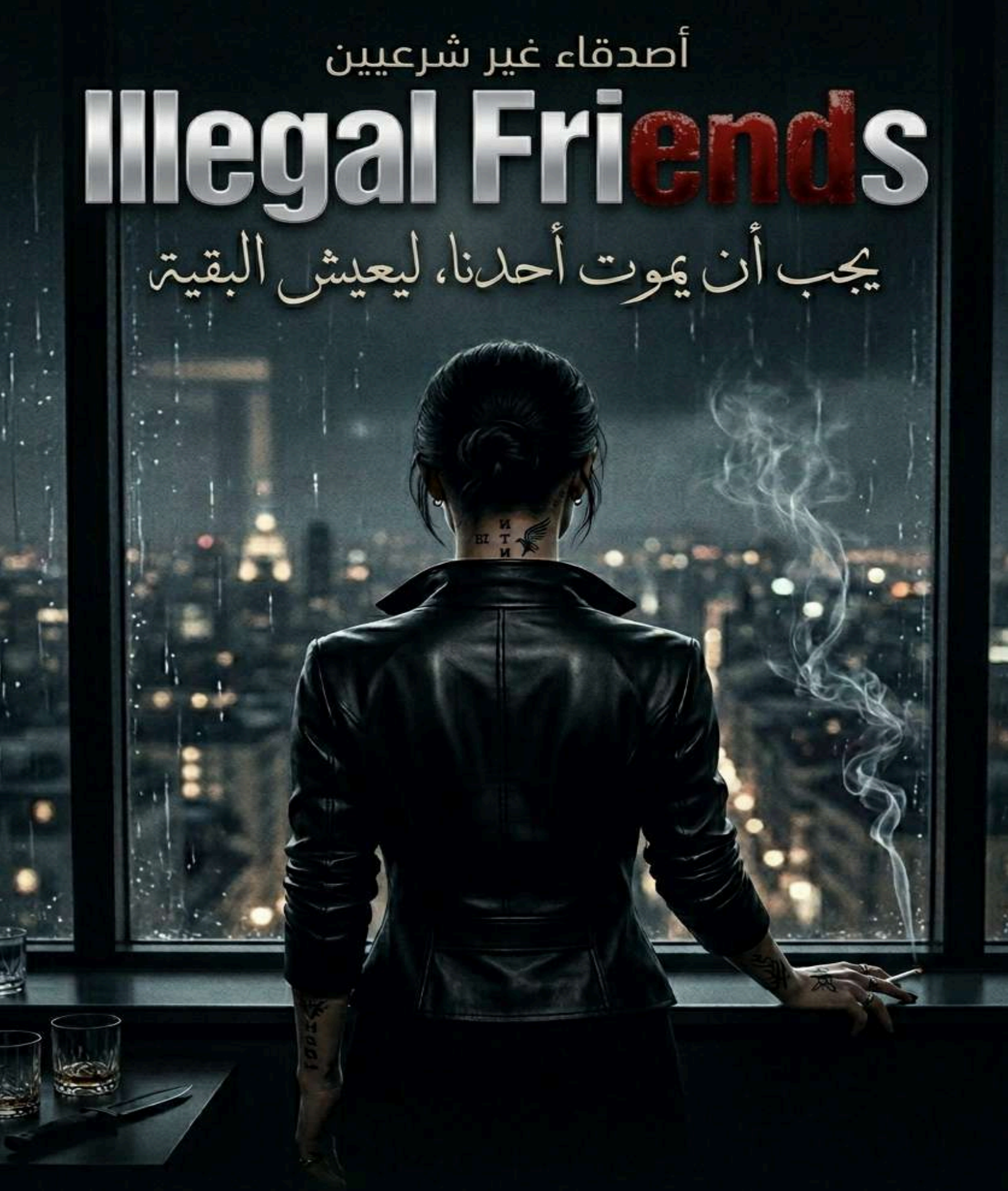

رواية للكاتبة ميارى تونسي

أصدقاء غير شرعيين

رواية مافيا

ميارى تونسي

Yara's POV

أخيراً.. لمست عيناي ضوء الشمس دون أن تحجبه القضبان. عامان مرّا كأنهما دهر، والآن فقط، في يومي الأول خارج جدران السجن الباردة، استعدتُ قدرتي على التنفس بملء رئتيّ. لم أتخيل يوماً أن ينتهي بي المطاف خلف القضبان، لكنني لا أؤمن بالندم؛ فالحياة في نظري ليست سوى سلسلة من التجارب القاسية، وهذا السجن كان إحداها.

لم أفكر لحظة في العودة إلى ذلك المنزل الذي يجمع زوج أمي وابنته، فهما لم يكلفا نفسيهما عناء السؤال عني طوال غيابي. أما أمي، فقد هجرتنا منذ زمن بعيد مخلفة وراءها حطاماً من المشاكل، ولم تترك لي سوى نصيبٍ من إرث في منزل لا أطيق حتى ذكر اسمه. لذا، كانت وجهتي واضحة: منزل "ساندرا".

ساندرا.. الصديقة الوحيدة التي تجرأت على الوقوف بجانبي رغم سيل التهديدات التي حاصرتها. كانت تزورني بانتظام، تحمل لي نكهة الحياة في أطباق أحبها وأغراض أحتاجها، متحدية الجميع لأجلي.

وصلتُ إلى بابها وطرقته، لتفتحه هي بسرعة وكأنها كانت على أهبة الاستعداد للرحيل. كانت تتأنق بملابس رسمية لا تشبه ثياب المنزل، وما إن وقعت عيناها عليّ حتى تجمدت مكانها، ثم أجهشت بالبكاء وارتمت في حضني تعانقني بقوة. لم تنطق بكلمة، بل سحبتني إلى الداخل وأجلستني على الأريكة، وهي تتفحص وجهي بعينين غارقتين بالدموع، قبل أن تعاود عناقي بشدة أكبر.

ابتسمتُ بداخلي على فيض مشاعرها، ثم تراجعتُ قليلاً للوراء قائلة بنبرة حاولتُ جعلها جافة:

"تعرفين أنني لستُ من هواة العناق، لكنني سأتجاوز عن الأمر هذه المرة فقط من أجلكِ."

مسحت دموعها بكفيها وابتسامة رقيقة ترتسم على ثغرها وقالت:

"ما زلتِ كما أنتِ، صلبة لا تلين.. ظننتُ أن السجن سيكسر فيكِ شيئاً."

أطلقتُ ضحكة قوية نابعة من الأعماق وأردفتُ بتحدٍ:

"أنا؟ السجن لم يزدني إلا صلابة. لكن أخبريني، يبدو أنكِ كنتِ بصدد الخروج، هل أفسدتُ عليكِ موعداً مهماً؟"

ضربت كتفي بخفة وهي تضحك وسط دموعها:

"يا غبية! كنتُ أتجهز للذهاب إليكِ، فاليوم هو موعد إطلاق سراحكِ، لكنكِ كالعادة سبقتني وأتيتِ أنتِ إليّ."

نظرتُ إليها بامتنان دافئ حاولتُ إخفاءه خلف ابتسامة جانبية. ساندرا ليست مجرد صديقة، إنها الأخت التي لم تلدها أمي، بل هي أكثر صدقاً من أختي الحقيقية. هي المحامية الملتزمة بالقانون التي لم تتخلَّ عني يوماً، رغم أن علاقتها بي كعضوة في "المافيا" تشكل خطراً جسيماً على مسيرتها المهنية.

بعد برهة، استأذنت ساندرا لتبديل ثيابها. اتكأتُ على الأريكة وأمسكت بجهاز التحكم لأفتح التلفاز، فإذا بشاشات الأخبار تضج بخبر خروجي. نسيتُ أن أخبركم أن "المنظمة" التي أنتمي إليها هي الأقوى والأكثر شهرة، واسم "الروسو" يهتز له الجميع. لحسن الحظ أنهم لم ينشروا صوري الشخصية بعد. أغلقتُ الجهاز بضجر ورميته جانباً، ثم أسندتُ رأسي للخلف زافرةً تنهيدةً عميقة، تزامنت مع نزول ساندرا بملابسها المنزلية المريحة. كانت تحمل في يدها طقماً مماثلاً قدمته لي بحنان:

"أعلم أنكِ لا تطيقين العودة لمنزلكِ الآن.. خذي هذه الملابس، استحمي وارتاحي قليلاً بينما أعدّ لنا العشاء."

ابتسمتُ لها بصدق وقلت:

"كلا يا ساندرا، يجب أن أمرّ بمنزلي أولاً، أحتاج لرؤية غرفتي وتفقد أغراضي، سأذهب بعد قليل."

خيم الحزن على ملامحها وقالت بنبرة رجاء:

"لكنني اشتقتُ إليكِ حقاً.. ابقي معي الليلة، لديّ جبال من الحكايات لأرويها لكِ."

فكرتُ قليلاً في ملامحها المترجية ثم استسلمت:

"حسناً، سأذهب لإحضار بعض الأشياء الضرورية من هناك وأعود لأبيت عندكِ، هل هذا يرضيكِ؟"

قفزت فرحاً كالأطفال وعانقتني مجدداً، فأبعدت يديها بقلة حيلة مصطنعة:

"أخبرتكِ ألا تعانقيني! هذا مقرف حقاً! والآن تحركي للمطبخ فأنا أتضور جوعاً، أريد عشاءً ملكياً حين أعود، اتفقنا؟"

أومأت لي بحماس، وبينما كنتُ أتجه نحو الباب نادتني بصوت مرتفع:

"خذي مفاتيح سيارتي، ستكون أسرع!"

ابتسمتُ لها وهززتُ رأسي بالرفض، ثم خرجتُ إلى الشارع والحرية تصحبني في كل خطوة.

خطواتي على أرصفة الشارع كانت مثقلة بذكريات عامين من الغياب، حتى وقفتُ أخيراً أمام باب المنزل. طرقتُ الباب بحدة، لتفتحه الخادمة التي تسمرت في مكانها وكأنها رأت شبحاً. تلعثمت والذعر يكسو ملامحها:

"أه.. أهلاً.. سي.. سيدتي!"

لم أنتظر ترحيبها، بل دفعتها بكتفي ببرود ودخلت. كان زوج أمي يجلس في مكانه المعتاد على الأريكة، يحدق في التلفاز بغباء. مررتُ من أمامه كأنني ريحٌ عابرة، لم أمنحه حتى التفاتة واحدة، رغم أنني شعرت بنظراته تتبعني كظله بينما كنت أصعد الدرج نحو غرفتي.

حاولتُ فتح الباب، لكنه كان عصياً.. مغلقاً. تملكني غضبٌ مفاجئ فصرختُ في الخادمة التي كانت تتبعني بخوف:

"من اللعين الذي تجرأ وأغلق غرفتي؟ افتحي هذا الباب اللعين وإلا هدمتُ هذا المنزل فوق رؤوسكم جميعاً!"

انحنت برأسها، وقالت بصوت يرتجف:

"سيدتي.. أنتِ من أغلقتِها في المرة الأخيرة، والمفتاح معكِ."

في تلك اللحظة، اصطدمت ذاكرتي بصورة قديمة؛ قبل عامين، حين كان صراخ صفارات الشرطة يملأ المكان، أغلقتُ الغرفة وأخفيتُ المفتاح.. لكن أين؟ اللعنة، لقد محى السجن هذه التفصيلة من رأسي! أحتاج هاتفي، أحتاج مفاتيح سيارتي.. أحتاج هويتي التي سلبت مني.

التفتُّ نحو الخادمة بعينين تشتعلان شرراً:

"ألم تري أين وضعتُه؟"

"آسفة سيدتي.. لم أرَ شيئاً."

زجرتُها آمراً إياها بالانصراف، وبقيتُ وحدي أمام الباب الموصد. ركلته بكل ما أوتيتُ من قوة، وكأنني أركل حظي العاثر. يبدو أن الضجيج قد أيقظ "مايا"، إذ خرجت من غرفتها والدهشة تشل حركتها.

"أنتِ؟ هل عدتِ حقاً؟"

لم أجبها، بل اكتفيتُ بنظرة باردة كفيلة بإخراسها، لكنها استجمعت شجاعتها وقالت بتذمر:

"لماذا كل هذه الضوضاء؟ لدي امتحان مصيري ويجب أن أدرس!"

تقدمتُ نحوها ببطء شديد، خطوة بخطوة، بينما كانت تتراجع حتى التصق ظهرها بالحائط. اقتربتُ من أذنها وهمستُ بنبرة فحيح الأفاعي:

"فلتذهبي إلى الجحيم أنتِ ودراستكِ.. هل فهمتِ؟"

رأيتُ الرعدة في أوصالها، فتلك الجملة كانت كافية لتذكرها بأنني لستُ مجرد أخت كبرى، بل أنا الكابوس الذي تخشاه. تركتُها ترتجف في مكانها ونزلت الدرج بخطى واثقة. مررتُ بزوج أمي مرة أخرى، فناداني دون أن يجرؤ على الوقوف:

"مهلاً! إلى أين تذهبين الآن؟"

"لا شأن لك!".. ألقيت الكلمة دون أن ألتفت، وصَفعتُ الباب خلفي بقوة اهتزت لها جدران المنزل.

كنتُ أغلي من الداخل. العالم يضيق بي؛ هاتفي بعيد، وجماعتي ينتظرون إشارة، لكنني لم أرد العودة لساندرا فوراً، فغضبي كان أكبر من أن أحتمله في بيتها الهادئ. مشيتُ في الشوارع حتى خذلتني قدماي، فجلستُ على مقعد عمومي أراقب الشمس وهي تغرق في الأفق، تاركةً المكان للظلام.

أسندتُ رأسي للخلف، أبعدتُ خصلات شعري المتمردة عن عينيّ، لكن سكوني انكسر حين شعرتُ بجسد يجلس بجانبي. لم أنظر إليه، ولم يكن يهمني من يكون، فقط قلت بنبرة جليدية:

"انهض من هنا.. الآن."

لم يتحرك. استشطتُ غضباً والتفتُّ إليه وأنا أستعد لغرس قبضتي في وجهه:

"ألم تسمع ما قلته؟ ارحل وإلا.."

في تلك اللحظة، أومض مصباح الشارع فوقنا مباشرة، فكشف عن ملامحه. أنزلتُ يدي وزفرتُ بضيق، ثم أدرتُ وجهي للجهة الأخرى متمتمةً:

"ماذا تريد؟"

لم ينطق بحرف. وضع في يدي ورقة مطوية بعناية ثم اختفى في عتمة الليل كأنه لم يكن. تبعته بنظراتي حتى توارى عن الأنظار، ثم فتحتُ الورقة لأقرأ ما فيها: "تعالي إلى المقر في تمام الساعة الثامنة الليلة!"

فكرة الانسحاب من المافيا كانت تراودني، فوضى السجن جعلتني أرغب في الهدوء، لكن الواجب -أو ربما القدر- كان يشدني مجدداً. طويتُ الورقة، وضعتها في جيبي، واتجهتُ عائدةً إلى حيث الأمان الوحيد المتبقي لي.. منزل ساندرا.

طرقتُ الباب ففتحت لي بلهفتها المعتادة، دخلتُ وارتميتُ على الأريكة بجسدٍ منهك وروحي تائهة. نظرتْ إليّ بتساؤل وهي تبحث في يديّ الفارغتين:

"أين الأغراض التي قلتِ إنكِ ستحضرينها؟"

زفرتُ بملل وأنا أغمض عينيّ:

"لقد أغلقتُ الغرفة بالمفتاح قبل دخولي السجن، والآن.. اللعنة، لقد نسيتُ أين وضعتُه."

صمتت ساندرا للحظة، ثم مالت برأسها وسألت بخبث طفولي:

"مفتاح غرفتكِ؟"

أومأتُ برأسي يائسة، فتابعت بابتسامة منتصرة:

"إنه معي! لقد أعطيتِني إياه في إحدى زياراتي لكِ بالسجن، ألا تذكرين؟ قلتِ لي حينها: احتفظي به حتى أخرج."

ومضت الذكرى في عقلي كشرارة برق، تمتمتُ بذهول:

"آه.. نعم، صحيح. يبدو أن جدران السجن أكلت جزءاً من ذاكرتي."

ابتسمت برقة وقالت وهي تحاول طمأنتي:

"لستِ فاقدة للذاكرة، أنتِ مشوشة فحسب.. وهذا طبيعي. اذهبي وارتاحي الآن، لديّ هنا كل ما قد تحتاجينه، ولا داعي للعودة إلى ذلك المنزل مجدداً. وإذا أردتِ استخدام الهاتف، فستجدين هاتفي في غرفتي."

نظرتُ إليها باستغراب، واقتربتُ منها لأنقر على جبهتها بإصبعي قائلة بنبرة جادة:

"يا ذكية.. لا يمكنني فتح أي حساب لي على هاتفكِ، هل نسيتِ أنهم سيتتبعون أثركِ فوراً؟"

فركت مؤخرة رأسها بضحكة خجولة قائلة: "آه.. نسيتُ هذه التفصيلة."

صعدتُ إلى غرفتها، وقع بصري على الهاتف فوق المكتب، فتحته لأرى الوقت.. كانت السابعة تماماً، شدتني الصورة التي تجمعني بها كخلفية لشاشتها، ابتسمت دون أن أشعر ثم جلستُ أغرق في تفكيري؛ هل أذهب للمقر أم أتجاهل الأمر؟ اشتقتُ للرفاق، اشتقتُ لضجيجهم وضحكاتهم، لكنني أشعر بغصة من "جيوفاني". ذلك الرجل، زعيم العصابة، الذي لم يمد لي يد العون طوال عامين، وكأنه محا اسمي من دفاتره بمجرد خلفي القضبان. "ليذهبوا جميعاً إلى الجحيم"، هكذا قررتُ أخيراً.

دخلتُ الحمام، تركتُ الماء الدافئ يغسل عني غبار السنتين. ارتديتُ الملابس التي قدمتها لي ساندرا، وجففتُ شعري القصير الذي لم يستغرق وقتاً، ثم نزلتُ إلى الأسفل.

في المطبخ، كانت ساندرا غارقة في تحضير العشاء. جلستُ على الكرسي أراقب حركتها السريعة وقلت بتذمر مصطنع:

"لماذا كل هذا التأخير؟ أنا أتضور جوعاً!"

تنحت جانباً لتكشف لي عن مائدة غنية بما لذ وطاب، اتسعت عيناي من هول المنظر:

"ما كل هذا؟ هل أبدو لكِ كبقرة لآكل كل هذه الأصناف؟"

ضحكت بخفة وهي تضع اللمسات الأخيرة:

"لستِ بقرة، لكنني أردتُ تعويضكِ عن جوع عامين كاملين. ولا تعتادي على هذا الدلال، فأنا أفعل ذلك اليوم فقط احتفالاً بعودتكِ."

ابتسمتُ في صمت، لكنها قطعته بسؤال حذر:

"لم تفتحي الغرفة إذاً.. ما الذي أخّركِ؟ هل تعرضتِ لمضايقة من والدكِ أو أختكِ؟"

انقبضت ملامحي بانزعاج وقلت بحدة:

"لا تقولي والدي، هو ليس كذلك. لم يزعجني أحد، لكن غضباً مفاجئاً تملكني فجلستُ في الشارع الرئيسي قليلاً لأستعيد هدوئي."

أومأت بتفهم، فأضفتُ بهدوء:

"بينما كنتُ هناك، ظهر 'رايدر' فجأة وسلمني ورقة.. يطالبون بحضوري للمقر في الثامنة."

شهقت ساندرا وهي تنظر للساعة: "لكنها السابعة والنصف! ستتأخرين!"

أجبتُ ببرود وجفاء: "لن أذهب."

"لماذا؟ هل هناك خطب ما؟"

هززتُ كتفيّ بلا مبالاة: "فقط لا أريد."

ربتت على يدي قائلة: "المهم أنكِ هنا، وأنكِ بخير."

نُصبت الطاولة واحتلتها أطباقي المفضلة. بدأتُ بالأكل بنهم بينما كانت ساندرا تقصّ عليّ أخبار العامين اللذين فاتاني. كنتُ أنصتُ بصعوبة وأنا أمضغ الطعام بشراهة، حتى توقفت فجأة وسألتني: "هل تسمعينني يا يارا؟"

أجبتُ بصوت مكتوم من كثرة الأكل: "أجل.. أجل، أكملي."

بعد العشاء، ساعدتها في التنظيف رغم كرهي الشديد للأعمال المنزلية، ثم جلسنا أمام التلفاز. قالت ساندرا فجأة بنبرة عتاب:

"لقد حكيتُ لكِ كل تفاصيل حياتي المملة، وأنتِ لم تقولي شيئاً بعد."

تظاهرتُ بالغباء: "شيئاً مثل ماذا؟"

"عما حدث معكِ في هاتين السنتين؟"

تنهدتُ بضيق وقلت: "آه.. لا تظني أنني كنتُ في رحلة استجمام. إنه السجن؛ استيقاظ باكر، أعمال شاقة، وقوانين خانقة. لقد بذلتُ جهداً خرافياً كي لا أفقد أعصابي وأقتل حارساً أو اثنين."

ارتعبت ساندرا وقالت بصوت متهدج: "أوه.. يارا! لا تستهيني بالأمر. لقد استنزفتُ كل علاقاتي كمحامية لأخفف حكمكِ إلى سنتين، لكن إذا عدتِ إلى هناك ثانية، فلن يرحمكِ أحد.. قد تمكثين للأبد خلف تلك الجدران."

نظرتُ إلى الفراغ ببرود وقلت: "هذا لا يهم.."

كاد صمت الغرفة يطبق على المكان، لولا طرقات خفيفة ومترددة على الباب قطعت حديثنا. نهضت ساندرا وعلى وجهها علامات الحيرة، فهي لا تنتظر زائراً في هذه الساعة المتأخرة. فتحت الباب، ثم عادت إليّ بخطى مرتعشة ووجه شاحب يكسوه القلق.
نظرتُ إليها بتمعن، وسألتها بحركة من يدي: "من الطارق؟"، لكنها لم تجب بلسانها، بل اكتفت بالإشارة نحو الباب بعينين ملؤهما الخوف.

نهضتُ لأرى ما الذي أربك هدوءها، فوجدتُ "رايدر" واقفاً هناك كظلٍ ثقيل. خرجتُ إليه وأوصدتُ الباب خلفي، تاركةً ساندرا تراقبنا من وراء زجاج النافذة بعينين لا تفارقهما الرهبة.

تفرّس رايدر في وجهي قليلاً، ثم نطق بصوته الخشن المبحوح الذي يحمل صدى المعارك:

"لماذا لم تأتِ؟"

أجبتُه ببرود تام، ودون أن يرمش لي جفن:

"ببساطة.. لأنني لا أريد."

رسم ابتسامة باهتة على شفتيه، وناظرني بحدة قائلاً:

"لكنكِ لستِ صاحبة القرار هنا يا 'سيليست'.. جيوفاني هو من يقرر، وهو يريد رؤيتكِ الآن، وأنتِ تعلمين أن أوامره لا تُناقش."

صمتُّ أراقبه، فأضاف بنبرة حاول جعلها أكثر ليونة:

"أعلم أنكِ مستاءة، وعندما تأتين ستفهمين كل شيء.. صدقيني، هروبكِ لن يغير من الواقع شيئاً."

تنهدتُ بقلة حيلة؛ فكلامه الأخير كان يحمل حقيقةً مُرة لا مفر منها. قلتُ له باقتضاب:

"حسناً.. انتظرني حتى أغير ملابسي."

عدتُ إلى الداخل، كانت ساندرا لا تزال متسمرة خلف النافذة. اقتربتُ منها وقلت بهدوء:

"سأذهب معه.. لا تنتظريني، فربما يطول الأمر."

صعدتُ إلى الغرفة، خلعتُ ثياب المنزل المريحة وارتديتُ زيّ المهمات؛ قميصاً أسود واسعاً وسروالاً عريضاً يمنحني حرية الحركة. وحين نزلتُ، لوحتُ لساندرا بيدي، فسمعتُ همسها المرتجف يلاحقني: "اعتني بنفسكِ يا يارا!"

خرجتُ لأجد رايدر في انتظاري، أشار بيده نحو سيارة سوداء ضخمة ركبتُ في مقعدها الخلفي. طوال الطريق، لزمتُ الصمت المطبق، أراقب الشوارع المقفرة من خلف الزجاج، وكأنني أودع الحرية التي لم أتذوقها سوى لساعات.

وصلنا المقر، فتح لي رايدر الباب فترجلتُ ودخلتُ خلفه بخطى واثقة. في القاعة الرئيسية، كان الجميع يتحلقون حول جيوفاني كأنه إله الحرب. ألقيتُ نظرة شاملة، باردة، ومتمحصة على الوجوه، ثم وقفتُ أمامه بثبات الجبال.

ناظرني مطولاً بعينيه الصقراويتين اللتين تخترقان الأرواح، ثم قال بنبرة مشوبة بسخرية لم تخفَ عليّ:

"أهلاً بكِ في منزلكِ مجدداً.. لقد اشتقنا إليكِ، أليس كذلك يا رفاق؟"

لم أمنحه متعة الرد، بل ركزتُ نظراتي الحادة داخل عينيه مباشرة. أضاف بحدة آمراً:

"اجلسي!"

أشار إلى الكرسي المجاور له. تقدمتُ بخطوات رصينة وجلستُ أناظره. كان هناك جرح عميق وجديد يقطع ملامحه، لكنني لم أسأل، فالأسئلة في عالمنا ضعف. حولتُ بصري نحو البقية؛ وجوه قديمة أعرفها، ووجوه جديدة غريبة يبدو أنها انضمت في غيابي. لكنني لم ألمح "كارولين"، سألته بحدة:

"أين كارولين؟"

ابتسم ابتسامة جانبية باردة وقال:

"لقد انتهى أجلها."

لم تهتز شعرة مني، بل اكتفيتُ بابتسامة مريرة وسألت:

"وكيف ماتت؟"

"لم تمتثل لأوامري.. ذهبت للانتقام بمفردها، فكان حتفها على يد العدو. خسارتها آلمتني، لكن عودتكِ الآن ستعيد التوازن الذي فُقد."

رمقتُه بنظرات كأنها سهام مسمومة. كيف يتحدث عن أقوى أعضائه بهذه السهولة؟ وكأننا مجرد أدوات استهلاكية في رقعة شطرنج. قلتُ بملل ظاهر:

"لماذا استدعيتني؟"

عادت ملامحه للصرامة والجدية:

"لماذا تتصرفين كأنكِ عدوة؟ أو كأنكِ لا تعرفين من هو جيوفاني! ما الذي فعله السجن برأسكِ؟"

نظرتُ إليه ثم إلى البقية، والتزمتُ صمتاً مستفزاً. نهض فجأة وأشار لي باتباعه، فمشيتُ خلفه حتى دخلنا مكتبه، وأوصد الباب علينا، ليترك الضجيج خلفنا ويبدأ المواجهة الحقيقية.

أوصد الباب بإحكام، وكأن صوته وهو ينغلق كان إيذاناً ببدء المحاكمة. التفت إليّ وقال بنبرة آمرة لا تقبل المراوغة:

"تكلمي الآن.. ما الذي يدور في ذهنكِ؟"

وقفتُ ندّاً له، وصدرت مني الكلمات بنبرة شبه صارخة، تختنق بمرارة السنتين الماضيتين:

"أحقاً لا تعلم؟ لقد قضيتُ في السجن عامين كاملين، سبعمائة وثلاثون يوماً وأنا أحترق في جحيم الانتظار. كل ثانية كانت تمر كأنها قرن من العذاب.. وأنت؟ ماذا فعلت؟ لقد نبذتني كقطعة خردة، ولم تكلف نفسك حتى عناء زيارتي!"

قاطعني بضحكة ساخرة جردتني من منطقي:

"زيارتكِ؟ أأنتِ جادة؟ هل تطلبين مني أن أسير بقدميّ إلى مخفر الشرطة وأسلمهم رأسي ببساطة؟"

صككتُ على أسناني بغضب:

"لقد فعلتُها أنا، أليس كذلك؟ أم أنك تستهزئ بي وترى أن قدري هو السجن وقدرك هو العرش؟"

تغيرت لهجته قليلاً، واقترب مني بخطوات هادئة:

"لم أقصد الحط من شأنكِ أبداً، لكنكِ أنتِ من ألقيتِ بنفسكِ في تلك التهلكة بسبب تهوركِ الأرعن. ومع ذلك، قدمتُ لكِ مساعدة لم يحلم بها أحد في هذا العالم.."

قاطعتُه بتشكيك:

"ساعدتني؟ متى وكيف؟ لم ألمح طيفك حتى في أحلامي هناك."

قال بحدة وهو يضيق الخناق عليّ بكلماته:

"لا تتغابي يا سيليست! لقد قتلتِ شرطياً وأنتِ تحت تأثير مخدر قوي.. في القانون، هذا يعني السجن مدى الحياة بلا رحمة. فكيف انتهى بكِ الأمر بعامين فقط؟ أنا من حركتُ الخيوط من خلف الستار، وأنا من وفرتُ الحماية لصديقتكِ ساندرا وسمحتُ لها بزيارتكِ، لأنها الوحيدة التي لن تثير شبهات القانون بصفتها محامية."

أطرقتُ رأسي والجمتني الحقيقة للحظات، كنتُ أظن نفسي وحيدة لكن خيوطه كانت تحيط بي فعلاً. فجأة، شعرتُ بأصابعه تحت ذقني، ترفعه برفق وقوة في آن واحد، ليجبرني على النظر في عينيه:

"لا تظني يوماً أنني تخليتُ عنكِ، فأنا لا أتركُ من يخصني أبداً.. ثقي بي. والآن، كفي عن التصرف برعونة حتى لا تقعي في حفرة لا مخرج منها، اتفقنا؟"

أومأتُ برأسي في صمت، فأضاف وهو يتجه للباب:

"لدينا الكثير لنفعله معاً.. فلا تغيبي عنا ثانية."

خرج وتبعته بخطى هادئة نحو القاعة الرئيسية. جلسنا في أماكننا المعهودة، فاستأنف جيوفاني حديثه للجميع:

"لدينا عضوان جديدان؛ أحدهما سيحل مكان كارولين، والآخر سيكون في فريق المطبخ."

ناظرني جيوفاني فبادلته النظرة، ثم جالت عيناي على الوجوه الحاضرة. لقد نسيتُ أن أخبركم؛ منظمتنا تقوم على أكتاف ثمانية أعضاء رئيسيين، والبقية ليسوا سوى خدم وهامش:

جيوفاني روسو – الزعيم. صاحب الكلمة الأخيرة، ومدير العمليات الكبرى.

ماركو بولو – مسؤول الأمن، عين لا تنام.

باولو فيتال – طبيبنا، يرمم ما تكسره المعارك.

لوكا موريتي – العقل الاستراتيجي، لا يتحرك دون خطة.

رايدر فالكون – وجهنا الاجتماعي... وجاسوسنا الأذكى.

براين سينزو – قاتل الظلال، لا يُرى إلا بعد فوات الأوان.

كارولين مالسيني – كانت عقل التكنولوجيا... حتى انتهى دورها.

والآن يعوضها فيليكس كيران.

وأخيراً أنا.. "سيليست كاروسو": عين العصابة والمسؤولة عن جمع المعلومات السرية.

غمرتني موجة حزن عابرة على كارولين؛ لقد أصبحتُ الفتاة الوحيدة في هذا الوكر من الرجال. لكن هذا لم يرهبني يوماً؛ فلطالما ردد جيوفاني أنني "أقوى من جيش من الرجال"، وهذا ما جعلني خياره الأول دائماً.

كنتُ غارقة في شتات أفكاري حتى اخترق صمتي صوتُ "فيليكس"، ذلك العضو الجديد الذي بدا لي في غاية السخافة وهو يحاول كسر الجليد:

"أنا وافد جديد على هذه العائلة، ولم أحظَ بشرف التعرف عليكِ بعد.. هل نبدأ؟"

رمقتُ جيوفاني بنظرة سريعة، فرأيته يبتسم لي مشجعاً، فقلت باقتضاب: "تفضل."

"أنا فيليكس كيران، في الخامسة والثلاثين، خبير الأنظمة والتكنولوجيا.. وأنتِ؟"

تفرستُ في وجهه بتعجب؛ فملامحه الناعمة توحي بصدقٍ زائف وأصغر بكثير من عمره الثلاثيني:

"سيليست كاروسو.. في الخامسة والعشرين، ومهمتي هي استخراج الأسرار والمعلومات."

مدّ يده بابتسامة دافئة: "تشرفتُ بمعرفتكِ!"

رغم مقتي للمصافحة، مددتُ يدي مكرهة وبادلتُه ابتسامة باهتة. فجأة نهض جيوفاني وصاح بصوتٍ جهوري:

"فلنحتفل بعودة سيليست!"

تعالت الهتافات باسمي، وشعرتُ بوخزة من الفخر تداعب قلبي رغم محاولتي للثبات. خلال لحظات، تحولت حديقة الفيلا الضخمة إلى ساحة احتفال؛ قوارير النبيذ الفاخر، قوالب الحلوى، وضجيج الموسيقى. اعتزلتُ الزحام وجلستُ في زاوية بعيدة أراقبهم وهم يغرقون في الرقص والثمالة. لم يفت الأمر على "رايدر" الذي اقترب وجلس بجواري:

"ما بالكِ؟ ألا يروق لكِ الاحتفال؟"

هززتُ رأسي نفياً: "بلى، لكنني منهكة.. لم يزرني النوم الحقيقي منذ أمد بعيد."

أجاب بتفهم: "أأمر الخدم بتجهيز جناحكِ الخاص هنا؟"

"كلا، سأعود إلى منزلي."

رفع حاجبيه متسائلاً: "كما تشائين، هل تحتاجين إلى توصيلة؟"

نظرتُ إليه بامتنان مخفي: "سيكون ذلك لطفاً منك."

أخرج مفاتيح سيارته بحيوية: "هيا بنا إذاً!"

"الآن؟" سألتُه بدهشة.

رفع كتفيه بلامبالاة: "ألم تقولي إنكِ متعبة؟ انهضي!"

سايرتُه وركبتُ بجانبه. وبينما كانت السيارة تلتهم الطريق نحو منزلي، وقع بصري على الساعة.. الثالثة فجراً. همستُ لنفسي: "لابد أن الجميع في غطس عميق من النوم."

سألني رايدر بصوته الخفيض: "وما الحل إذاً؟"

في تلك اللحظة، صفعني الواقع؛ لقد نسيتُ أن مفتاح غرفتي الموصدة لا يزال بحوزة ساندرا. قلتُ بحرجٍ لم أعتد عليه: "يا للهول.. نسيتُ أن غرفتي مغلقة، والمفتاح ليس معي."

ابتسم بمكر: "وما العمل؟ هل نقتحم منزل صديقتكِ أم نعود أدراجنا للمقر؟"

فكرتُ قليلاً ثم قلت بضيق: "لا هذا ولا ذاك.. أريد فقط أن أرتاح من ضجيج كل شيء."

خيم الصمت علينا لنصف ساعة، حتى قطعه رايدر بسؤال مفاجئ:

"لماذا قتلتِ ذلك الشرطي؟"

ترددتُ قليلاً قبل أن أجيب: "كنتُ أسير في الشارع، أخفي ملامحي بكمامة وشعري المنسدل. استوقفتني دورية شرطة وأمرني أحدهم بكشف وجهي.. رفضتُ، فحاول استخدام القوة معي. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أطعنه طعنات متتالية قبل أن ألوذ بالفرار. لكنهم تتبعوني إلى منزلي.. وبقيتُ تحت التحقيق حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، فكان الحكم عامين."

رفع حاجباً باستغراب: "أهذا ما تعلمتِه من جيوفاني؟ أن تقتلي ثم تهربي إلى منزلكِ؟ يا له من غباء!"

هززتُ كتفي كطفلة تدعي البراءة: "حدث كل شيء في رمشة عين. لم أكن بوعيي، كانت المخدرات تعبث بعقلي ولم أتوقع أن أصل إلى تلك الدرجة من العنف."

"إياكِ وتكرارها.. تحكمي في جرعاتكِ، رغم أن جيوفاني يحظر ذلك تماماً. غيابكِ خلف فوضى عارمة.. لكن أخبريني، هل كنتِ حقاً بخير قبل فعلتكِ تلك؟"

زفرتُ بضيق: "دعنا من الماضي.. أخبرني ما الذي فاتني في المنظمة؟"

"ماتت كارولين كما علمتِ، وانضم فيليكس. قمنا بأربع عمليات سطو كبرى على بنوك عالمية، ونشطنا في تجارة الأعضاء، ووزعنا سمومنا في آسيا وأفريقيا.. كما دخلنا في حرب باردة مع عصابة إيطالية جديدة."

سكت قليلاً، ثم مد يده فجأة وأزاح خصلات شعري عن وجهي:

"لماذا تخفين وجهكِ هكذا؟ أنتِ أجمل بكثير حين ترفعين شعركِ."

بسرعة خاطفة، لويتُ معصمه وضربتُ كتفه بقوة جعلته يصرخ من الألم: "واللعنة! ماذا بكِ؟ لم أقل عيباً!"

رمقتُه بنظرة حادة: "لا تلمسني مجدداً.. وإلا ألحقتُك بذاك الشرطي."

قال وهو يعتصر كتفه بألم: "لا أدري لماذا يكلف جيوفاني 'براين' بالقتل وأنتِ أكثر براعة وقسوة منه."

قلدتُ صوته بسخرية: "جيوفاني يعرف لمن يوكل المهام.. لا تتدخل فيما لا يعنيك."

انطلق بالسيارة عائداً إلى المقر، ومع بزوغ خيوط الفجر الأولى في الخامسة صباحاً، كنتُ قد عدتُ إلى الوكر الذي هربتُ منه.. وكأنني مقدر لي ألا أجد الراحة أبداً.

توهمتُ أن الهدوء قد بسط رداءه على المكان، لكن صخب الاحتفال كان لا يزال في أوجّه حين خطوتُ داخل المقر. وفور دخولنا، انصهرت كل الأعين لتستقر علينا في نظرة واحدة مريبة. تقدم "جيوفاني" نحونا بخطى واثقة، يقبض على كأسه بنبرة جليدية اخترقت الضجيج:

"أين كنتما؟"

طأطأ رايدر رأسه محاولاً صياغة عذر، لكن لكمة جيوفاني الخاطفة أسكتته تماماً وألجمت الموسيقى في عروق القاعة. ساد صمتٌ مطبق، لم يقطعه سوى همسات الحاضرين التي بدأت تتصاعد كفحيح الأفاعي. مسح رايدر الدماء عن فمه ووقف من جديد محاولاً التحدث، إلا أن لكمة ثانية كانت في انتظاره لتطرحه أرضاً. حينها، سدد جيوفاني نظراته الصقرية نحوي وصرخ بصوت زلزل المكان:

"أنا أسألكِ أنتِ يا سيليست! أين كنتما حتى هذه الساعة؟"

تملكني رعبٌ خاطف؛ فجيوفاني لا يعرف الرحمة، ولا تفرق قبضته بين رجل أو امرأة. لزمتُ الصمت أرقب تحركاته، وحين كرر سؤاله بصراخ هستيري، رأيت يده ترتفع لتهوي على وجهي. وبسرعة لم أتخيل أنني أملكها، قبضتُ على يده بقوة، لويتُها خلف ظهره بحركة خاطفة أدت إلى كسر كأسه وانسكاب النبيذ عليه. صرتُ ممسكة به من الخلف، وهمستُ في أذنه بنبرة تقطر تحدياً:

"لستُ واحدة من رجالك الذين تضربهم متى شئت.. لا تتجرأ وتكرر فعلتكَ هذه ثانية!"

شعرتُ في تلك اللحظة ببرودة الموت في عينيه، لكنني لم أرخِ قبضتي، بل شددتُ عليها أكثر حتى شعرتُ بملامحه تهدأ قليلاً. أفلتُّه، فتراجع خطوة ثم اندفع نحوي حتى ألصقني بالحائط، محاصراً إياي بذراعه فوق رأسي. كان طوله الفارع يجبرني على رفع رقبتي لأواجه عينيه الغامضتين. قرب وجهه مني حتى شعرتُ بأنفاسه، وقال بهدوء مخيف:

"سأغفر لكِ هذه المرة.. يبدو أنكِ نسيتِ القواعد الأساسية، لذا سأعلمكِ إياها من جديد."

انسحب فجأة ودخل الفيلا، تاركاً إياي تحت رحمة نظراتهم الجائعة. كانت همساتهم تملأ الأفق: "كيف تجرأت؟"، "لماذا سامحها؟"، "لو فعلها غيرها لكان رأسه يتدحرج الآن!". لم أحتمل نظرات الفضول تلك، فصرختُ فيهم بغضب:

"إلى ماذا تنظرون يا حثالة؟ انقشعوا من أمامي فوراً!"

تفرق الجميع ولم يبقَ سوى رايدر الذي مسح أثار الدماء وضحك باستهزاء:

"لقد تلقيتُ أقوى لكمتين في حياتي بسبب حماقتكِ."

نظرتُ إليه بذهول وقلت: "لا أفهم حقاً لماذا ثار هكذا!"

هز كتفيه بيأس: "ولا أنا.. لقد أصبح تصرفه غريباً ومتقلباً مؤخراً."

دخلتُ الفيلا بملامح عابسة، وأمرت الخدم بتجهيز غرفتي. وبينما كنتُ أنتظر في القاعة، جاء "ماركو" وجلس بجانبي يراقبني بصمت مستفز. تجاهلتُه وحدقتُ في السقف حتى قال:

"لقد عدتِ بجرعة زائدة من الجرأة هذه المرة، أليس كذلك؟"

"وهل يزعجك الأمر؟" سألتُه بحدة.

ضحك بخفة: "وما شأني أنا؟ لا تصبي غضبكِ عليّ.. لكن حقاً، كيف تجرأتِ على تحدي جيوفاني؟ هل جننتِ يا فتاة؟"

رفعتُ يدي في وجهه وصرختُ: "لا تنعتني بالفتاة ثانية! ثم إن جرأتي تخصني وحدي، هل فهمت؟"

هز رأسه، ونهض قائلاً وهو يبتعد دون التفات: "يبدو أننا سنفتقدكِ قريباً إذا استمررتِ هكذا.. اعتني بنفسكِ يا 'صغيرتي'."

تمتمتُ بغيظ: "صغيرتي؟ يا له من متعجرف!". لكن في أعماقي، كنتُ أعلم أنه على حق. لقد بدأتُ أتمرد على الرجل الذي كنتُ أقدسه يوماً، صرتُ أواجهه بصلابة وأردع يده. آمل فقط أن تمر هذه العاصفة دون أن تقتلعني من جذوري.

لم يمر وقت طويل حتى نادتني الخادمة لتخبرني أن غرفتي أصبحت جاهزة. دخلتها والإنهاك يلف حواسي، ارتميتُ فوق السرير بجسدي المثقل دون أن أكلف نفسي عناء تبديل ثيابي أو حتى خلع حذائي. استسلمتُ لنومٍ عميق لم تكسره سوى أشعة الشمس التي تسللت بوقاحة لتداعب جفنيّ، معلنةً عن صباحٍ جديد. استويتُ في مكاني وأنا أشعر بألمٍ ينهش كل عضلة في جسدي؛ وهو ثمنٌ طبيعي لتلك الوضعية القاسية التي نمتُ بها.

نهضتُ بتكاسل، غسلتُ وجهي لأطرد بقايا النعاس، ثم خرجتُ لأجد الستة مجتمعين في قاعة الجلوس. كان "جيوفاني" الغائب الوحيد عن المشهد. جلستُ وسطهم وسألتُ بصوتٍ مبحوح يكسوه أثر النوم:

"أين جيوفاني؟"

تنهد "ماركو" بعمق، ونظر إليّ بعتابٍ لا يخلو من مودة:

"يبدو أنكِ لن تتغيري أبداً، حتى لو قضيتِ مئة عام خلف القضبان.. ألقي تحية الصباح على الأقل!"

أخرجتُ له لساني بحركة طفولية فتعالت ضحكاتهم، وارتسمت على وجهي ابتسامة خفيفة تزامنت مع دخول جيوفاني. جلس بيننا ورمقني بنظرة غامضة قبل أن يقول بمداعبة مستفزة:

"تسألين عني؟ هل اشتقتِ إليّ بهذه السرعة؟"

عقدتُ ذراعيّ فوق صدري وأجبتُه بنبرة واثقة:

"ليس بالضبط.. كل ما في الأمر أنني لم أجدك معهم فسألت، لا أكثر."

أومأ برأسه بهدوء، ثم ضرب بكفيه على الطاولة ضربةً خفيفة كانت كافية لإعلان حالة الاستنفار. نهض قائلاً:

"لدينا مهمة معقدة يجب أن تُنجز خلال ساعة واحدة.. فليتجهز الجميع في مواقعهم."

نهضنا جميعاً دفعة واحدة، وكنتُ أتأهب للحاق بالشباب، لكن صوت جيوفاني أوقفني كالسد المنيع:

"سيشارك الجميع.. ما عدا سيليست، ستبقى لترتاح اليوم."

اعتصمتُ بابتسامة عناد وقلتُ محتجة:

"لستُ متعبة، وأريد المشاركة بشدة!"

رفع حاجباً واحداً ونطق بلهجة آمرة لا تقبل الجدل:

"نفذوا ما أقوله فحسب!"

تبادلتُ مع الشباب نظراتٍ يملؤها الأسى، ثم تركوني واتجهوا نحو القبو لبدء التخطيط. شعرتُ بوخزة في قلبي؛ حزنٌ ممزوج بغيظ مكتوم. رمقتُ جيوفاني بنظرات مؤنبة، لكنه تجاهلني وانضم إليهم. بقيتُ وحيدة في القاعة، أصارع أفكاري؛ هل يريد حقاً راحتي أم أنه يعاقبني بطريقته الخاصة على تمرد ليلة أمس؟ الخيار الثاني هو الأرجح في قاموس جيوفاني. لكن لا بأس.. سأريك يا جيوفاني ما يمكن لسيليست فعله حين تُستبعد.

بعد دقائق، خرجوا من القبو وقد ارتدوا ملابس العمليات السوداء. حين رأيتهم، اجتاحتني موجة عارمة من الحنين لتلك الأيام التي كنتُ فيها جزءاً من هذا الضجيج. حقدتُ على جيوفاني في سري لأنه حرمني من استنشاق أدرينالين المهمات مجدداً. كلما وقعت عيني على واحد منهم، وجدتُ فيها نظرة شفقة.. تلك النظرة اللعينة التي أمقتها أكثر من أي شيء آخر.

أدرتُ وجهي للجهة الأخرى متجاهلة إياهم، حتى سمعتُ صوت محركات السيارات وهي تبتعد، مخلفة وراءها صمتاً قاتلاً، وشابةً تقسم في سرها أنها لن تظل متفرجة.

لم أطق البقاء دقيقة واحدة إضافية في ذاك المقر وأنا مستبعدة. حملتُ غضبي واتجهتُ فوراً إلى منزل ساندرا. ما إن فتحت الباب حتى قرأت في ملامحي عاصفة من الانفعال، لكنني لم أمنحها فرصة للسؤال، بل قلتُ باقتضاب:

"أين المفتاح؟"

أومأت برأسها بصمت، وصعدت لتعود بعد ثوانٍ حاملةً مفتاح غرفتي. أخذتُه وغادرتُ دون كلمة واحدة، تاركةً إياها غارقة في حيرتها. عدتُ إلى منزل زوج أمي، وقبل أن تفيق الخادمة من صدمة دخولي العنيف، كنتُ قد صعدتُ الدرج ووقفتُ أمام باب غرفتي.. وأخيراً، عاد المفتاح لمكانه.

فتحتُ الباب وارتميتُ على السرير بهمجية، وكأنني أنتقم من عامين من النوم على الأسرة الصلبة. عبثتُ بالأغطية حتى أفسدتُ ترتيبها، ثم وقع بصري على هاتفي القابع فوق الطاولة. حملتُه وخرجتُ إلى الشرفة، وبدأتُ أتفحص الرسائل المتراكمة؛ جبالٌ من

الكلمات من ساندرا، وأعضاء العصابة، وحتى أختي. بلمسة باردة، مسحتُ كل شيء.. لا أريد أن أقرأ أطلال الماضي. أفرغتُ الجهاز من محتوياته وأعدتُ برمجة ما أحتاجه فقط: أرقام "العائلة" ورقم ساندرا.

دخلتُ إلى ملف الصور، فتوقف الزمن بي قليلاً. صوري قبل عامين.. كان شعري أطول، وملامحي أكثر امتلاءً. ظللتُ أستعرض الذكريات حتى استوقفتني صورة محددة؛ كنا نقف جميعاً، أنا والرفاق وكارولين، بعد نجاح اقتحامنا الأول لبنك عالمي. ابتسمتُ بسخرية ومرارة حين رأيتُ يد جيوفاني روسو وهي تستقر فوق كتفي.

في تلك اللحظة، تذكرتُ كيف كان قلبي يقرع طبول الحرب حينها؛ لقد كنتُ غارقة في إعجابي به، بل وكنتُ على وشك الاعتراف له بمشاعري، لولا أنه كان يرمقني دائماً بنظرة "زميلة العمل" الباردة. أما الآن.. فأنا أشعر بشيء مختلف تماماً، شيء يشبه الرغبة في تحطيم تلك النظرة.

نزلتُ إلى المستودع، حيث تقبع "سودائي الضخمة". سيارتي هي ابنتي التي لم ألدها. مسحتُ الغبار عن هيكلها برفق، ثم استدعيتُ الخدم لتنظيفها من الخارج فقط؛ فلا أسمح لأي كائن أن يعبث بخصوصية مقصورتها. دقائق، وكانت تبرق تحت الأضواء كقطعة من ليل حالك. ركبتها وانطلقتُ، مخلفةً خلفي المنزل ومن فيه، دون أن أسأل عن أختي أو زوج أمي، فوجودهما في حياتي ليس سوى "تحصيل حاصل".

عدتُ إلى ساندرا، لكن هذه المرة بمحرك يزأر تحت قدمي. دخلتُ وارتميتُ على أريكتها متسائلة:

"ألديكِ خطط لليوم؟"

نفت برأسها، فقلتُ: "إذاً، تجهزي.. لنذهب في جولة بالسيارة."

أضاء وجهها بحماس: "اتفقنا! انتظريني لأتجهز."

زفرتُ بضيق؛ فأنا أعلم طقوس ساندرا المملة مع الفساتين والمكياج.. لا أفهم حقاً كيف تطيق تلك التفاصيل "الأنثوية" الزائدة. بعد نصف ساعة من الانتظار، خرجت بكامل أناقتها، وانطلقنا نجوب الشوارع. شعرتُ بالتحسن وبدأ ضيق المهمة يتلاشى، لكنني لاحظتُ أن ساندرا ليست على طبيعتها. سألتها بحذر: "هل أنتِ بخير؟"

ابتسمت لي بوهن: "أجل.. أنا بخير."

لم أضغط عليها؛ فساندرا كتاب مفتوح، ولو كان هناك خطب جسيم لسكبته في أذني فوراً.

مع حلول المساء، أعدتها إلى منزلها رغم توسلاتها بأن أبيت عندها. ركنتُ سيارتي في مستودع منزلي، وأوصيتُ الحارس عليها وكأنني أوصيه على روحي، ثم دخلتُ إلى غرفتي لأواجه هدوءاً كنتُ أفتقده.. وربما أخشاه.

أمرتُ الخدم بتجهيز طبق من "الباستا"، فهي رفيقتي الدائمة حين أرغب في الهروب من العالم. ما إن وُضع الطبق أمامي حتى استسلمتُ للذّة الطعام أمام التلفاز، أحاول جاهدةً ألا أفكر في شيء. لكن هدوئي تبخر حين دلف زوج أمي إلى المنزل؛ لمحني وتوقفت خطاه، ثم نطق بنبرة تقطر استفزازاً:

"أوه.. انظروا من شرّفنا بحضوره! أهلاً بعودتكِ الميمونة بيننا."

كنتُ أملكُ من الكلمات ما يسحقه، لكنني آثرتُ الصمت؛ فهو لا يستحق حتى عناء الرد. تجاهلتُه تماماً، فما كان منه إلا أن وضع حقيبته بجانبي وجلس بتطفل يسأل: "ماذا تشاهدين؟". ابتعدتُ عنه قليلاً، وقلتُ بنبرة جليدية دون أن أحيد بنظري عن الشاشة:

"لا شأن لك!"

ضحك بسماجة وعقب: "منذ خرجتِ وأنتِ لا تملكين سوى هذه الجملة.. ألا يوجد في قاموسكِ غيرها؟"

التفتُّ إليه بابتسامة ساخرة وقلت: "لا دخل لعنتك بي.. هل هذه تناسب ذوقك الرفيع أكثر؟"

تلاشت ابتسامته المصطنعة، نهض بحنق وأخذ حقيبته متجهاً لمكتبه. كم أمقتُ هذا الكائن! لم تمر دقائق حتى نزلت "مايا" الدرج، توقفت حين رأتني وقالت بدهشة: "يارا! منذ متى وأنتِ هنا؟"

لم أجبها، فاقتربت تكرر سؤالها ظناً منها أنني لم أسمع. صرختُ بوجهها بغضب فجر كل ضيقي:

"ألا يمكنني الاستمتاع بوجبتي دون رؤية وجوهكم اللعينة؟ اغربي عن وجهي الآن!"

انفجرت بالبكاء، وقالت بصوت طفولي يرتجف: "لماذا تصرخين دائماً؟ كلما حاولتُ التقرب منكِ صددتِني بقسوة.. لماذا تكرهينني؟ أتعلمين يا يارا؟ أنا أيضاً أكرهكِ حد اللعنة!"

غادرت وهي تشهق، وتركت كلماتها تنبش في أعماقي عن السبب الحقيقي لكرهي لها. في الواقع، لا يوجد سبب منطقي؛ أنا أكره فيها صورة والدها وخيانة أمي لوالدي الراحل. ربما كانت قسوتها معي مجرد انعكاس لقسوتي معها. هي طفلة لا ذنب لها، لكنني فضلتُ أن أبني بيني وبينها جداراً من الكره، ربما لسلامتها.. فمن يحبني ينتهي به المطاف في خطر.

توفي والدي وأنا في الخامسة عشرة في ظروف غامضة كسرت ظهري، لتتزوج أمي فوراً من هذا المدعو "سيزار" وتنجب "مايا" وأنا في السابعة عشرة. نعم، أنا أكبرها بسبعة عشر عاماً؛ هي لا تزال في الثامنة، طفلة خرقاء نسيتُ تماماً رقة حالها. أمي وهبتها كل الحب الذي حرمتني منه، حتى وجدتُ "جيوفاني".. هو الوحيد الذي فهمني، صقل موهبتي، وجعلني جزءاً من عصابته التي أعتبرها أجمل ما حظيتُ به.

أنهيتُ طعامي وخرجتُ إلى الحديقة، أشعلتُ سيجارة وجلستُ أدخنها تحت ضوء القمر. لمحتُ ظل مايا يراقبني من شرفتها العالية، تتوارى وتظهر بحذر، حتى رأيتها فجأة تعتلي السور وكأنها تنوي القفز! تجمدت الدماء في عروقي وصرختُ بها:

"ماذا تفعلين أيتها اللعينة؟ ارجعي للوراء ستسقطين!"

لم تكترث، فرميتُ السيجارة وصحتُ بأعلى صوتي: "توقفي أيتها الحمقاء.. ستقتلين نفسكِ، تراجعي!"

لكنها ألقت بنفسها في الفراغ. لم تكن الشرفة شاهقة بما يكفي، فسقطت وأصيبت ركبتها بجرح نازف. أسرعتُ إليها، أمسكتُ كتفها بقوة وقلتُ باستهزاء أخفي خلفه رُعبي:

"لو كنتِ تنوين الانتحار حقاً، فجربي الشنق أو مكاناً أكثر ارتفاعاً.. شرفتكِ قريبة من الأرض يا غبية."

انهارت بالبكاء بين يدي، وأخذت تضربني بقبضتيها الصغيرتين. أفلتُّها فسقطت على الأرض وهي تصرخ: "اللعنة عليكِ يا يارا.. اللعنة عليكِ!"

لطمتُ فمها بخفة وقلتُ محذرة: "لا تلعني أيتها الخرقاء.. لا تلعنيني وإلا قطعتُ لسانكِ!"

وضعت يدها على فمها مكان الضربة واستمرت في النحيب، ليخرج والدها فزعاً على صوت الضجيج متسائلاً: "ماذا تفعلين بها؟"

ابتسمتُ له ببرود وقلت وأنا أنصرف: "اعتني بابنتك جيداً.. لقد حاولت الانتحار للتو من شرفتها. تشه.. يا لها من غبية."

تركتُهما خلفي وصعدتُ إلى غرفتي، وقفتُ في الشرفة أراقب المشهد من أعلى؛ كان زوج أمي لا يزال يصب جام غضبه عليها ويوبخها بحدة. في تلك اللحظة، شعرتُ بوخزة خوف غريبة اجتاحت قلبي حين رأيتها توشك على السقوط.. هل من الممكن أنني قلقتُ عليها حقاً؟ "لا يهم"، طردتُ الفكرة من رأسي بسرعة، "أنا أكرهها.. مجرد طفلة عاهرة أفسدت حياتي".

استسلمتُ لغفوة ثقيلة، ولم يستردني منها سوى رنين هاتفي المزعج. رفعته بتثاقل، فإذا باسم "ماركو" يضيء الشاشة. ترددتُ قليلاً قبل أن أجيب بصوتٍ مبحوح يغلبه النعاس:

"اممم.. ماذا تريد؟"

تنهد ماركو بنفاد صبر، محاولاً لجم أعصابه الثائرة:

"أين أنتِ بحق الجحيم؟ لماذا لستِ في المقر؟ ولماذا تتجاهلين اتصالاتنا؟"

ابتسمتُ بسخرية وأنا لا أزال مستلقية: "ولماذا يهمك الأمر من الأساس؟"

انفجر غضبه وصرخ عبر الهاتف: "هذه مهمتي! أمن الأعضاء مسؤوليتي، هل نسيتِ القواعد بهذه السرعة؟ كان جيوفاني محقاً حين استبعدكِ، فذهنكِ لم يعد هنا."

زفرتُ الهواء بضيق وأقفلتُ الخط في وجهه متمتمة: "فلتذهب للجحيم أنت وهو!"

نهضتُ بخمول، غيرتُ ثيابي ونزلتُ لآمر الخدم بتحضير الفطور. وفور جلوسي، عاود الهاتف الرنين. أجبته بحدة: "ماذا تريد الآن؟"

"عودي إلى المقر فوراً، وإلا أتيتُ إليكِ وفعلتُ ما لن يعجبكِ أبداً!"

أغلقتُ الخط ثانية، وتخيلتُ لعناته وهي تنهمر عليّ. تناولتُ فطوري ببرود، ثم ركبتُ "سودائي" وانطلقتُ نحو المقر. بمجرد وصولي، شعرتُ بنظرات الجميع تنغرس فيّ كالإبر. أقبل ماركو نحوي مسرعاً، وقبض على كتفي بقوة، فأزحتُ يده بعنف أكبر وقلت:

"لا تضع يدك اللعنة عليّ مجدداً.. تكلم، ماذا تريد؟"

"لا تخرجي ولا تدخلي دون تسجيل! أنتِ تثيرين فوضى عارمة هنا، ونحن لسنا في نزهة!"

كدتُ أنفجر في وجهه، لولا خروج جيوفاني من مكتبه. توقفت الكلمات في حنجرتي وهو يرمقني بنظرة حادة كالسكين، ثم التفت إلى ماركو وقال باقتضاب:

"ماركو.. اجمع الأعضاء الرئيسيين الليلة، لدينا اجتماع طارئ."

عاد إلى مكتبه مخلفاً وراءه صمتاً ثقيلاً. نظر إليّ ماركو بحقد وهمس: "كله بسببكِ!" ثم غادر.

لا أعلم إن كان الخلل بي أم بهم، لكنني أدرك يقيناً أن الخيط الذي يربطني بهم قد تآكل منذ دخلتُ السجن. شعرتُ بالملل يطبق على صدري، فالمكان صار أشبه بزنزانة كبرى. جلستُ على الأريكة، أشعلتُ سيجارة أستنشق سمومها، وانشغلتُ بمراسلة ساندرا تارة، وبقراءة محادثات المجموعة الفائتة تارة أخرى.

فجأة، خرج جيوفاني من مكتبه وجلس بجانبي بصمت مطبق. فتح التلفاز وأخذ يشاهده وكأنني شبح غير مرئي. لم أكترث له، وأكملتُ تدخيني حتى قاطعني بسؤال مفاجئ:

"أهو هيروين أم نيكوتين؟"

أخرجتُ السيجارة من فمي، نظرتُ إليها ببرود وقلت: "نيكوتين."

أعاد بصره إلى الشاشة دون تعليق. تأملتُ ملامحه الجانبية؛ لماذا أصبح غريباً؟ أين ذهب ذاك الاهتمام الذي كان يخصني به؟ نهضتُ فجأة وتمتمتُ بضيق: "اللعنة!"

شعرتُ بنظراته تتبعني بينما كنتُ أتجه نحو الحديقة. رأيتُ "فيليكس" جالساً وحيداً عند المسبح. اقتربتُ منه، وبحركة مستفزة، رميتُ عقب سيجارتي في الماء الصافي.

قال بضيق: "لماذا لوثتِ المسبح؟ لقد أفسدتِ منظره تماماً."

ابتسمتُ بسخرية: "لو كان الأمر يزعجك إلى هذه الدرجة، فانزل والتقطها بنفسك."

تصلبت ملامحه، وقال بنبرة آمرة: "كلا.. بل أنتِ من ستفعلين. تحركي!"

ضحكتُ بهستيريا واقتربتُ منه حتى كدتُ ألمسه: "لم يولد بعد من يملي عليّ أوامره.. هل فهمت؟"

أنهيتُ جملتي بلكمة قوية على كتفه. كان ضخماً، صدراً عريضاً وقامة فارعة، وأدركتُ أنني في مواجهة خاسرة لو تطور الأمر لشجار، لكن كبريائي منعني من التراجع. اقترب مني حتى التصق وجهي بصدره، وقال بنبرة تهديد:

"لستُ طويل البال يا سيليست.. لا تفعليها مجدداً، اتفقنا؟"

دفعته بقوة لأبعده عني: "كلا.. لم نتفق."

هممتُ بالرحيل، لكنه بغمضة عين رفعني بين يديه وكأنني ريشة، وألقى بي في المسبح!

صدمة الماء البارد لجمت أنفاسي. خرجتُ وأنا أقطر ماءً، وشعري يغطي وجهي المبلل. نظرتُ إليه بهدوء مرعب وقلت: "لا أدري كيف لم أطعنكِ حتى الآن، لكن خذ حذركِ.. فقد أفعلها في أي لحظة."

دخلتُ الفيلا وأنا ألعن اليوم الذي عدتُ فيه. رأيتُ جيوفاني عند الباب، والظاهر أنه كان يراقب فصلي الدرامي منذ البداية. امتعظ وجهه حين رآني بحالتي تلك، ودلف إلى مكتبه قبل أن أصعد أنا إلى غرفتي لأبدل ثيابي المثقلة بالماء والهزيمة.

بينما كنتُ غارقة في عتمة غرفتي، كان عقلي ينسج خيوط الانتقام من "فيليكس"؛ ذلك اللعين الذي تجرأ على إهانتي في المسبح. لم أغادر مكاني طوال اليوم، ولم أسمح لأي خادم باختراق عزلتي، حتى غمر الظلام أركان الغرفة. فجأة، بدد صوت طرقات "رايدر" على الباب ذاك الصمت المطبق:

"افتحي يا سيليست!"

تقدمتُ نحو الباب دون أن أفتح وسألتُ بنبرة جافة: "ماذا تريد؟"

"أمر جيوفاني ببدء الاجتماع الطارئ فوراً.. انزلي، مكانكِ ينتظركِ."

تذكرتُ حينها أمر الاجتماع الذي كان قد سقط من حساباتي. فتحتُ الباب ببطء وتبعته إلى القاعة الكبرى، حيث وجدتُ "الرؤوس الكبيرة" قد اتخذوا أماكنهم حول الطاولة المستديرة. جلستُ في مقعدي بهدوءٍ حذر، ليقف جيوفاني معلناً بصرامة:

"إذاً.. فلنبدأ!"

ساد صمتٌ مهيب، قبل أن يستأنف جيوفاني حديثه بنبرة تحمل صدى عامين من التراكمات:

"لقد اجتمعنا اليوم لنزيل الغبار عن بعض الأمور التي تراكمت في غياب سيليست.."

أطلقتُ ضحكة ساخرة مكتومة (تشه) وابتسمتُ جانبياً؛ فقد أدركتُ منذ اللحظة الأولى أن هذا الاجتماع ليس سوى "محاكمة" لشخصي المتمرد. واصل جيوفاني موجهاً نظراته الصقرية نحوي:

"سيليست.. هلا تكرمتِ بإخبارنا عن سر تصرفاتكِ الغريبة منذ عودتكِ؟ لماذا تعاملينا كغرباء، بل كأعداء؟"

نظرتُ حول القاعة ببرود، وأجبتُ بلامبالاة مصطنعة: "أنا بخير.. لا يوجد ما يستدعي كل هذا القلق."

قاطعني بنفاذ صبر وهو يضرب الطاولة: "لا أسأل عن حالكِ، فأنا أعلم أنكِ صلبة بما يكفي. أسألكِ عن هذه الهمجية، والتهور، والبرود المستفز.. ما الذي تحاولين إثباته؟"

سكنتُ قليلاً، ثم قلتُ بنبرة أكثر جدية وصدقاً: "لا أدري.. ربما لأنني كنتُ منفية في كوكب آخر لعامين، والعودة إلى عالمكم ليست بالسهولة التي تتخيلونها."

تدخل "لوكا" بنبرته الهادئة المعتادة: "أرى أن سيليست محقة؛ هي لا تزال تحت تأثير الصدمة والتشويش، وعلينا منحها مساحة من الوقت لتستعيد توازنها."

وأضاف "باولو" الطبيب بلمسة إنسانية: "لا تنسوا أن رحيل كارولين قد ترك جرحاً غائراً لديها، لاسيما وأنها باتت الفتاة الوحيدة في هذا الوكر."

التفت جيوفاني للبقية وسأل: "إذاً ما هو الحل في نظركم؟"

أخذ "فيليكس" الكلمة وقال باقتراح أثار حنقي: "يجب إعادتها للتدريب، وإعادة تأهيلها من الصفر."

قاطعه "براين" القاتل الصامت بحدة: "أنت لا تعرفها يا فيليكس.. سيليست بارعة، لكنها تعاني من صراع داخلي حاد، اتركوها تقرر مصيرها بنفسك."

هز "رايدر" رأسه معارضاً: "هي ليست في حالة تسمح لها باتخاذ قرارات صائبة الآن.. نحن من يجب أن يقرر."

أنهى "ماركو" الجدل باقتراح بدا لي كالسجن الجديد: "أقترح أن تلتزم غرفتها هنا في الفيلا، كفترة نقاهة إجبارية لتنظيم أفكارها، ولن تخرج حتى نتأكد من جاهزيتها."

كنتُ أراقب هذا "المزاد" على حريتي بصمت، حتى وجه جيوفاني كلامه إليّ:

"سيليست.. ما رأيكِ أنتِ؟ لماذا تلوذين بالصمت؟"

رفعتُ نظري إليه، وابتسمتُ بخفة قائلة: "لا بأس.. أنا أثق في قراراتكم، وما ستفعلونه سيكون لصالحي بالتأكيد.. أنا في انتظار حكمكم."

في تلك اللحظة، اتسعت ملامحه عن ابتسامة حانية نادرة.. ابتسامة اخترقت أسواري كسهامٍ لاذعة، وأيقظت في أعماقي ذاك الوحش النائم الذي ظننتُ أنني قتلته في السجن: "مشاعري تجاهه". أطرقتُ رأسي فوراً لأتفادى سحر نظراته التي كانت تمزق قلبي ألما وحباً في آن واحد.

انتهى الاجتماع بقرارٍ يشبه النفي الاختياري: "سيليست ستلزم غرفتها حتى إشعار آخر".

بينما كان الرفاق غارقين في صخب مهمتهم، اخترق رنين هاتفي سكون غرفتي الموحشة. كانت ساندرا، وصوتها يندفع كالشلال:

"أين أنتِ أيتها الغبية؟ بحثتُ عنكِ في كل زاوية ولم أجد لكِ أثراً.. أين اختفيتِ؟"

أجبتُ بضيق مكتوم: "أنا محتجزة في غرفتي بالمقر.. قرار جماعي بألا أخرج حتى أرتب فوضى أفكاري وأتأقلم مع هذا الجو مجدداً."

"أوه! لكنني اشتقتُ لكِ يا بقرتي العزيزة، لديّ جبال من الحكايات التي أريد صبّها في أذنيكِ."

فكرتُ للحظة، ثم لمعت في رأسي فكرة: "تعالي أنتِ إليّ!"

تراجعت بنبرة قلقة: "اممم.. لا أظنها فكرة سديدة."

"إذاً، احكي لي ما تريدين عبر الهاتف."

"مستحيل! يجب أن نتقابل وجهاً لوجه."

صرختُ بها بنفاد صبر: "بأي لغة تفهمين؟ قلتُ لكِ لا يمكنني الخروج!"

تنهدت باستسلام: "حسناً سآتي.. لكنني.."

"لكنكِ ماذا؟"

"أنا أرتعب من عصابتكِ تلك! ألن يحولوني إلى وجبة عشاء؟"

ضحكتُ باستهزاء: "اطمئني، ضحايانا ليسوا بشراً عاديين، نحن لا نؤذي العامة.. لستِ ذات أهمية لنهدر عليكِ رصاصة."

"حقاً؟ طمأنتِني يا صديقتي! أنا قادمة، استعدي لاستقبالي."

بعد نصف ساعة، طرقت ساندرا باب غرفتي. فتحتُ لها، وبمجرد أن خطت قدماها الداخل، تسمرت مكانها وعلامات الصدمة ترتسم على وجهها.

سألتُها بسخرية: "ادخلي.. لماذا تبدين وكأنكِ رأيتِ شبحاً؟"

انفجرت ضاحكة: "لا أصدق عينيّ! غرفة يارا مرتبة؟ هذه لحظة تاريخية يجب تخليدها!"

أخرجت هاتفها بسرعة وبدأت بتصوير فيديو وهي تجوب الغرفة بعدستها قائلة بنبرة إعلامية ساخرة: "أعزائي المشاهدين، لأول مرة في تاريخ البشرية نرى غرفة يارا منسقة! أظن أن السجن منحها بعض الأنوثة أخيراً.. فبعد أن كانت تعيش في حضيرة، ها هي الآن في غرفة برائحة منعشة!" ثم وجهت الكاميرا نحوي: "آنسة يارا، هلا فسرتِ لنا هذا التحول الجذري؟"

أخرجتُ لها لساني بضيق: "أبعدي هذه اللعنة عن وجهي! آلمتِ عيني بهذا الضوء السخيف. ولتعلمي أنني لن أرتب غرفة في حياتي، الخدم هم من فعلوا ذلك."

أدارت الكاميرا لنفسها متمتمة: "لن تكون يارا إذا لم تلعن ثلاث مرات في جملة واحدة!"

وضعت هاتفها في جيبها وجلست على الأريكة تمسح الغرفة بنظراتها: "ربما خجلتِ من الشباب فسمحتِ للخدم بالترتيب، ففي منزلكِ تمنعين الجميع من تجاوز عتبة بابكِ."

رمقتُها بنظرة حادة: "ساندرا.. اصمتي! أنا أخجل من أولئك الأوغاد؟ هذه نكتة الموسم! الحقيقة أن 'باولو' مهووس بالصحة والنظام، ويصر على أن نعيش في بيئة معقمة."

سكتت ساندرا فجأة، وبدأت تشبك أصابعها بخجل مريب، فقلتُ: "ماذا الآن؟ تكلمي!"

همست بوجه احمرّت وجنتاه: "أنا.. أنا أحب أحدهم!"

أطلقتُ "تشه" ساخرة: "ومن هو تعيس الحظ الذي أوقع نفسه في حبالكِ؟"

ضربت ركبتي بخفة: "لا تقولي ذلك! يدعى كريس براون، وهو متدرب شاب يعمل معي في المكتب ليصبح محامياً.. في السابعة والعشرين من عمره."

رفعتُ حاجبي: "وكيف حدث هذا؟"

قالت بعينين تلمعان: "جاء للمكتب قبل شهر، وأعجبتُ به من النظرة الأولى. تقربتُ منه ووقعتُ في فخه.. انصحيني، ماذا أفعل؟"

التفتُّ للجهة الأخرى ببرود: "وهل أبدو لكِ كمرشدة اجتماعية؟ تصرفي بمفردكِ."

زمّت شفتيها بطفولية: "بدا لي أن الأمر لم يعجبكِ."

أضفتُ محاولةً تلطيف نبري: "أعني.. لا أريد التدخل في حياتكِ الشخصية، هذا قدركِ وأنتِ من يقرر."

ابتسمت وعانقتني كعادتها فأبعدتها بضيق: "هل هذا هو الموضوع المصيري الذي جئتِ من أجله؟"

أومأت برأسها والخجل لا يزال يكسوها، فضحكتُ: "توقفي عن هذا الخجل، تبدين كالماعز المذعور!"

ضحكت قائلة: "أظن أن أمي كانت تتأمل صوركِ كثيراً قبل ولادتي!"

فجأة، رن هاتفها. ما إن رأت الاسم حتى قفزت كالمجنونة ترقص رقصة "الهنود الحمر" بوجه يكاد ينفجر حماساً. هدأت بصعوبة وأجابت بنبرة رقيقة مصطنعة: "أهلاً كريس.. نعم.. لا بأس.. اتفقنا.. إلى اللقاء."

أغلقت الهاتف وارتمت فوق السرير تقفز بجنون وهي تصرخ: "لقد دعاني لموعد! لقد دعاني لموعد!"

لطمتُ فمها بيدي: "أغلقي فمكِ وأخبريني بالخبر اليقين!"

"لقد.. دعاني.. كريس.. لموعد.. ياااااهووو!"

"حسناً، ولماذا كل هذا الهياج وكأنه طلب يدكِ للزواج؟"

"لأنها الخطوة الأولى نحو الخاتم يا حمقاء!" غيرت نبرتها بتمثيل درامي: "عمري 25 عاماً ولم أتزوج بعد! سأبقى عانساً إذا لم أستغل هذه الفرصة!"

ضحكتُ عليها بصدق هذه المرة: "كم أنتِ مثيرة للشفقة يا ساندرا.."

كادت ساندرا أن تسترسل في أحلامها الوردية لولا دخول "رايدر" المفاجئ الذي اخترق خصوصية الغرفة دون استئذان. تبادلنا نظرات حادة، قبل أن يستقر بصره على ساندرا التي انكمشت على نفسها وأطرقت رأسها بمزيج من الخوف والخجل. صرختُ به بغيظ:

"ألم تتعلم أصول طرق الأبواب بعد؟ ما الذي تريده لعنتك الآن؟"

ابتسم ببرود وقال مستفزاً: "لا شيء.. أردتُ الاطمئنان عليكِ فحسب!"

هدأت نبرتي قليلاً وقلت بجفاء: "ها قد رأيتني، أنا بخير.. اذهب إلى الجحيم الآن."

أشار بإصبعه نحو ساندرا وسأل بخبث: "هل يعلم جيوفاني بأمر وجودها هنا؟"

"لا دخل لعنتك بها، اخرج!"

ابتسم بسخرية وهو يتجه نحو الأريكة ليجلس: "لكن القوانين تقول إنه يجب أن يعلم.. سأخبره فوراً."

تجاهلتُ تهديده وسألتُه: "متى انتهيتم من المهمة؟"

همَّ بالحديث وهو يتربع في مجلسه، فصحتُ به: "اخرج أيها الوغد! من سمح لك بالجلوس؟"

هز كتفيه بلا مبالاة: "أردتُ إخبارك بالتفاصيل.. ألم تسألي للتو؟"

"أجبني وأنت واقف، ثم انصرف!"

نهض بتململ وقال بنبرة غامضة: "إذاً لن أخبركِ بشيء. وكفي عن لعني، فأنا ملعون خلقةً دون مساعدتكِ. وداعاً أيتها الفتيات، لكن تذكري.. جيوفاني يجب أن يعلم بأمر هذه الضيفة."

خرج وأوصد الباب، فتمتمتُ خلفه: "فلتذهب للجحيم أنت وهو."

التفتُّ إلى ساندرا لأعتذر عن فظاظة زميلي، ففوجئت بها تهمس بذهول: "يا للهول.. كم هو وسيم! أظنني تسرعتُ بشأن كريس، ما اسم هذا الفاتن المثير الذي كان هنا؟"

استشطتُ غضباً من خفتها وقلت: "اسمه 'ملعون بن لعنة'، هل هذا يرضيكِ؟ اصمتي واذهبي إلى منزلكِ فوراً، بقاؤكِ هنا انتحار محقق."

لم تكد تفتح فمها للرد حتى انفتح الباب مجدداً، لكن هذه المرة كان "جيوفاني" بنفسه. دخل وجلس على الأريكة بهيبة طاغية وقال بنبرة هادئة لكنها تحمل وعيداً مبطناً:

"أهلاً.. لم أكن أعلم أن لدينا ضيوفاً، وإلا لكنتُ أمرتُ بتجهيز ضيافة تليق بسيليست."

كانت رسالته واضحة؛ المقر ليس مكاناً للمدنيين. قلتُ بسرعة وأنا أسحب ساندرا من كتفها: "لم تتأخر، هي مغادرة الآن."

بينما كنتُ أدفعها نحو الباب، همست في أذني بشيطنة: "هذا الزعيم.. إنه أكثر إثارة من الأول!"

قرصتُ كتفها بقوة: "عليكِ اللعنة، ارحلي!"

وقفتُ عند عتبة الغرفة أراقبها حتى ركبت سيارتها وغادرت المقر، وحين التفتُّ، وجدتُ جيوفاني لا يزال جالساً يراقبني بصمت. تقدمتُ نحوه وجلستُ على طرف السرير، فسأل بنبرة بدت حقيقية هذه المرة:

"كيف تشعرين الآن؟ هل تحسنتِ قليلاً؟"

كادت حدتي أن تخونني، لكنني تمالكتُ أعصابي وأومأتُ برأسي إيجاباً. أضاف بلهجة آمرة مغلفة بالاهتمام:

"هذا جيد.. لا أريد رؤيتكِ خارج هذه الغرفة حتى تتماثلي للشفاء تماماً، حسناً؟"

نهض ليغادر، فوقفتُ خلفه تلقائياً، لكنه استدار فجأة واقترب مني حتى لم يعد يفصل بيننا سوى أنفاسنا. خفضتُ رأسي هرباً من عينيه، فقال بصوت خفيض:

"أنا في مكتبي.. إن احتجتِ لأي شيء، مهما كان، فقط أخبريني."

أومأتُ برأسي بصمت، بينما كان قلبي يقرع في صدري كطبلٍ مجنون. "اللعنة عليه"، قلتُ في سري، إنه يتقن تحطيم دفاعاتي ويجعلني أبدو كطفلة ضعيفة تائهة في حبه. خرج وأغلق الباب بهدوء، فارتميتُ على السرير أحاول تهدئة دقات قلبي الثائرة، لكن كل شيء في هذا المقر الملعون، من رائحة عطره العالقة في الجو إلى صدى صوته، كان يصرخ باسمه.

مرَّ شهرٌ كامل وأنا سجينة تلك الجدران الأربعة؛ شهرٌ من الرتابة القاتلة التي لم يكسر حدتها سوى صوت ساندرا عبر الهاتف. لقد نفد صبري تماماً، وقررتُ أن أضع حداً لهذا "النفي الاختياري". نفضتُ عني غبار الخمول، وتظاهرتُ بالتعافي التام—وربما كنتُ محقة، فداخلي كان يغلي بالرغبة في العودة.

توجهتُ بخطى واثقة نحو مكتب جيوفاني. كان غارقاً في أكوام من الخرائط والوثائق، وحين دخلتُ، رفع رأسه لترتسم على وجهه ملامح دهشة لم تدم طويلاً. نهض من مكانه قائلاً:

"أوه.. أهلاً بعودتكِ. هل أنتِ على ما يرام الآن؟"

ابتسمتُ بصدق لأول مرة وأومأتُ برأسي، فبرقت عيناه بلمحة من الرضا:

"ممتاز.. بل أكثر من رائع. إذاً، ما رأيكِ في أن تضعي بصمتكِ على هذه العملية؟"

في تلك اللحظة، شعرتُ بنيران الحماس تشتعل في عروقي، وكأن الحياة عادت لتدب في أوصالي من جديد. قلتُ بصوتٍ قوي يملؤه الإصرار:

"أجل.. لقد هرمنا من أجل هذه اللحظة!"

راقت له نبرة التحدي في صوتي، فربتَ على كتفي بخفة—لمسة كانت كافية لتجدد ولائي—ثم خرج وتبعته نحو القبو الموصد. وهناك، كنا الثمانية مجتمعين حول الطاولة الكبرى؛ العقول والقبضات التي تحرك عالم الجريمة من الظل. وضع جيوفاني القواعد الأساسية للخطة، وانطلق كلٌّ منا إلى موقعه وكأننا تروس في آلة واحدة:

جيوفاني روسو: يقود الاجتماع كقائد أوركسترا، يحدد الأهداف بدقة ويوزع الأدوار بصرامة.

ماركو بولو: ينسج خيوط الأمان، مبتكراً خططاً بديلة لتجاوز أي عرقلة قد تواجهنا.

باولو فيتال: يجهز حقائبه الطبية وخطط الطوارئ؛ فهو صمام أماننا في حال انحرفت الرصاصات عن مسارها.

لوكا موريتي: يحلل الثغرات الاستراتيجية، محولاً الخطة من مجرد فكرة إلى عملية جراحية دقيقة.

رايدر فالكون وبريان سينزو: أشباح العملية؛ يتحركان في العتمة لتأمين الممرات وضمان طريق الهروب قبل أن يشعر بنا أحد.

براين سينزو: "القاتل المحترف" الذي لا تراه العين. كان يقف في الزاوية المظلمة، يراجع أسلحته ببرود مخيف؛ فهو المسؤول عن التصفية الجسدية وحمايتنا من أي اشتباك مباشر.

فيليكس كيران: العقل الرقمي الذي يشلُّ أجهزة المراقبة ويزرع التشويش، ليجعلنا غير مرئيين تحت رادار القانون.

وفي قلب هذا كله، أقف أنا.. "سيليست كاروسو". دوري الحاسم يتجلى في التقاط المعلومات الحيوية وتوجيه الفريق في اللحظة الصفر، لنضرب ضربتنا ونختفي في صمت دون ترك أثرٍ واحد خلفنا.

اجتمع القوة والذكاء والتخطيط في قبو واحد، لنعلن عن ولادة "تحفة إجرامية" ستزلزل أركان المدينة وتكتب فصلاً جديداً في تاريخ عصابتنا.

انسابت سياراتنا السوداء في شوارع المدينة كالأشباح، حتى توقفنا أمام الهدف المنشود. لم نخرج بأسطولنا الكامل تفاديًا للشبهات؛ فتقاسمنا سيارتين فقط. كنتُ في الأولى رفقة جيوفاني، رايدر، ولوكا بينما ضمّت الثانية بقية الرفاق. ساد صمتٌ ثقيل لا يقطعه إلا أزيز أجهزة اللاسلكي، والجميع ينتظر إشارة "المايسترو".

أطلق جيوفاني الإشارة، فاندفعتُ نحو الباب الرئيسي كالسهم. ثبتُّ القنبلة الكاتمة للصوت، وخلال ثوانٍ تلاشى الحاجز أمامنا. لمحتُ طيف "براين" وهو يقتحم المكان قبلي بلمح البصر، وما إن وطئت قدماي الداخل حتى وجدتُ الحراس الأربعة جثثًا هامدة وسط بركة من الدماء.. "يا لك من سفاح عبقري يا براين!".

جاء دور "فيليكس" الذي تسلل لغرفة المراقبة ليبث سمومه الرقمية ويعطل الكاميرات ويمسح سجلاتنا، ليعطي الإشارة الثلاثية لي ولرايدر وبراين. تقدمنا في الرواق المظلم حتى وصلنا إلى مفترق ثلاث غرف، حينها اخترق صوت "لوكا" سماعاتنا:

"براين يميناً.. سيليست في الوسط.. رايدر يساراً."

دخلتُ غرفتي الموكلة إليّ؛ كانت العتمة تسكن المكان، ولا أعلم إن كان هناك من يتربص بي. فعلتُ نظارات الأشعة تحت البنفسجية، فاشتعلت الغرفة ببريق المجوهرات الثمينة التي خطفت بصري. بدأتُ بملء حقيبتي بحذر وهدوء، وبينما كنتُ أوشك على وضع القطعة الأخيرة، شعرتُ بذراعٍ فولاذية تلتف حول عنقي من الخلف لتخنق أنفاسي.

وضعتُ الحقيبة جانباً وحاولتُ التملص بكل قوتي، لكن قبضته كانت كالقيد. حاول عرقلة ساقي ومنعي من الحركة، وشعرتُ أن وعيي بدأ يتلاشى مع نقص الأكسجين. بجهدٍ أخير، سددتُ له ضربات متتالية بمرفقي في منطقة البطن حتى أجبرتُه على إفلاتي.

تراجعنا للخلف لنواجه بعضنا؛ كان حارساً ضخماً يراقبني بحقد، وكأنه يحاول نقش ملامحي في ذاكرته قبل قتلي. اندفع نحوي بلكمة عنيفة، تفاديتُها ببراعة وهبطتُ لأسدد له ضربة في معدته، لكن جسده كان كالجدار لم يتأثر. وبسرعة لم أتوقعها، هوى بقبضته على وجهي؛ شعرتُ بطعم الدماء المالح يملأ فمي.

مسحتُ الدماء واستللتُ سكيني بلمحة بصر، لكنه كان أسرع؛ إذ أخرج مسدسه وصوبه نحو صدري مباشرة. تسمرتُ في مكاني، نتبادل نظرات الموت، قبل أن يكسر سكون المكان دويّ رصاصة اخترقت صمت البنك.

في الغرف المجاورة، تجمد براين ورايدر في مكانهما:

براين: "هل سيليست مسلحة؟"

رايدر بفزع: "لا أظن ذلك!"

تركا كل شيء وهرعا نحو غرفتي، ليجدا مشهداً تقشعر له الأبدان؛ الحارس جثة هامدة ممزقة بالطعنات، وأنا ملقاة على الأرض، يدي تضغط على جرح الرصاصة التي اخترقت جسدي، بينما يدي الأخرى لا تزال تقبض على السكين وتطعن جثته بآلية وجنون.. وما إن وقعت عيناي عليهما، حتى شعرتُ بالعالم ينسحب من تحت قدمي، وغرقتُ في ظلامٍ دامس.

فتحتُ عينيّ بصعوبة، ليأتيني أول خيطٍ للوعي على صدى ضحكة "رايدر" المستفزة بجانبي. ما إن رآني أستعيد إدراكي حتى هبّ واقفاً بتهليلٍ ساخر:

"ها قد أفاقت الأميرة النائمة أخيراً!"

تحلقوا السبعة حولي، وجوههم تطل عليّ كأنني أعجوبة، حتى علّق "باولو" بضحكة خافتة:

"ألسنا الآن أمام مشهد 'بيضاء الثلج' وأقزامها السبعة؟"

تعالت ضحكاتهم في الغرفة، أما أنا فواجهتهم بنظرة تقطر لؤماً وقلت بصوتٍ متهدج:

"إياكم ونعتي بالأميرة مجدداً.. وإلا ألحقتكم بالحارس الذي صرعته!"

ابتسم جيوفاني بهدوءٍ استفز مشاعري، وقال:

"اهتمي بذراعكِ المفقودة أولاً يا أميرة، ثم تفرغي لمخططات القتل الخاصة بكِ."

تحسستُ يدي بيدي الأخرى بذعرٍ صامت، كان الألم نابضاً لكنه محتمل. سألتُ بجفاء: "وما خطب يدي؟ إنها بخير، مجرد جرحٍ بسيط."

تظاهر باولو بالحزن وأطرق رأسه: "صحيح، لقد استخرجتُ الرصاصة.. لكن الخطر لم يزُل؛ إذا استمر هذا النبض سأضطر لبترها!"

شحب وجهي وجمدت الدماء في عروقي أمام نظراتهم الجادة التي توحي بالموت. استويتُ في جلستي بظهري المشتعل وجعاً وقلت برعب: "هل أنت جاد؟ ستقطع يدي؟"

لم يصمدوا طويلاً حتى انفجروا بالضحك مجدداً. أدركتُ حينها أنها مجرد دعابة ثقيلة من دعابات المافيا. صرختُ فيهم بغضب: "اللعنة عليكم فرداً فرداً! كدتم تقتلونني رعباً!"

أشار باولو للجميع بالخروج ليتيح لي فرصة للراحة. بقي وحده يلملم أدواته الجراحية، بينما كنتُ أراقبه بصمتٍ حذر. توقف فجأة وناظرني بذهول:

"كم أنتِ شرسة يا فتاة.. لقد مزقتِ جسده بخمس عشرة طعنة!"

ضحكتُ بخفة: "وكيف عرفت وأنت لم تغادر السيارة؟"

"أنسيتِ أن ملابسكِ مزودة بكاميرات دقيقة؟ كنا نراقب العرض المباشر.. أنا، وجيوفاني، ولوكا وماركو. جيوفاني فقد صوابه حين فقد الاتصال بكِ، كان خائفاً عليكِ حقاً."

سرحتُ في كلماته.. هل خاف عليّ حقاً؟ هل أنا "خاصة" بالنسبة له؟ لكن سرعان ما صفعني الواقع؛ جيوفاني يعاملنا جميعاً كقطع شطرنج غالية، يقسو حيناً ويلين حيناً، وأنا بالنسبة له مجرد بيدق بارع في جمع المعلومات.

نهضتُ من السرير بمشقة، فاستخدام يد واحدة يجعل أبسط المهام جحيماً. خرجتُ إلى الصالة وجلستُ أمام التلفاز، ليفاجئني "فيليكس" بالجلوس بجانبي بابتسامة مستفزة:

"كيف حال يدكِ؟"

تجاهلتُه تماماً بنظرة احتقار، فأضاف: "لا تزالين سليطة اللسان.. سأقترح على جيوفاني تمديد فترة إقامتكِ الجبرية هنا."

رددتُ بهدوءٍ مميت: "افعلها إن كنت تظن نفسك رجلاً!"

وبينما نظرات التحدي تشتعل بيننا، ارتمى "رايدر" على الأريكة بجانبي بتهور، فاصطدم بيدي المصابة بقوة. صرختُ صرخةً مزقت سكون المكان، ولعنتُ أسلافه جميعاً. اعتذر ببرود: "آسف، لم ألحظ وجودكِ!"

احمرّ وجهي من شدة الألم الذي سرى في عظامي كالنار، وانفجرتُ به: "اللعنة عليك وعلى اعتذارك! لقد آلمتني أيها الوغد اللعين!"

لم أستطع منع دمعة وحيدة من الفرار من عيني لشدة الوجع. مسحتُها بسرعة وحاولتُ النهوض، لكن رايدر صاح بصدمة:

"أنتِ تبكين؟ سيليست تبكي؟ هل اكتشفنا أخيراً أن خلف هذا القناع البارد مشاعر بشرية؟"

تقدمتُ نحوه لألقنه درساً، لكن فيليكس قبض على قميصي من الخلف مانعاً إياي:

"ستتألمين أكثر لو حاولتِ ضربه.. تجاهلي حماقته فقط."

نفضتُ يده عني بحدة، وأومأتُ له كأنني أشكره رغم غضبي، ثم غادرتُ القاعة متجهة نحو الحديقة، أبحث عن هواءٍ لا يحمل رائحة استفزازهم ولا رائحة عطر جيوفاني الذي يربك نبضي.

جلستُ عند حافة المسبح، أحاول لملمة شتات أعصابي التي بعثرها "رايدر" قبل قليل. وكالعادة، لم يطل صمتي، فقد اقتحم عزلتي "لوكا". جلس بجانبي بهدوءٍ مطبق دون أن ينبس ببنت شفة، وللحقيقة.. هذا الهدوء هو ما يجعل لوكا الأقرب إلى قلبي؛ فهو رجلٌ

قليل الكلام، بارد المشاعر، وربما يكون النوع المفضل لديّ من الرجال. ألقيتُ عليه نظرة جانبية؛ كان غارقاً كعادته في تدخين سيجارته التي لا تفارقه.. رجلٌ يعشق النيكوتين أكثر من أي شيء آخر، والوحيد الذي لا يزعجني وجوده لأنه يدرك قيمة الصمت.

بينما كنا غارقين في ذاك السكون، انتفض هاتفي في جيبي. "مايا"؟ يا للعجب! إنها المرة الأولى في حياتها التي تتصل بي، ومن أين حصلت على رقمي أصلاً؟ فتحت الخط، فجاءني صوتها مخنوقاً بالبكاء:

"يارا.. أرجوكِ تعالي فوراً! أبي ملقىً على الأرض مغمى عليه ولا أعرف ماذا أفعل.. أنا خائفة جداً!"

أغلقتُ الهاتف في وجهها ببرود، وتركتُ الكلمات تخرج مني دون وعي: "وما دخلي أنا بوالدكِ اللعين؟"

التفت إليّ لوكا بهدوئه المعتاد وسأل: "ما الخطب؟"

ناظرته ملياً قبل أن أجيب: "مجرد مشكلة عائلية تافهة."

لكن نظراته أصبحت أكثر حدة، وصوته ازداد عمقاً وهو يردف: "لقد سمعتُ بكاءها بوضوح.. من تكون؟"

استسلمتُ لإلحاحه الصامت، رغم كرهي للحديث عن حياتي الخاصة:

"إنها أختي.. والدها فقد وعيه وهي ترتجف ذعراً لا تدري كيف تتصرف."

"والدها؟ أليس والدكِ أنتِ أيضاً؟"

"كلا.. هي أختي من الأم فقط، لذا لا يعنيني أمره في شيء."

"وكم تبلغ من العمر؟"

"ثماني سنوات."

"أوه.. صغيرة جداً! لو كنتُ مكانكِ لذهبتُ فوراً، من المؤكد أنها ستموت رعباً وحيدة الآن."

أصابت كلماته وتراً في داخلي، فأومأتُ بنفاد صبر واستقمتُ واقفة. سألني وهو ينهض: "ستذهبين؟"

"أجل."

"سآتي معكِ."

ابتسمتُ له بخفة، وخرجنا نحو السيارات. اقترب مني وقال: "اركبي معي، لا داعي لإخراج سيارتكِ الآن."

طول الطريق كنتُ أرشده لمنزلي، وحين وصلنا، بدت الدهشة واضحة على وجهه: "تعيشين في قصر؟"

تجاهلتُ سؤاله ودخلتُ وهو يتبعني. كان الباب مشرعاً والخدم يتحلقون حول "سيزار" اللعين الملقى أرضاً دون حراك. ما إن رأوني حتى انحنوا وابتعدوا، لتظهر "مايا" المنهارة وهي تحتضن جسده البارد وتبكي. صرختُ بالخدم بأعلى صوتي:

"لماذا لم يتحرك أحدكم؟ هل أنتم معاقون؟ اللعنة عليكم، الرجل سيموت!"

نزلتُ لمستواه وحاولتُ رفعه، لكن جسده كان ثقيلاً للغاية. تدخل لوكا ورفعه بسهولة نحو سيارته، بينما لحقت بنا مايا وهي تصرخ ببكاءٍ هيستيري. في الطريق، صرختُ بها: "أغلقي فمكِ الملعون، صوتكِ يمزق طبلة أذني!"

لكنها زادت في بكائها؛ أعلم أنها عنيدة مثلي تماماً. التفتُّ إليها وسألت بحدة: "كيف حدث هذا؟"

مسحت دموعها وهي تشهق بطفولية: "كنتُ في الحديقة حين سمعتُ صوت تحطم أوانٍ في المطبخ.. دخلتُ فوجدته يحطم كل شيء أمامه بغضب عارم، ثم فجأة توقف ليلتقط أنفاسه وسقط أرضاً.. ظننتُه مات، لذا اتصلتُ بكِ."

"اللعنة! لماذا لم يسعفه الخدم؟"

"لقد منعتِهم من الخروج من المنزل منعا باتاً، هل نسيتِ؟"

"حتى في الحالات الطارئة؟ يا لهم من حمقى!"

وصلنا المستشفى، وسرعان ما اختفى سيزار بين أيدي الأطباء. جلستُ مع لوكا ومايا في قاعة الانتظار. نظرت إليّ مايا مطولاً ثم همست بخبث وهي تشير للوكا:

"من هذا الشاب الوسيم؟ أهو حبيبكِ؟"

لطمتُ فمها بخفة: "اصمتي، لا شأن لكِ بي!"

انفجرت باكية: "لا تضربيني مجدداً.. أنتِ تؤلمينني أيتها الـ..."

ضربتُها مرة أخرى قبل أن تنطق بلفظٍ مسيء، ثم نظرتُ للوكا بخجلٍ لم أعتد عليه، فقال بهدوء: "لا بأس.. اتركيها."

ثم قام وابتعد قليلاً ليشعل سيجارته. قبضتُ على كتف مايا بعنف وهمستُ بتهديد:

"اسمعي أيتها العاهرة الصغيرة، لا تقللي من احترامي أمام الغرباء، وإلا جعلتكِ تنامين بجوار والدكِ لشهر كامل!"

بعد لحظات ثقيلة، خرج الطبيب والأسى يكسو وجهه. اقتربتُ منه ببرود، وسألت: "ما وضعه؟"

أطرق الطبيب رأسه: "لقد أصيب بجلطة دماغية حادة، ولم يتحمل قلبه الصدمة.. للأسف، لقد خسرناه."

تسمرتُ مكاني. لم يكن خوفاً على سيزار، بل رعباً من المسؤولية؛ "مايا" أصبحت وحيدة الآن، ومن سيتولى أمر هذه المغفلة غيري؟ تقدمت الصغيرة نحوي تشد قميصي بصدمة: "هل هذا يعني أن بابا مات؟"

أطلقتُ "تشه" ساخرة وأزحتُ يدها: "كلا، إنه في فندق خمس نجوم بجهنم الآن!"

ضربني لوكا على كتفي بحدة، ثم جثا على ركبتيه أمام مايا وقال بحنان: "أجل، لقد فقدناه.. لكنه سيبقى في قلوبنا وسنلتقي به لاحقاً."

نزلتُ لمستواه وقلت بفظاظة: "لا تخترع قصصاً لتواسيها، قُل الحقيقة؛ سيزار مات وانتهى الأمر!"

الغريب أن مايا لم تبكِ، بل ظلت تحدق بنا بذهول وكأنها لم تستوعب حجم الكارثة. أما أنا، فلم أشعر بذرة أسى؛ بل شعرتُ براحة داخلية لأنني تخلصتُ من سيزار.. لكن لعنة ابنته لا تزال تلاحقني.

عدنا إلى المقر بعد أن ألقينا جثة "سيزار" خلفنا؛ سلمناها لخدمه كأننا نسلم طرداً تالفاً. كنتُ أنوي ترك "مايا" هناك لتواجه مصيرها، لكن "لوكا" أصر بنبرة لم تعجبني على اصطحابها معنا؛ زاعماً أن حالتها الذهنية تبدو مريبة ومخيفة ولا تحتمل البقاء وحيدة.

ما إن دخلنا، حتى وجدنا "اللجنة" في انتظارنا بقاعة الجلوس. كان "ماركو" على وشك الانفجار، فتقدم نحونا كالثور الهائج:

"متى خرجتما؟ ولماذا لم تسجلا خروجكما كالبقية؟ ومن تكون هذه الصغيرة التي تلتصق بكما؟"

التزمتُ صمتاً مستفزاً، فتبرع لوكا بالإجابة: "لقد مات والدها المسكينة، ولم أحتمل تركها مشردة في ذاك القصر الكبير.. لذا أحضرتُها."

انفجر جيوفاني غضباً: "وهل تراني أفتتح داراً للأيتام أو ملجأً للمشردين؟ نحن منظمة يا لوكا، لستُ مربية أطفال!"

أردف لوكا بهدوء: "إنها أخت سيليست الصغرى!"

سقطت الكلمات كالصاعقة عليهم. شحب وجه جيوفاني وهو يتمتم بذهول: "ماذا؟ سيليست.. هل لكِ أخت؟ ولماذا لا أعلم بالأمر؟"

ابتسمتُ له بتحدٍ وقح: "ببساطة.. لأن أحداً منا لا يشارك تفاصيل حياته القذرة هنا. أنا حتى لا أعرف أسماءكم الحقيقية، فلماذا تستكثرون عليّ خصوصيتي؟"

هدأت ملامحه فجأة، وكأنني صفعته بالحقيقة التي يحاول تجاهلها. ساد صمتٌ ثقيل، قطعه "رايدر" بصرخة استنتاج غبية:

"إذاً والدكِ هو من مات! يا للهول!"

ضحكتُ بسخرية مريرة: "بعيد الشر عن ذكره.. هي أختي من الأم فقط."

تدخل فيليكس ببروده المعتاد: "لكن بالقانون، سيزار هو والدكِ أيضاً!"

قلبتُ عينيّ بملل: "اخرس يا هذا، لستَ في قاعة محكمة الآن."

أمسكتُ بيد مايا التي كانت ترتجف ذعراً؛ فلا لوم عليها، فهي لم ترَ في حياتها مسوخاً غريبي الأطوار كهؤلاء. صعدتُ بها إلى غرفتي، لكن ماركو استوقفني: "إلى أين؟"

"سأغير ثيابي وآخذها من هنا، لا تقلق على نقاء مقركم!"

دخلنا الغرفة، وأجلستُها على السرير. بدت مطيعة بشكلٍ غريب، ربما الصدمة شلّت لسانها. بدلتُ ثيابي بسرعة، أخذتُ مفاتيحي وهاتفي ونزلتُ بها تحت أنظارهم المراقبة. قبل أن أتجاوز الباب، قال جيوفاني بنبرة أخف حدة:

"سيليست.. لو ضاقت بكِ السبل ولم تجدي مكاناً لها، سأسمح بمكوثها هنا لفترة."

ابتسمتُ جانبياً بمرارة: "المقر ليس ملاهي للأطفال يا جيوفاني، وأختي لا تحتاج لشفقة أحدكم.. نحن بخير."

خرجتُ وصفعتُ الباب خلفي بقوة. يشعرونني وكأنها طفيلي زائد، بينما كان الأجدر بهم احترامها لأنها، ببساطة، قطعة مني.

ركبنا سيارتي وانطلقتُ بها في شوارع المدينة التي بدت لي ضيقة ومظلمة. أين سآخذها؟ لا يمكنها البقاء في القصر وحدها. كنتُ أجوب الطرقات وأنا أفكر في حلٍ جذري للتخلص من هذه المسؤولية. نظرتُ إليها، كانت تتأمل أركان السيارة بذهول، فسألتُها: "هل أعجبتكِ السيارة؟"

أومأت برأسها بصمت.

"أتحتاجين شيئاً؟"

نفت برأسها مجدداً.

"هل بلعتِ لسانكِ؟ أسمعيني صوتكِ!"

ويا ليتني لم أنطق! فجأة، ومن دون سابق إنذار، انفجرت مايا بالبكاء؛ صراخٌ هستيري مزق هدوء الشارع وجعل المارة يلتفتون نحونا. تباً لهذه اللعينة الصغيرة! أغلقتُ النوافذ بسرعة وابتعدتُ عن الزحام نحو منطقة معزولة، وأنا أحاول تهدئتها بشتى الطرق، لكن دموعها كانت كالشلال الذي لا ينقطع.. وشعرتُ حينها، لأول مرة، أنني أضعف مما كنتُ أظن.

توقفتُ في أحد الأزقة الجانبية، والتفتُّ نحوها بقلة صبر: "اصمتي.. وسأحقق لكِ كل ما تطلبينه، ما رأيكِ؟"

لكن لا حياة لمن تنادي؛ لم تهدأ صرخاتها ولو قليلاً. وبينما كنتُ أناظرها بيأس، أفزعني طرقٌ عنيف على زجاج السيارة. استدرتُ لأجد شرطياً يشير لي بصرامة لأنزل النافذة، ففعلتُ ليجتاحني بسؤاله:

"من هذه الطفلة؟ ولماذا تبكي بهذا الشكل الهستيري؟"

قبل أن أفتح فمي، أردف بشك: "هل اختطفتِها أم ماذا؟"

ابتسمتُ بسخرية مريرة: "ولماذا قد أخطف لعنةً مثلها؟ إنها أختي!"

لم يقتنع بكلامي، بل فتح باب السيارة وآمرني بالنزول. ما إن وطئت قدماي الأرض حتى هجم عليّ اثنان منهم، كبلوا يديّ بالأصفاد خلف ظهري وألصقوا رأسي بهيكل السيارة بخشونة. بينما انهمك الثالث في استجواب مايا التي شلّها الرعب فلم تنطق بحرف، بل زادت في بكائها. صرختُ بها بغضب: "افتحي فمكِ الملعون وأخبريهم أنني أختكِ! تكلمي أيتها العاهرة الصغيرة!"

تلقيتُ ضربةً قوية على ظهري من أحد الشرطة وهو يزجرني: "لا تهدديها!"

"اللعنة عليكم جميعاً! خذوها إن كنتم تريدون، لم أعد أحتاجها على أي حال! هيا.. بما أنك تشك في أنني خطفتها، أنقذها مني وضعها في دار للأيتام، هل يرضيك هذا؟"

ناظرني الشرطي الذي كان مع مايا بحيرة: "ماذا تقصدين؟"

"اللعنة! إنها أختي من الأم، واليوم مات والدها وبقيت وحيدة، وأنا أبحث عن مكانٍ لتعيش فيه.. هل استوعب عقلك الآن؟ اتركني اللعنة عليك!"

انتهى بنا الأمر في مركز الشرطة، حيث قضيتُ ساعاتٍ مملة أقدم إثباتات الهوية والمعلومات التي تؤكد صدق روايتي. وبعد بحثٍ طويل، أطلقوا سراحنا. عدتُ لسيارتي مشياً على الأقدام، ومع كل خطوة كنتُ ألعن "مايا" وساعة ولادتها. وصلنا أخيراً، ركبتُ وانطلقتُ لأجد هاتفي يضج باتصالات فائتة من "ساندرا". أعدتُ الاتصال بها فوراً:

"أين أنتِ؟ لماذا لا تجيبين؟"

"كنتُ ضيفةً في مركز الشرطة!"

"ماذا فعلتِ هذه المرة؟"

"لا شيء، سأحكي لكِ لاحقاً، هناك مستجدات كثيرة.. أين أنتِ الآن؟"

"في المنزل، تعالي إليّ."

وصلتُ منزل ساندرا، نزلتُ وأنزلتُ خلفي "العبء الصغير". طرقتُ الباب ففتحت ساندرا فوراً، لتتجمد ملامحها دهشةً برؤية مايا: "أوه.. لم أتوقع أن تحضريها معكِ! ثم ما خطب يدكِ المجبورة؟"

دخلتُ وأنا أزفر بضيق: "بالنسبة ليدي، فقد نالت نصيبها في العملية الأخيرة.. أما قصة مايا، فاجلسي لأروي لكِ الكارثة."

أدخلتها ساندرا وأجلستها على الأريكة بجانبي، فقلتُ بيأس: "مات سيزار اللعين وارتحتُ من وجهه، لكن لعنة ابنته لا تزال تلاحقني. أين ستعيش هذه الوغدة من اليوم؟ هي أصغر من أن تُترك وحدها في ذلك القصر، وأنا غارقة حتى أذنيّ في المقر والعمليات.. لا أعرف ماذا أفعل!"

فكرت ساندي ملياً ثم قالت بعفوية: "لماذا لا تعيش معي؟"

تفاجأتُ وسألتُ بتردد: "حقاً؟ لا.. ستكون عبئاً ثقيلاً عليكِ، كما أنها سيئة التربية وستتعبكِ كثيراً."

ابتسمت ساندرا بهدوء: "لا بأس، دعي أمرها عليّ."

لمعت في رأسي فكرةٌ أفضل: "إذاً، لديّ الحل الأمثل! عيشي أنتِ معها في منزلي، القصر واسع والخدم تحت تصرفكما. هكذا ترتاحين أنتِ، وأطمئن أنا عليها في مكاني."

تهللت أسارير ساندرا وقالت بذهول: "أنا؟ أعيش في ذلك القصر الأسطوري؟ يا للروعة! أنا موافقة تماماً!"

ابتسمتُ براحة: "إذاً اجمعي أغراضكِ وانتقلي فوراً. سأعطيكِ المفاتيح وستكونين أنتِ سيدة المنزل.. تصرفي فيه كما تشائين."

صعدت ساندرا لجمع شتات أغراضها، بينما هرعتُ أنا لسيارتي لإحضار مفاتيح القصر. في تلك اللحظة، اخترق رنين هاتفي سكون الليل؛ كان "ماركو" وصوته ينضح بالتوتر:

"سيليست.. للمقر حالاً! حدث أمر طارئ لا يحتمل التأجيل."

أغلقتُ الخط في وجهه دون كلمة، سلمتُ المفاتيح لساندرا على عجلة متمتمة: "خذيها واذهبي للقصر، دبري أمورككِ.. عليّ الرحيل الآن."

انطلقتُ كالمجنونة نحو المقر، وما إن دلفتُ الداخل حتى استقبلتني الخادمة بأنفاس متهدجة: "سيدتي.. إنهم ينتظرونكِ في القبو!"

نزلتُ إلى القبو المظلم، حيث كانت الوجوه تتراءى خلف دخان السجائر. جلستُ في مكاني وسألتُ بجفاء: "ما الخطب؟"

نطق جيوفاني بنبرة حادة: "المافيا الإيطالية ضربت قاعدتنا في إيطاليا.. سرقوا كل مخزوننا من المخدرات."

اعترض رايدر: "لكن لا دليل قاطع يثبت تورط الإيطاليين تحديداً!"

رد فيليكس ببرود: "ومن غيرهم يملك الجرأة والعداء الكافي هناك؟"

تدخل براين "الشبح" برأيه الثاقب: "ربما أراد الفاعل تضليلنا.. يضربون في إيطاليا لنظن أنهم الإيطاليون، بينما العدو الحقيقي يراقبنا من مكان آخر."

حسم جيوفاني الجدل: "لهذا السبب، سنسافر إلى إيطاليا لنرى الحقيقة بأعيننا. ماركو وباولو وفيليكس سيبقون هنا لحماية المقر، أما لوكا وبراين ورايدر وسيليست.. فسيرافقونني."

بينما كان لوكا يضع اللمسات الأخيرة على الخطة، لاحظ جيوفاني شرودي فزجرني:

"سيليست! ركزي معنا.. شرودكِ قد يكلفنا الكثير في هذه المهمة."

أجبتُ بحدة: "أقسم أنني معكم في كل تفصيلة."

في الثالثة فجراً، كانت طائرتنا الخاصة تشق عباب السماء نحو إيطاليا. طوال الرحلة، كان رايدر يسرد لي تاريخ الصراعات التي فاتتني حضورها أثناء غيابي في السجن. وصلنا إيطاليا بملابس مدنية بسيطة للتخفي، ودخلنا الفندق الذي يغطي عملياتنا.

خاطب جيوفاني موظف الاستقبال بلهجة آمرة: "أعطني غرفاً بعددنا."

أجاب الفتى بأسف: "سيدي جيوفاني، لم نكن نتوقع زيارتكم.. لا يوجد سوى غرفتين شاغرتين فقط."

أخذ جيوفاني المفاتيح وسأل بحيرة: "كيف سنقسم أنفسنا الآن؟"

اتجهت الأنظار الأربعة نحوي، فقلتُ ببرود: "أنتم الأربعة في غرفة، وأنا في الأخرى.. ببساطة."

اعترض رايدر: "أتمزحين؟ أربعة رجال ضخام في غرفة واحدة؟ هذا مستحيل. التقسيم العادل هو ثلاثة واثنان."

صرختُ بهم: "اللعنة عليكم! لن أنام مع أي منكم في غرفة واحدة!"

حسم لوكا الموقف بهدوئه المعتاد: "لسنا في رحلة ترفيهية يا رفاق. بحسب بطاقات التعريف المزيفة التي منحنا إياها ماركو، سيليست هي زوجتي.. لذا سنأخذ غرفة، والثلاثة الباقون في الغرفة المقابلة."

تمتمتُ بحنق: "عليك اللعنة يا ماركو!"

دخلتُ الغرفة مع لوكا وأوصدنا الباب. ارتميتُ على السرير منهكة، بينما خرج هو للشرفة ليمارس طقسه المعتاد في التدخين. لحقتُ به وأشعلتُ سيجارة بجانبه، فقال دون أن يلتفت:

"لا تدخني كثيراً.. هذا يضركِ."

"ها أنت تدخن كالمجنون ولم يمنعك أحد!"

"أنا رجل، وإن تضرر شيء فسيكون رئتي.. أما أنتِ.."

"أنا ماذا؟ قلها!"

أطفأ سيجارته ودخل الغرفة تاركاً سؤالي معلقاً في الهواء. حين لحقتُ به، وجدته قد استولى على السرير، فقلتُ بآمرية:

"الأريكة لك، والسرير لي."

"ولماذا؟"

"لأن الأريكة ستدمر ظهري!"

"وكأنني بلا ظهر! أنتِ أصغر حجماً، الأريكة ستسعكِ، أما أنا فلا.. لذا السرير لي."

ناظرته بذهول؛ لم أتوقع منه هذا العناد. فرشتُ لحافاً على الأريكة الصلبة متمتمة: "عليك اللعنة يا ماركو!"

ضحك لوكا بخفة: "لماذا تسبين ماركو الآن؟"

"لأنه سجلني كزوجة لك! لو اختار جيوفاني أو رايدر لربما حصلا على الأريكة بدلاً مني!"

"كل هذا الحقد لأنني لم أمنحكِ السرير؟ نامي يا سيليست، نامي بهناء."

أطفأنا الأضواء، لكن الأريكة كانت كقطعة من الصخر. كنتُ أتقلب بضيق حتى سمعتُ صوته الرخيم في الظلام:

"إذا كنتِ غير مرتاحة.. تعالي إلى جانبي، السرير يتسع لنا كلينا."

لم أجب، لكنني فكرتُ في تعبي الشديد. وحين تأكدتُ من انتظام أنفاسه وأنه غط في النوم، تسللتُ بحذر إلى طرف السرير البعيد عنه، وما إن لامس رأسي الوسادة حتى غصتُ في نومٍ عميق لم أعرفه منذ زمن.

استيقظتُ على صرخة المنبه المزعجة، ولثوانٍ لم أدرك أين أنا، حتى شعرتُ بدفءٍ غريب يحيط بي؛ كنتُ غارقة في حضن لوكا! اتسعت عيناي رعباً، وبغريزة دفاعية عنيفة سددتُ له ركلة بساقي أطاحت به أرضاً. استيقظ مفزوعاً، ينفض غبار السقوط عن وجهه وهو يصرخ:

"ما خطب لعنتكِ؟ لماذا فعلتِ ذلك؟ وهل نمتِ على السرير أيضاً؟"

حمدتُ الخالق أنه لم يدرك حقيقة وضعي المتلاحم معه، وبسرعة رسمتُ قناع البرود المعتاد: "كلا، كنتُ أحاول إيقاظك لكنك كنت غارقاً في سباتٍ عميق، فدفعتك بقوة ولم أتوقع أن جسدك بهذا الضعف لتسقط!"

نهض وهو ينفض ثيابه بتململ: "لا بأس..فاستيقاظي عملية معقدة حين أكون منهكاً."

دخل الحمام، وسمعتُ هدير الماء فعلمتُ أنه استحم. تملكتني الحيرة؛ هل سيخرج ويغير ثيابه أمامي؟ فهو لم يأخذ معه ملابس! سألتُه بصوتٍ مرتفع: "هاي أنت! هل تنوي استعراض ملابسك في الغرفة؟"

جاء صوته من خلف الباب: "كلا، الملابس بالداخل."

استغللتُ الفرصة وغيرتُ ملابسي بسرعة، أسدلتُ شعري ليغطي ارتباك وجهي واتصلتُ بجيوفاني.

"صباح الخير سيليست.. ما الأمر؟"

"لقد استيقظنا للتو، ماذا عنكم؟"

"نحن ننتظركما منذ قرنين! الاتفاق كان في التاسعة والآن تجاوزت الحادية عشرة! أين لوكا؟ ليس من عادته التأخر.. ماذا كنتما تفعلان خلف الأبواب المغلقة؟"

"على رسلك يا رجل! نمنا في السادسة فجراً، فكيف تتوقع أن ننهض في التاسعة؟ لو كان باولو هنا لمنع هذه الجريمة الصحية، فهو يقدس الثماني ساعات."

"باولو في إسبانيا يا سيليست، والآن اخرجوا فوراً.. لقد نفد صبري!"

أغلقتُ الخط وصرختُ بلوكا: "هيا اخرج أيها الوغد، لقد أوشك جيوفاني على تفجير الفندق!"

انفتح الباب، وخرج لوكا يلف منشفة حول خصره، عاري الصدر بقطرات ماء تلمع على جلده، ونظراته كانت أمضى من سيفٍ صقيل. اقترب مني ببطءٍ يحبس الأنفاس، بينما تسمرتُ مكاني للمرة الثالثة هذا اليوم، عاجزةً حتى عن رفع بصري. ألصقني بالحائط، وهبط بصوته الخشن قرب أذني:

"لا تنعتيني بالوغد مجدداً.. وإلا خسرنا صداقتنا."

ابتعد ببرود وبدأ يرتدي ثيابه، بينما ظللتُ أنا شاخصة البصر نحو الأرض، عاجزة عن النطق بكلمة. لم أسترد شجاعتي إلا حين سمعتُ وقع خطاه يغادر الغرفة فتبعته كظله.

اجتمعنا مع البقية في مطعم الفندق. كنا نلتهم وجبتنا حين اتصل "ماركو" ليعطينا الإحداثيات الجديدة:

"شباب.. زعيم المافيا الإيطالية مدعو لحفل ضخم الليلة، وسيرافقه أقوى عضوين في عصابته."

جيوفاني: "أعطنا المفيد!"

ماركو: "فيليكس يحلل الآن العنوان، التوقيت، قائمة الحضور، ونظام الحماية. عودوا لغرفكم وانتظروا إشارتي."

عدنا أدراجنا واجتمعنا في غرفتي أنا ولوكا. كان رايدر يحوم في الأرجاء كالنمر الحبيس، حتى صرخ به جيوفاني: "اجلس يا لعنة المكان، لقد أصابني الدوار!"

براين: "ما الذي تفعله بحق السماء؟"

رايدر بجدية مصطنعة: "أتفقد المكان.. كاميرات مراقبة، أجهزة تنصت.. لا تأمنوا لهؤلاء الإيطاليين!" وفجأة تجمد مكانه وصرخ: "لا أصدق عيني!"

جيوفاني: "تكلم بهدوء! ما خطب لعنتك؟"

رايدر وهو يشير بإصبعه نحوي ونحو لوكا: "السرير مستهلك من الجانبين.. هل نمتما سوياً؟"

شعرتُ بلسعة إحراج حادة وأنا أتذكر حضنه الدافئ، لكنني حافظتُ على جمودي. وقبل أن أنطق، بادر لوكا بالإجابة بصدق: "كلا، هي نامت على الأريكة وأنا على السرير."

كان واضحاً أن لوكا لم يشعر بتسللي إليه في الليل، وهذا منحني طوق نجاة. تداركتُ الموقف بحدة: "لسنا زوجين حقيقيين لنشارك السرير يا 'سيد فضولي'.. لذا اخرس واجلس في مكانك قبل أن أفقد أعصابي!"

قلد رايدر نبرتي بتعابير ساخرة، وكنتُ على وشك الانقضاض عليه، لولا رنين هاتف جيوفاني.. لقد عاد ماركو بالخبر اليقين.

اجتمعنا حول جيوفاني بينما كان صوت ماركو ينساب عبر الهاتف كقطرات السم، شارحاً تفاصيل "الفخ":

"ميلانو.. شارع بريسيوسو، المبنى رقم 14. العاشرة مساءً. الحفل في الظاهر لجمع تبرعات للمستشفيات، لكنه في الحقيقة ستارٌ دخاني لتهريب شحنة مخدرات ضخمة نحو النرويج. سنضرب ثلاثة عصافير بحجر واحد: اعتراض السفينة، مداهمة مقرهم الخالي، واحتجاز زعيمهم 'أندرو' وأهم عضوين لديه."

سأل جيوفاني ببرود: "هل وصل الدعم؟"

"أجل، 150 مقاتلاً من النخبة يتنكرون كسيّاح في ثلاث ولايات، ينتظرون إشارتي. السفينة الحربية في طريقها لاعتراض باخرتهم، أما مقرهم.. فسنسويه بالأرض. وبخصوص 'أندرو'.. فقد تركتُ لك مهمة تصفية الحساب معه."

هنا صمت ماركو قليلاً، ثم أردف بنبرة مريبة:

"لقد وجدتها.. لكن سيليست ستكون هي بطلة هذا العرض!"

التفت الجميع نحوي في صمتٍ ثقيل، فقلتُ بريبة: "وكيف ذلك؟"

ماركو: "المهمة تتطلب تمثيلاً عالي المستوى. سأرسل لكم بطاقات دعوة مزورة، وعليكم تغيير ملامحكم تماماً فأندرو ليس أحمق. سيليست.. دوركِ هو استدراج أندرو وإغواؤه، فهو 'نسونجي' قذر ولن يقاوم سحركِ. عليكِ جره إلى الزقاق رقم 17 خلف مبنى الحفل. أما أنتم الأربعة، فستتقمصون دور رجال أعمال وتتقربون من عضويه، مع العلم أنهما فتاتان، استدرجوهما لموعدٍ في ملهى ليلي، وحين تثقان بكم.. انقضوا عليهما. ثم الحقوا بسيليست لتجهزوا على أندرو وهو وحيدٌ معها. ما رأيكم؟"

تبادلنا النظرات، وعلامات الاستحسان تلوح على الوجوه، لولا صوت "لوكا" الرخيم الذي قطع حبل الأفكار:

"خطة جيدة يا ماركو.. لكنك لم تقرأ ما بين السطور. ماذا لو لم يبتلع أندرو الطعم؟ ماذا لو ارتاب العضوان ورفضا مرافقتنا؟ الخطة حينها ستنهار كبيتٍ من ورق."

ماركو بتذمر: "أنا مسؤول الأمن لا التخطيط! هذه مهمتك يا لوكا، تصرف!"

حسم جيوفاني الجدل بلهجته الصارمة: "لا بأس.. سنتولى التفاصيل الميدانية بأنفسنا. تصرف يا لوكا، الوقت يداهمنا."

وضع لوكا يده تحت ذقنه، وغاص في تفكيره العميق قبل أن يقول:

"الخطة ليست سيئة.. لكن نجاحها يعتمد كلياً على براعتنا في التمثيل. إنها مسألة حياة أو موت.. وسيتحتم علينا أن نكون مقنعين لدرجة تجعل أندرو ينسى حتى اسمه."

وقفتُ وسط الغرفة بذهول حين سأل جيوفاني عن فستاني: "فستان؟ أنا لم أرتدِ فستاناً في حياتي! سأستعير طقماً رسمياً من خزانة رايدر وكفى."

لطم لوكا جبهته بيده ساخراً: "كمية الغباء لديكِ تستحق الحسد! هل تخططين لإغراء أندرو بطقم رجالي؟"

أردف جيوفاني بصرامة: "سيليست، أحياناً أرغب في صفعكِ بجدية! الليلة يجب أن تكوني أنثى طاغية، فستان مثير، تبرج، وزينة.. هل تملكين واحداً؟"

أجبتُ بيأس: "كلا، لا أملك."

"إذاً، اذهبي مع لوكا فوراً واختارا فستاناً يليق بـ 'مارلين روفيري'."

تذمر لوكا من التعب، لكن حجة جيوفاني كانت مفحمة: "أنت زوجها، لذا أنت المسؤول!"

رد لوكا بحدة: "على الورق فقط، لا تنسوا ذلك!"

وقبل أن نغادر، سأل براين ببرود عن مقاسي ليحضر لي حذاءً، وحين سألته ببلاهة: "مقاسي في ماذا؟"، أجاب بقلة حيلة: "في الأحذية طبعاً! هل تظنين أنني سأسألكِ عن مقاس رصاصكِ؟"

خرجتُ مع لوكا بروحٍ منهزمة، وانطلقنا إلى أرقى متاجر ميلانو. كانت الفساتين المعروضة تستفزني بقصرها وفتحاتها الجريئة، بينما كان لوكا يراقبني بصمتٍ مستمتع حتى سألني: "هل سأرتديه أنا؟ هيا اختاري!"

جاءت البائعة تتحدث الإيطالية، وبما أن لغتنا الإسبانية تتقاطع مع لغتهم، حاولنا التواصل حتى استقر الكلام على الإنجليزية. قلتُ لها بوضوح: "أريد فستاناً مثيراً وطويلاً ومغرياً، لكنه مستور ولا يظهر جسدي!"

ضحكت البائعة بخفة: "عفواً يا آنسة، لكن طلبكِ متناقض كلياً!"

هنا تدخل لوكا بنفاد صبر: "أحضري لها فستاناً أسود، طويلاً، بفتحة جانبية جريئة ورقبة مفتوحة."

ابتسمت البائعة للوكا: "ذوق زوجكِ رفيع جداً.. ما هو مقاسها؟"

تفحصني لوكا بنظرة شاملة، أربكتني وأنا أشعر بعينيه تمسحان جسدي، ثم قال بثقة: "المقاس 37، أحضريه."

بينما ننتظر، سألني لوكا بسخرية: "متى ستصبحين فتاة حقيقية؟"

أجبتُه بثقة: "حين أرى عدداً كافياً من الرجال الحقيقيين في هذا العالم."

رفع حاجبه مستنكراً: "نقص الرجال ليس ذريعة لتتقمصي دور 'المسترجلة'."

"أنا أحب كوني هكذا، ألديك مانع؟"

"بالطبع! أنتِ زوجتي ويجب أن يكون لي رأي."

"زوجتك؟ لا تصدق الكذبة يا رجل!"

"اطمئني، مجرد التفكير في الزواج منكِ يقشعر له جسدي!"

"لماذا؟ لستُ نوعك المفضل؟"

"بتاتاً! أنا أعشق الرقة والأنوثة، وهما صفتان لا تعرفان طريقاً إليكِ."

"رائع.. طمأنتني حقاً. ومرة أخرى.. اللعنة على ماركو!"

اشترينا الفستان الأسود، عارِ الكتفين بفتحة تصل للخصر، مع كعبٍ عالٍ وأدوات التجميل. عدنا للفندق لنجد الجميع قد تحولوا إلى رجال أعمال مهيبين. سلمني جيوفاني هويتي الجديدة: "مارلين روفيري، سيدة أعمال إيطالية الأصل تعيش في إسبانيا. وهذه سماعة وساعة برمجية للتواصل والتسجيل. اضغطي الزر الأحمر عند الحاجة."

وزع الأدوار على البقية: رايدر (سيمون)، براين (ديلا سكالا)، لوكا (سيباستيان)، وهو (أرماندو). "لن ندخل معاً ولن نتعرف على بعضنا هناك.. الموعد في العاشرة."

انفردتُ بغرفتي، أناظر الفستان والكعب كأنني أناظر أدوات تعذيب. شعرتُ بالغرابة وأنا أحاول ارتداء ذاك الثوب المعقد، استغرق الأمر ساعة كاملة. وضعتُ المكياج، ركبتُ الأظافر السوداء الأنيقة، ونسقتُ الإكسسوارات الفضية. رشيتُ عطري الثمين الذي يفوح بالغموض، وألقيتُ نظرة أخيرة في المرآة.. لم أتعرف على نفسي.

خرجتُ إليهم بخطوات متعثرة بسبب الكعب، وصمتت الردهة تماماً حين وقعت أبصارهم عليّ.

خرجتُ إليهم وكأنني مشهدٌ سينمائي نُفذ بدقة متناهية؛ تحول الرواق إلى خلفية ضبابية وأنا أخطو للأمام بكبرياء لم أعهده في نفسي من قبل. الفستان الأسود الذي اخترناه على مضض بدا وكأنه صُنع خصيصاً لتكريم جسدي المحرم، جعلني أبدو كأنني اقتُطعت من عالم آخر أكثر روعة وإشراقاً، عالم لا يعرف طعم الرصاص أو رائحة الدم.

كان جيوفاني أول من سقط ضحية لدهشته؛ هو الرجل الذي يتحكم بكل عضلة في وجهه، وجد نفسه مشدوهاً أمام طيفي. وقعت عيناه عليّ فارتسمت على وجهه نظرة لم أرها من قبل، كأنه يكتشف شريكته في الجريمة تحت ضوءٍ جديد كلياً، ضوءٍ كشف له أن الوحش الذي يثق به يخبئ خلفه فتنةً لا تُقاوم.

أما لوكا، الذي يتخذ من البرود درعاً، فقد خانته عيناه التي توسعت بدهشة صامتة. رأيتُ في نظراته إدراكاً متأخراً بأن خلف ذكائي وقوتي يكمن جمالٌ لافت، جمالٌ جعل قشعريرة الزواج المزيف التي تحدث عنها قبل قليل تبدو الآن كفكرة بعيدة المنال.

رايدر، الذي اعتاد أن يكون هو مركز الجذب بسحره الخاص، وجد نفسه لأول مرة على الجانب الآخر من المعادلة. وقف هناك مبهوراً، وارتسمت على وجهه ابتسامة اعترافٍ صريحة بجمالي الذي لم يشهد له مثيلاً من قبل. وحتى براين، "الشبح" الذي يختبئ وراء قناع البرود، لم يستطع منع نفسه من التوقف والنظر مطولاً، وكأنه يرى جانباً مني لم يكن مسجلاً في أيّ من ملفاته السرية.

هؤلاء الرجال، الذين يواجهون الموت بابتسامة، وجدوا أنفسهم عزلاً أمام أثر هذا الظهور. قطعتُ شرودهم وصمتهم الثقيل بنبرة ساخرة:

"ألهذه الدرجة أبدو جميلة.. أم أن الصدمة أفقدتكم النطق؟"

تجاهلني أربعتهم بسرعة مصطنعة، مغيرين الموضوع بحجة أننا تأخرنا. انطلقنا وكلٌّ منا يقود سيارته التي أرسلها ماركو لتكتمل اللعبة؛ كانت سيارتي "لامبورغيني" سوداء فاحمة، تنساب في شوارع ميلانو كوحشٍ أنيق. وعبر السماعات المخفية، جاء صوت جيوفاني آمراً:

"براين.. ستدخل أولاً لتنقل لنا الأجواء. بعد عشرين دقيقة بالضبط، تدخل سيليست.. وإياكِ والاقتراب من أندرو فوراً، انتظري إشارتي. بعدكِ بخمس عشرة دقيقة سأدخل أنا، ثم يتبعنا لوكا بعد عشر دقائق، وأخيراً رايدر بعد خمس دقائق. تفرقوا في القاعة ولا تظهروا أي صلة بينكم."

توقفنا في زوايا مختلفة بالقرب من موقع الحفل، نراقب الأضواء والمبنى رقم 14. ساد السكون لحظات قبل أن يقطعه صوت جيوفاني الحازم:

"انطلق يا براين!"

ترجل براين من سيارته بكل هيبته ووقاره، راقبناه وهو يتجاوز الحراس ببرودٍ قاتل بعد أن أبرز بطاقة الدعوة. كان عليّ الانتظار لعشرين دقيقة أخرى، وهي مدة كافية ليعبث التوتر بأعصابي. بدأتُ أكتشف الساعة التي صنعها فيليكس، وسألت جيوفاني عبر السماعة:

"هاي جيوفاني، هل فيليكس هو من صمم هذه التحفة؟"

"بلى، ولا تنسي الضغط على الزر الأحمر لتسجيل كل همسة.. انطلقي الآن يا سيليست، وركزي!"

نزلتُ من سيارتي "اللامبورغيني" بعد أن ألقيتُ نظرة أخيرة على مكياجي في المرآة. توجهتُ نحو البوابة، فانحنى الحارس بأدبٍ جمّ قائلاً: "البطاقة من فضلكِ يا آنسة."

أبرزتُها له، ففتح الباب بابتسامةٍ فاترة. وللوهلة الأولى، خطف بريق المكان أنفاسي؛ النجفات الكريستالية، الموسيقى الهادئة، ورائحة الثراء الفاحش. شعرتُ لثانية أن أنوثتي المنسية بدأت تستيقظ في هذا الجو المخملي. اتخذتُ طاولة منعزلة وبدأت عيناي تمسحان القاعة. رأيتُ براين.. الوقح! كان محاطاً بفتاتين يضحك معهما؛ ما أسرعه في تقمص الأدوار!

بعد دقائق، دخل جيوفاني ثم لوكا الذي سرق الأنظار بهيبته الطاغية؛ كان يمسك سيجارته بيده والأخرى في جيبه، وكأنه يملك المكان وما فيه. انتظرنا رايدر، لكنه تأخر لعشر دقائق إضافية جعلت جيوفاني يشتعل غضباً عبر السماعات، حتى ظهر أخيراً وهو يلهث:

"اللعنة على تلك الكلاب السائبة التي طاردتني.. رؤوسهم بحجم الجبال!"

"واللعنة عليك! لقد تأخرت!" زجره جيوفاني، ثم سأل: "لوكا، أين الهدف؟"

"الطاولة الثالثة يسار الدرج.. العضوتان المفضلات لأندرو هناك."

تمتم براين بذهول: "فتيات؟ نسيت أن خصومنا الليلة إناث!"

جاءت الإشارة الحاسمة من جيوفاني:

"سيليست.. الطاولة السابعة يمين الدرج. الرجل ذو السترة الحمراء هو أندرو.. انطلقي!"

شعرتُ بقلبي يقرع طبول الحرب في صدري. نظرتُ إليه؛ لم يكن عجوزاً كما تخيلت، بل كان شاباً يفيض بالوسامة والغرور. أخذتُ نفساً عميقاً، واستجمعتُ كل "مارلين روفيري" التي بداخلي. نهضتُ بخطواتٍ تفيض بالرقة، مائلة الخصر بإغراءٍ مدروس، وعينا الشباب تلاحقني من بعيد بترقبٍ صامت.

وصلتُ إلى طاولته، انحنيتُ قليلاً ليرى بريق عينيّ، وغيرتُ طبقة صوتي لتصبح رخيمة، ناعمة، ومستفزة للحواس:

"أهلاً أيها الوسيم.. هل تسمح لي بمشاركتك هذه الطاولة؟"

ابتسم "أندرو" بجاذبية خبيثة، وكأنه وجد صيداً أثمن من المخدرات الليلة، وقال بنبرة واثقة: "لماذا لا نجلس على طاولة منفردة بعيداً عن هذا الضجيج؟"

بادلته الابتسامة وقلت برقة مصطنعة: "هذا ما كنتُ سأقترحه تماماً."

مدّ يده، فوضعتُ يدي في يده، وشعرتُ بنظرات الفريق تخترق ظهري. جلسنا، وبدأ الاستجواب: "عرفيني بنفسكِ أيتها الحسناء."

تجمدتُ لثانية.. تباً! لقد تبخر الاسم من رأسي. نظرتُ إليه ببلاهة قبل أن أتدارك الموقف بذكاء: "أنا مجرد معجبة وقعت في سحر حضورك.. اسمي لا يهم الآن."

ضحك بخفة: "أأناديكِ 'معجبة' إذاً؟"

"كما تشاء!"

بينما كنتُ أحاول تشغيل زر التسجيل في الساعة، ارتكبتُ حماقة العمر؛ وبدلاً من التسجيل، انطلقت أغنية (Light It Up) بأعلى صوت في القاعة الهادئة! تجمد الجميع، ونظر إليّ أندرو بذهول. ابتسمتُ بحرج: "خطأ فني بسيط.. هيهي!"

ضحك أندرو مستمتعاً، بينما جاءني صوت جيوفاني في السماعة كفحيح الأفعى: "اسمكِ مارلين روفيري أيتها اللعنة! الزمي الهدوء وركزي!"

استعدتُ توازني وقلتُ بإثارة: "أنا مارلين روفيري، سيدة أعمال من إسبانيا.. ماذا عنك أيها المثير؟"

"أنا أندرو إل دوتشي.. 35 عاماً، ورجل أعمال أيضاً."

"إل دوتشي؟ هل أنت من سلالة 'موسوليني'؟ تعجبني هذه الكاريزما الفاشية."

أعجبته ثقافتي، فاقتربتُ منه أكثر وقلتُ بهمس: "أندرو.. هل أنت مرتبط؟"

غمز لي بخبث: "وماذا إن قلتُ لستُ كذلك؟"

قلتُ بجرأة: "إذاً.. دعنا نكمل ليلتنا في مكان أكثر خصوصية.. لنستمتع وحدنا."

نهض فوراً ومدّ يده. خرجنا، وكنتُ ألمح جيوفاني ولوكا يتبعوننا كالظلال. أقنعته بركوب سيارتي اللامبورغيني، وقلتُ في نفسي: "اركب أيها الوحش.. سآخذك إلى جحيمك الخاص."

أعطاني جيوفاني التعليمات الأخيرة: "استدرجيه لغرفتكِ في الفندق، وتأكدي أنه لا يحمل سلاحاً.. نحن خلفكِ."

وصلنا الجناح، وكان قلبي يقرع طبول الذعر؛ ماذا لو تأخروا؟

دخلتُ الحمام لأهمس لجيوفاني: "وكيف أتأكد من سلاحه؟ هل تريدني أن أنزع ملابسه؟ اللعنة عليك!"

"تصرفي! حين تقولين (يا إلهي) سندخل فوراً."

خرجتُ، فوجدته قد تخلص من قميصه واستلقى على السرير بجسد رياضي مثير. ارتبكتُ، لكنني تذكرتُ المهمة. اقتربتُ منه ببطء، وعيناي تمسحان خصر سرواله: "لنتجنب أي أذى.. أتمنى ألا تكون حاملاً لأي شيء حاد في جيوبك."

ابتسم ببرود: "اطمئني.. لا أحمل شيئاً."

مررتُ يدي قريباً من عضلات صدره بتمثيلٍ متقن، وقلتُ بصوتٍ مسموع للسماعة:

"لك عضلات مثيرة حقاً.. يا إلهي!"

ما إن لفظتُ كلمة السر حتى انخلع الباب وكأن إعصاراً ضربه؛ اندفع جيوفاني بمسدسه المصوب نحو رأس أندرو. تراجع الأخير بصدمة، ملامحه الوسيمة تشوهت بذهولٍ قاتل: "كيف.. من أين ظهرت أنت؟"

تقدم جيوفاني بخطواتٍ ثابتة وصوتٍ كالفولاذ: "على ركبتيك، ويداك خلف رأسك!"

لم يكد أندرو ينفذ الأمر حتى هوى جيوفاني على وجهه بلكمةٍ أسقطته في غياهب الغياب. ساعدتُه في تقييده إلى الكرسي بإحكام، ثم التفت إليّ قائلاً: "اذهبي للغرفة المقابلة.. انظري إن كان الشباب قد أنهوا وليمتهم."

توجهتُ للغرفة الأخرى لأجد العضوتين مقيدتين بالأصفاد، بينما يجلس رايدر وبراين ولوكا بهدوء المستمتع. سأل رايدر بترقب: "هل سقط أندرو في الفخ؟"

أومأتُ له بنصرٍ صامت، فنهض الثلاثة وسحبوا الفتاتين نحو جناح أندرو. اجتمعنا جميعاً حول "الزعيم" وعضوتيه، في مشهدٍ يقطر بالتهديد.

أمر جيوفاني رايدر بتجهيز القبو، ثم سدد ركلة قوية لأندرو ليوقظه. فتح الآخر عينيه بتثاقل، ليواجه نظرات جيوفاني المميتة: "سوف تعترف بكل قطرة دمٍ سكبتها في غيابي!"

ضحك أندرو بمرارة وسخرية: "أنا؟ لم أفعل شيئاً يستحق هذا الاستقبال يا رجل!"

رمقتُه بنظرة احتقار تقشعر لها الأبدان، وبعد قليل كنا في القبو؛ المكان الذي تنطق فيه الجدران بالحقيقة فقط. سكب براين سطلاً من الماء المثلج على الفتاتين، لتستيقظا على جحيمٍ لم تتوقعاه؛ حاولت إحداهما الصراخ، لكن لكمةً خاطفة من براين جعلت صوتها يتلاشى في حنجرتها.

ناظر جيوفاني أندرو الذي يراقب بصمتٍ حذر: "تكلم!"

أندرو بوقاحة: "واللعنة عليكم! ماذا ستفعل لي إن اعترفت؟"

جيوفاني بابتسامةٍ باردة: "سأعلب معك 'الغميضة'.. لذا تكلم ولا تضيع وقتي الثمين."

غرس براين سكينه في فخذ أندرو بعنف، صرخة الأخير كُتمت بقطعة قماش ربطها رايدر حول فمه ببراعة. نظرتُ للفتاتين؛ كانتا ترتعدان ذعراً وتبكيان بصمتٍ مرير.

سأل جيوفاني مجدداً: "ماذا الآن؟ ألن تنطق؟"

رفض أندرو بهز رأسه، فبدأ براين بتحريك السكين داخل الجرح يميناً وشمالاً، ورايدر يضغط على قطعة القماش ليخنق صرخاته. أشار جيوفاني لبراين بالتوقف، واقترب من أندرو قائلاً: "حتى الآن، أنا أداعبك فقط.. تكلم أفضل لك."

أومأ أندرو بيأس، ففك رايدر القماش عن فمه لينفجر الأخير صارخاً: "سأتكلم اللعنة عليك! أنا من دمرت قاعدتك في إيطاليا، وأنا من استولى على المخدرات وقتل رجالك.. والآن، ماذا ستفعل لي؟"

اتخذ جيوفاني كرسياً وجلس قبالته ببرودٍ يثير الجنون، وسأله عن مصير الفتاتين، ليرد جيوفاني وهو يرمقني بنظرة دافئة وابتسامة هادئة هزت كياني:

"سأترك أمرهما لفتاتي.. هي من ستتصرف!"

"فتاتي؟" صدى الكلمة تردد في أذني كلحنٍ عذب، لكنني لم أستفق من سحرها إلا على رنين هاتف جيوفاني. رفع إصبعه في وجه أندرو كأنه يسكته: "توتوتو.. حبيبي، سأرد أولاً.. انتظرني قليلاً."

ردّ جيوفاني على الهاتف ووضع مكبر الصوت؛ ليمتلئ القبو بصوت "ماركو" المنتشي بالنصر:

"جيوفاني.. انتهى الأمر. حطمنا باخرتهم واستعدنا بضاعتنا، أما مقرهم فقد سويناه بالأرض ومات كل من فيه.. ماذا عنكم؟"

ابتسم جيوفاني ابتسامة ذئبية وقال: "أحسنت يا ماركو! نحن هنا بصدد عزف اللحن الأخير.. أتريد سماع صرخة الوداع من أندرو؟"

بمجرد أن ضغط جيوفاني على السكين المغروز في فخذ أندرو، انطلقت صرخة ألم مزقت سكون القبو، فجاء ضحك ماركو عبر الهاتف: "رائع! أكملوا حفلتكم وعودوا سريعاً، لقد اشتقنا إليكم."

أغلق جيوفاني الهاتف وعاد ليحوم حول أندرو كملك الموت: "دمرتَ قاعدتي فنسفتُ مقرك، سرقتَ مالي فاستعدته مع فوائد من دم رجالك.. لكن الانتقام الحقيقي لم يبدأ بعد."

التفت إليّ رايدر فجأة، وبصوت مشحون بالغلّ قال: "أتعلمين يا سيليست؟ هذا النذل هو من أزهق روح كارولين."

تسمرت في مكاني، واتسعت عيناي بذهول ممزوج برعبٍ صامت: "حقا؟"

أومأ برأسه، وفي تلك اللحظة شعرت بدمي يغلي حتى برزت عروق عنقي. تقدم جيوفاني نحوي بكل هدوء، ووضع مقبض السكين في يدي وقال بلهجة آمرة: "انتقمي لصديقتكِ الآن."

في تلك اللحظة، عبرت مخيلتي أطياف كارولين.. ضحكتها، وفاءها، كيف كانت الوحيدة التي تقرأ أفكاري دون كلام. تحول غضبي إلى إعصار أعمى؛ انقضضتُ على الفتاة الأولى كوحش مسعور، وغرستُ السكين في قلبها مراراً وتكراراً.. عشرون طعنة؟ ربما أكثر، لم أتوقف حتى شعرتُ بجسدها يرتخي ويبرد بين يديّ. ثم التفتُّ للثانية بصرخة مكتومة: "لابد أنكِ استمتعتِ بموت كارولين.. تذوقي هذا إذاً!"

مزقتُ جسدها بطعنات عشوائية حتى فارقت الحياة، ثم ألقيتها أرضاً من شعرها. وقفتُ ألهث بقوة، والدماء تقطر من وجهي ويديّ، حتى فستاني الأسود الثمين صار يتصبب أحمراً قانياً. اقتربتُ من أندرو بخطوات جنائزية هامسة: "أخبرني.. كيف كان لون دم كارولين؟ هل كان فاتحاً أم قاتماً؟ لقد جعلتني أخلف وعدي لها بأن نموت معاً في نفس المعركة.. والآن سأجعلك تتمنى لو لم تُخلق!"

لاحظ جيوفاني أنني فقدت السيطرة تماماً وأن غريزة القتل استولت عليّ، فأمسك معصمي بقوة ونزع السكين من يدي برفق: "كفى يا سيليست.. اهدئي. لوكا، خذها إلى الغرفة وساعدها لتستعيد توازنها. رايدر، براين.. اقضيا على هذا الجرذ، فقد أضاع من وقتنا الكثير."

يبست في مكاني، نظرت بحنق لجيوفاني:" امنحني شرف الانتقام لصديقتي رجاء! أريد قتل هذا الكلب!"

أومأ لي باستسلام، فأخذت المسدس من جيبه وصوبت طلقتين مباشرة في رأس ذلك الوغد دون أن يرفّ لي جفن، كنت سأفرغ فيه المدس لكن لوكا منعني بعد أن تأكدنا أنه مات وقادني بعيداً عن رائحة الموت.

وحين وصلنا للغرفة، أجلسني على طرف السرير وكأنه يخشى أن أنهار. ذهب وجهز الحمام، ثم عاد ليقول بنبرة هادئة لم أعهدها فيه:

"هيا ادخلي.. اغسلي هذا الدم عنكِ، وحاولي أن تسترخي قليلاً.. حسناً؟"

أغلقتُ باب الحمام خلفي، وكأنني أغلق باب الجحيم. نزعتُ الفستان الذي كان يوماً رمزاً للأنوثة، وصار الآن كفناً دموياً. نظرتُ للمرآة؛ الدماء كانت ترسم خريطة انتقامي على وجهي. ابتسمتُ بمرارة وهسستُ: "لقد أخذتُ حقكِ يا كارولين.. فلترقدي الآن بسلام."

ارتميتُ في حوض الاستحمام، وحاولتُ إرخاء أعصابي التي كانت مشدودة كأوتار الكمان. فجأة، سمعتُ وقع أقدامهم وهمساتهم في الغرفة بالخارج. أخفضتُ صوت الماء، فجاءتني كلماتهم كسهامٍ مسمومة:

براين: "يا لها من شراسة! أقسم أن عينيها تحولتا للظلام الدامس حين قبضت على السكين."

رايدر: "لقد تحولت لشيء آخر.. هذه الفتاة قنبلة موقوتة، لم أرها متعطشة للدماء هكذا منذ زمن."

براين: "صارت وحشاً هائجاً، لماذا لا نجعلها قاتلة محترفة بدلاً من جامعة معلومات؟"

لوكا (بنبرة غامضة): "أظن أن سر قوتها وجرأتها يكمن في طفولتها القاسية."

جيوفاني (بحدة): "وما دخلكم بطفولتها أو قوتها؟ هل أخطبها لك يا براين؟ اغلقوا هذا الموضوع فوراً!"

أوغاد.. يتحدثون عني وكأنني قطعة سلاح يختبرون جودتها. أعدتُ فتح الماء بقوة لأغرق أصواتهم، وشعرتُ برغبة في البقاء هناك للأبد. حين انتهيت، التففتُ بالمنشفة وخرجتُ بحذر ظناً مني أنهم رحلوا، لكن الصدمة كانت بانتظاري؛ الأربعة جالسون يراقبونني بصمتٍ مريب. تجاهلتُ نظراتهم، أخذتُ ملابسي وعدت للحمام لأخرج مجدداً بهيئتي المعتادة، وشعري المبلل يغطي نصف وجهي.

كسر جيوفاني الصمت بسؤاله المعتاد: "كيف حالكِ الآن؟"

أجبتُ بابتسامة ساخرة: "بخير.. ليست المرة الأولى التي أقتل فيها، ولن تكون الأخيرة."

رايدر (بجدية): "لكننا شعرنا أن الأمر هذه المرة كان شخصياً.. لقد تأثرتِ."

"ربما لأنني تذكرتُ أنني كنتُ أحب كارولين يوماً.. وأن مكانها بيننا لا يعوضه أحد."

لمعت الدموع في عيني، فقلبتُ وجهي بسرعة سائلة عن العودة: "متى سنرحل؟ لقد اشتقتُ لشخصٍ ما في إسبانيا."

رايدر (بغمزة): "باولو؟ ماركو؟ أم لعله فيليكس؟"

ضحكتُ رغماً عني: "اللعنة عليك.. أضحكتني في وقتٍ لا أريد فيه الضحك."

أعلن جيوفاني أن الرحيل في الرابعة فجراً. نظرتُ للساعة؛ الثانية تماماً. "ساعتان فقط؟ أين أنت يا باولو لتنقذني من هذا التعذيب؟"

ضحك لوكا: "لا تنامي إذاً، ستمضي الساعتان في لمح البصر."

خرج الجميع وبقيتُ مع لوكا في صمتٍ ثقيل، يقطعه تلاحق نظراتنا. سألته بتحدٍ: "لماذا تنظر إليّ هكذا؟"

"بل السؤال موجه لكِ!" ثم أردف: "هاتي الساعة التي سجلتِ بها المحادثة."

بحثتُ عنها بذعر في معصمي، في الحمام، في كل مكان.. لا أثر لها. نظرتُ إليه بأسف: "لقد فقدتُها."

رفع يده ليظهرها لي، كانت تتأرجح في إصبعه ببرود مستفز: "سقطت منكِ وأنتِ تطعنين الفتاتين.. كم أنتِ متهورة! لولا أنني انتبهتُ لها لضاعت كل المعلومات."

أجبتُ ببرود: "ولماذا تحتاجونها وقد صار أندرو جثة؟"

اقترب مني بضع خطوات وقال بنبرة لم أفهمها: "المنظمة قد لا تحتاجها.. لكنني أنا أحتاجها."

لم أرغب في الدخول معه في جدالٍ حول تلك الساعة اللعينة؛ فتمددتُ على السرير أراقب السقف بشرود، بينما جلس هو على الأريكة ينفث دخان سيجارته. وفجأة، كسر صمت الغرفة صوت "زقزقة" معدته الجائعة، فضحك قائلاً بصوتٍ رخيم:

"يا زوجتي العزيزة.. ما كان عليكِ تركي بلا عشاء، أهذا هو الكرم الإسباني؟"

ضحكتُ بسخرية: "زوجي العزيز.. لستُ خادمتك لتطبخ لك، ابحث عن طعامك بمخالبك!"

استقام من مكانه مقترباً بخطواتٍ هادئة: "لكن دور المرأة خدمة زوجها.. وإلا فما جدوى وجودها في هذه الحياة؟"

اعتَدلتُ في جلستي ونظرتُ له بحدة: "هي موجودة لتنجب أوغاداً مثلك وتهديهم حياة لا يستحقونها!"

ابتسم باتساع وكأنه يستمتع باستفزازي: "لماذا غضبتِ؟ فلنتناقش بهدوء."

عقدتُ حاجبي بضيق: "لن أتناقش مع شخصٍ يرى المرأة مجرد أداة خدمة.. أنت لن تقدر أماً أو زوجة."

قال بنبرة غامضة: "لا بد أنكِ ستكونين أماً جيدة في المستقبل."

"لن أصبح أماً أبداً.. وبالنسبة لك، الواضح أنك ستكون أسوأ أب عرفته البشرية!"

"أنتِ مخطئة.. وسوف أثبت لكِ ذلك مع الأيام، انتظري وحسب."

قطع حوارنا طرقاتٌ على الباب؛ كان البقية قد وصلوا. فتح لوكا الباب فدخل رايدر بخبثٍ يقفز من عينيه: "هل قاطعنا شيئاً حميمياً بينكما؟"

لوكا (بمزاح): "في الحقيقة أجل.. كنتُ أناقش زوجتي الحبيبة بخصوص عدد أطفالنا!"

التقطتُ الوسادة وهويتُ بها عليه بكل قوتي: "اللعنة عليك! لا تعدها وإلا ألحقتكَ بأندرو.. واللعنة الدائمة على ماركو!"

انفجر الجميع بالضحك، وعلق جيوفاني: "مسكين ماركو، يُلعن غائباً وحاضراً!"

ساد الصمت لبرهة، فنظرتُ للساعة؛ الثانية والنصف. الوقت يمر كأنه دهر. حاول رايدر إحياء الجو باقتراح لعبة "حقيقة أم جرأة"، لكنه قوبل بصدٍ جماعي جعل يده تنخفض بيأس: "مملون حقاً!"

تحدث لوكا بجدية فجائية وهو ينظر لجيوفاني: "هل تدرك أننا محينا مافيا أندرو من الوجود في ليلة واحدة؟"

جيوفاني (ببرود): "أجل.. هو لم يكن سوى جرذ يدعي القوة، وقد حان أوان موته."

رايدر: "سنحتفل فور عودتنا لإسبانيا، أليس كذلك؟"

تمتمتُ بملل: "أول ما سأفعله في إسبانيا هو الغرق في نومٍ لا ينتهي."

بينما كنا نتأكد من أمتعتنا وأسلحتنا، تذكرتُ هاتفي المغلق، لكنني قررتُ تركه ميتاً؛ فلا أحد ينتظر اتصالي. فجأة، تنحنح رايدر بنبرة بدت مختلفة: "شباب.. أريد أن أعترف لكم بأمر يخص حياتي الشخصية، أنا أثق بكم."

قاطعه جيوفاني بصوتٍ حاد كالشفرة، جعل الهواء يتجمد في الغرفة:

"لا تفعل.. لا تخبرنا بشيء. أنا لا أثق حتى بنفسي يا رايدر، وحياتك الشخصية لا تهمنا ولن تهمنا أبداً. تذكروا جميعاً هذه النقطة: نحن هنا مجرد زملاء عمل. لكل منا حياته، لسنا أصدقاء ولا مقربين.. نحن فقط شركاء في المصالح والدم. لا تنسوا ذلك أبداً."

سقطت كلمات جيوفاني كحجرٍ ثقيل في بئر الصمت، لتذكرنا أن الضحكات التي تشاركناها قبل قليل لم تكن سوى قشورٍ فوق بركانٍ من الوحشية.

ساد الصمت الثقيل في الغرفة، نتبادل نظراتٍ مشحونة بالانكسار. كان جيوفاني محقاً، لكن حقيقته كانت مُرة كالعلقم؛ ففي اللحظة التي شعرتُ فيها أنني وجدتُ عائلة، جاءت صفعته لتعيدني إلى رشدي. نحن بيادق في رقعة شطرنج دموية، والمشاعر هي الثغرة التي قد تؤدي لموتنا جميعاً.

في الثالثة والنصف فجراً، استقام جيوفاني في وقفته وقال باختصار: "هيا.. حان وقت الرحيل."

حملنا حقائبنا الثقيلة بالأسلحة والذكريات المزعجة، واتجهنا نحو الطائرة الرابضة في مخبئها السري. طوال الرحلة، كان الصمت هو سيد الموقف؛ كلما حاولتُ فتح موضوعٍ ما، يتردد صدى كلمات جيوفاني في عقلي: "مجرد زملاء عمل". لم يظهر أحدٌ منا أثراً للضعف، لكن العيون كانت تفيض بأسىً مكتوم، وكأننا غرباء نتقاسم هيكلاً معدنياً طائراً.

وصلنا المقر في السادسة صباحاً. كان ماركو في انتظارنا، والبهجة تقفز من عينيه بنجاح العملية، لكنه تجمد حين رأى وجوهنا الجامدة: "ما بالكم؟ لماذا تبدون وكأنكم عائدون من جنازة لا من نصرٍ مؤزر؟"

لم يجبه أحد؛ مررنا بجانبه كالأشباح ودخلنا المقر بصمتٍ جنائزي. صعدتُ لغرفتي، ألقيتُ حقيبتي جانباً وارتميتُ على السرير، لكن النوم جفاني. كلمات جيوفاني كانت تنهش قلبي؛ اللعنة عليه، هو يدرك أنني لا أملك سواهم وساندرا، ومع ذلك، أعلن استعداده للتخلي عنا في أي لحظة تقتضيها المصلحة.

طُرق الباب.. إنه رايدر، من غيره يملك هذه الطاقة المزعجة؟ دخل وجلس دون استئذان: "ألن تنامي؟ الشباب مجتمعون في القاعة نتبادل أحاديث المغامرة، هيا.. الجو ممتع!"

زفرتُ بملل: "اخرج يا رايدر، أنا منهكة."

ابتسم بتفهمٍ غريب وخرج. وحين بدأ جسدي يسترخي وأوشكتُ على الغرق في النوم، عاد الطرق المزعج مجدداً. تجاهلتُه، لكنه استمر بإلحاحٍ أخرجني عن طوري. فتحتُ الباب بصرخةٍ غاضبة: "واللعنة يا رايدر! قلتُ لا أريد!"

لكنه لم يكن رايدر؛ كان لوكا. ابتسم بهدوئه المستفز وقال: "آسف.. لكن الشباب أرسلوني كـ 'محاولة أخيرة'، بصفتي زوجكِ طبعاً!"

قلبتُ عيناي بحنق: "لا تكرر هذه الكلمة مجدداً أيها الـ..."

توقفتُ فجأة حين تذكرتُ تهديده الأخير وتحذيره من نعتِه بالوغد. اقترب مني ببطء وأنا أتراجع للخلف لا إرادياً، وسأل بنبرةٍ لعوبة: "أيها الماذا؟ أكملي!"

ابتسمتُ ببلاهة محاولةً تدارك الموقف: "أيها الشاب.. الخلوق، الوسيم، النبيل!"

ضحك لوكا بخفة وتراجع خطوة للوراء، ففشلتُ في كتم ضحكتي أنا أيضاً. حين رأى ابتسامتي، قال بنبرةٍ دافئة: "بما أنكِ ضحكتِ أخيراً.. فهذا يعني أنكِ ستنزلين معنا. هيا، الجميع ينتظركِ في الأسفل."

بمجرد أن تذكرتُ كلمات جيوفاني، خفت بريق عينيّ وأطرقتُ رأسي بحزنٍ لم أستطع مواراته. هنا، وبحركةٍ لم أتوقعها، رفع لوكا وجهي بإصبعيه حتى التقت نظراتنا. ولأول مرة في حياتي، لم أكسر يد شابٍ تجرأ على لمسي؛ بل استسلمتُ لصوته الدافئ وهو يهمس:

"هل لا تزال كلمات جيوفاني تنهش في عقلك؟ لقد آلمنا الأمر جميعاً، لكن لا تظني أنه لم يتأثر. هو القائد، ومن واجبه تذكيرنا بقوانين هذه الغابة.. التعلق ضعف يا سيليست، ونحن لا نعرف متى قد نفقد أحدنا، لذا من الأفضل ألا نترك قلوبنا تنجرف.. حسناً؟"

أبعدتُ يده عن وجهي بابتسامةٍ ساخرة: "أتظن أنك واسيتني؟ لقد زدتَ الطين بلة بكلامك هذا."

ردّ بنبرة طفولية لم أعهدها فيه: "هيا يا سيليست! لم أكن أعلم أن خلف هذا الحديد قلباً يحبنا ويحزن لأجلنا! هل يعني هذا أنكِ تعلقتِ بنا حقاً؟"

"الأمر ليس هكذا.. أبداً!"

كادت عبراتي أن تفضحني، فحبستها بقوة وقلتُ متلعثمة: "فلننزل للشباب، لقد أطلنا الغياب."

مدّ يده لي، وبدلاً من سحبي للباب، جذبني نحو صدره في عناقٍ مباغت وهو يتمتم: "هذه سيليست التي أعرفها.. صلبة كالماس و.."

انفتح الباب فجأة كقذيفة؛ إنه جيوفاني. تجمد في مكانه وهو يرانا في هذا الوضع الحميم. لم تكن في عينيه ذرة مزاح، بل كان غضباً حقيقياً وهو يسأل بجمود: "ماذا تفعلان؟ هل تزوجتما فعلياً خلف ظهري؟"

ابتعدتُ عن لوكا بارتباك، لكنني سرعان ما استعدتُ برودي ووجهتُ اللوم إليه: "كله بسببك أيتها اللعنة! في كل مرة أشعر فيها بالأمان وسطكم، تدفعني بقوة نحو الصفر لتذكرني بوحدتي وظلماتي. أنت عديم الإحساس يا جيوفاني!"

كنتُ سأغادر الغرفة، لكنه أمسك كتفي وأدارني نحوه بقوة، ثم وبحركةٍ أذهلتني، سحبني إلى حضنه هو الآخر، هامساً فوق رأسي: "أنا آسف.. لم أقصد جرحكِ، لكنه الواقع المر الذي يحمينا جميعاً."

بينما كنتُ غارقة في صدمة عناق جيوفاني، لمحتُ لوكا يراقبنا بانزعاجٍ واضح. تقدم الأخير وفصل بيننا بحدة قائلاً: "فلتحترم نفسك أيها السيد.. إنها زوجتي!"

وقف جيوفاني نداً له، وبنظرةٍ متحدية ردّ: "كان ذلك في إيطاليا.. أما هنا، فهي ملكي أنا!"

تسمرتُ مكاني، أشعر كأنني بطلة في فيلم رومانسي مظلم، وقلتُ بذعر: "هل أنتما جادان؟ هذا التنافس مخيف.. توقفا!"

وفجأة، انفجر كلاهما بالضحك! جيوفاني وهو يربت على كتف لوكا: "أنت ممثل بارع حقاً!"

ردّ لوكا بضحكة مماثلة: "وأنت لا بأس بك.. لنذهب لاختبار أداء في 'هوليوود' وسنصبح مشهورين!"

نظرتُ إليهما بذهول محاولةً استيعاب تقلباتهما المزاجية: "قلة النوم أذهبت عقولكم يقيناً!"

مدّ جيوفاني يده اليمنى لي، وفعل لوكا المثل بيده اليسرى.. يدان ممدودتان، وعيونٌ تنتظر اختياري. لكنني، بكل بساطة، مررتُ من بينهما متجاهلةً كليهما بكبرياء، ونزلتُ الدرج وهما يلحقان بي بضحكات مكتومة، لنجلس مع البقية وكأن شيئاً لم يكن.

جلسنا جميعاً في القاعة، وما إن استقر بنا المقام حتى نهض رايدر بحماسه المعتاد، يلوح بيديه وهو يروي مغامراتنا في إيطاليا بأسلوبٍ مسرحي:

"لو رأيتم سيليست! لقد كانت 'مارلين روفيري' الحقيقية، فاتنة ومثيرة لدرجة لا تُصدق. أوقعت أندرو في شباكها بلمشة بصر، لدرجة أن براين فقد صوابه وأعلن إعجابه بها، حتى أن جيوفاني فكر في خطبتها له!"

انفجر الجميع بالضحك، بينما غطى الخجل وجه براين الذي تمتم بارتباك: "هذا ليس صحيحاً! رايدر، أغلق فمك اللعين!"

لم يتوقف رايدر، بل زاد في غيّه: "لا تنكر يا براين! حتى أنا شخصياً كنتُ سأقع في حبها لولا أنني أعرف وجهها الآخر.. لو رأيتموها بذلك الفستان الأسود، كانت ملكةً للجمال!"

رد براين محاولاً الدفاع عن نفسه: "إذاً فليخطبها جيوفاني لك فأنت أكثرنا إعجاباً بها!"

نفى رايدر بذعر مصطنع: "كلا يا أخي، أنا أخاف منها! نعم كانت مثيرة لعدة ساعات، لكنني رأيت كيف طعنت تينك الفتاتين.. لقد تحولت لبركان من الغضب، وحقيقتها مخيفة يا رجل!"

علقتُ بسخرية لاذعة: "وكأنني سأرضى بـ 'عداء كلاب' مثلك يا رايدر! اجلس واهدأ قليلاً."

هنا تدخل فيليكس، عبقري التقنية، متسائلاً بزهو: "المهم، هل أعجبتكِ السماعات والساعة البرمجية يا سيليست؟"

أجبتُه بحرجٍ حاولتُ إخفاءه بابتسامة: "لا تذكرني بتلك الساعة يا فيليكس، كادت أن تنهي مسيرتي المهنية قبل أوانها!"

تعالت ضحكات جيوفاني ولوكا وبراين وهم يتذكرون الموقف، بينما بقي فيليكس مذهولاً: "وكيف ذلك؟ لقد زودتها بأحدث تقنيات التشفير والخصوصية!"

قلتُ بقلة حيلة: "المشكلة لم تكن في اختراعك، بل في 'ذوقي الموسيقي'. اكتشفتُ أن الساعة تحتوي تطبيقاً للأغاني، فشغلتُ أغنيتي المفضلة، وعندما حان وقت تسجيل اعترافات أندرو، وبدلاً من ضغط زر التسجيل الأحمر.. أطلقتُ الأغنية بصوتٍ صاخب وسط هدوء الحفلة!"

أكمل رايدر وهو يغصُّ بضحكه: "والجزء الأروع أن الأغنية كانت صاخبة تماماً ولا تناسب أجواء النخبة هناك! لو رأيتم وجه سيليست في تلك اللحظة.. كانت تبدو غبية بشكلٍ فريد!"

رددتُ عليه بسرعة قبل أن يتمادى: "على الأقل أغنيتي لم تجلب لي 'جيشاً من الكلاب'! ما قصة تلك الكلاب التي ظننتك قطعة لحم مشوية يا بطل؟"

ضحك الجميع حتى دمعت أعينهم حين روى رايدر كيف طاردته كلاب ميلانو بسبب رائحة السمك المشوي، وكيف نفذ بجلده بأعجوبة. علق ماركو ساخراً: "أرسلناكم لتنفيذ مهمة سرية، فصنعتم فيلماً كوميدياً!"

تحدث باولو، الحكيم كعادته، مفسراً حالة الضحك الهستيري: "هذا طبيعي؛ في المهمة كنتم تحت ضغطٍ هائل وتوترٍ خانق لإنجاح العملية، أما الآن، فقد فزتم وارتخت أعصابكم، لذا تبدو كل الأخطار السابقة نكاتاً طريفة."

ومع بزوغ أولى خيوط الشمس، استعاد باولو نبرة الجدية: "يا رفاق، أنتم الخمسة.. نظام نومكم في دمار شامل. الساعة الآن الثامنة صباحاً، اذهبوا فوراً لغرفكم، ولا أريد رؤية وجوهكم قبل الرابعة عصراً. عدلوا منبهاتكم وناموا بعمق.. هذا أمر!"

نهضنا نحن الخمسة بتثاقل، نجر أذيال التعب والضحك، واتجهنا لغرفنا لنستسلم لأحلامٍ قد تخلو أخيراً من صور الرصاص والدماء.

أمسكتُ هاتفي بهزال، كانت "ساندرا" على الطرف الآخر كعادتها، لا تقبل الرفض:

"ماذا تريدين؟" سألتُها بصوتٍ مخنوق.

"أين أنتِ؟ تعالي.. أنا مشتاقة إليكِ حقاً!"

"كلا، طاقتي نفدت.. يجب أن أنام."

"إذًا تعالي ونامي هنا.. معي!"

"أنا متعبة لدرجة أنني لا أستطيع الإمساك بالمقود، لن أقود السيارة."

"لا بأس، سآتي لآخذكِ الآن!"

"اتفقنا.. سأنتظركِ، حين تصلين إلى الباب اتصلي بي وسأنزل فوراً."

أغلقتُ الهاتف واستسلمتُ لانتظارٍ يغلبه النعاس، وما هي إلا دقائق حتى اهتز الجهاز في يدي: "هيا انزلي، أنا أمام البوابة!".

ارتميتُ في سيارة ساندرا، وجفوني تكاد تنغلق رغماً عني. لم أهتم حتى للتغييرات الكبيرة التي أجرتها على القصر أو الأثاث الجديد الذي كانت تتباهى به بحماس؛ كل ما كنتُ أراه هو سريري. حتى "مايا"، التي استقبلتني بعناقٍ مفاجئ واشتياقٍ لم أعهده، سمحتُ لها بذلك ببرودٍ ناتج عن الإرهاق، ومسحتُ على شعرها وكأنني أعتذر لها بصمت عما فعله والدها.

دخلتُ غرفتي، المكان الوحيد الذي لم تجرؤ ساندرا على لمسه، وغرقتُ في نومٍ عميق.. لكنه لم يدم.

أفقتُ على صوت مايا وهي تحاول إيقاظي. نظرتُ للساعة بخمول.. إنها الثانية ظهراً!

"ماذا تريدين؟ لم تأتِ الخامسة بعد!"

"ساندرا تقول إن حبيبها كريس سيأتي بعد قليل، ويجب أن تقابليه!" صرختُ بها حتى هربت من الغرفة وهي تنسى إطفاء الضوء: "أغلقي اللعنة واخرجي!"

لم يمر وقت طويل حتى جاءت ساندرا بنفسها. هذه المرة، لم تكتفِ بالحديث، بل حاولت سحبي من السرير. قذفتُها بالوسادة بقوة أسقطتها أرضاً: "ساندرا، انقشعي من هنا وإلا قطعتُكِ إرباً! الجحيم لكِ ولكريس الخاص بكِ!"

قالت وهي تتذلل بتمثيلية مضحكة: "أرجوكِ يارا، أريد الزواج منه، لا تجعليني أبدو كمهرجة أمامه!"

"تزوجيه أو اذهبي معه للجحيم، ما علاقتي أنا؟ انصرفي!"

خرجت وهي تتوعدني بالندم، فعدتُ للاختباء تحت اللحاف أحاول استجداء النوم مجدداً. وبينما كنتُ على وشك الغرق في الحلم الذي أنتظره، اهتز هاتفي بعنف. نظرتُ للشاشة بضيق.. إنه ماركو.

فتحتُ الخط بنبرةٍ غاضبة، لكن صوته كان حاداً وقاطعاً:

"تعالي حالاً!"

طارت فكرة النوم من رأسي في لحظة. صوت ماركو بهذا الحزم لا يعني سوى شيء واحد: الهدوء الذي ظنناه قد انتهى بانتهاء مهمة إيطاليا، لم يكن سوى الهدوء الذي يسبق عاصفةً أكبر في إسبانيا.

لم أكلف نفسي حتى عناء سؤاله عن السبب؛ أغلقتُ الخط في وجهه واستقمتُ بجسدٍ يترنح من الثقل. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر ولا زلتُ أطارد طيف النوم الذي لم يأتِ. ارتديتُ ملابسي ونزلتُ إلى قاعة الجلوس، لأجد ساندرا برفقة شابٍ غريب، يبدو أنه "كريس" المنشود. ابتسمت حين رأتني وقالت بزهو: "كريس، هذه يارا صديقتي التي حكيتُ لك عنها."

ابتسم هو ونهض ليصافحني، لكنني تجاهلتُ يده الممدودة وكأنها هواء، وقلت بلهجةٍ حادة: "ساندرا، أغلقي فمكِ وهاتي مفتاح سيارتكِ حالاً!"

تسمرت في مكانها من صدمة الرد، ونظرت لخجلها المنعكس في عيني حبيبها، فأضفتُ بصراخ: "هل فقدتِ سمعكِ؟ أسرعي!"

دخلتْ لتمتثل لأمري، فالتفتُّ نحو كريس الذي تجمد مكانه، وقلت بنبرةٍ جنائزية: "اعتني بها ولا تؤذها.. لو علمتُ يوماً أنك أحزنتها، فسيكون ذلك آخر فعل ترتكبه في حياتك!"

رأيتُ الرعب يغزو ملامحه، ويديه تبدآن بالارتجاف قبل أن تعود ساندرا بالمفتاح. خطفته منها وخرجتُ كالبرق نحو المقر.

دخلتُ القاعة وأنا أدير المفتاح حول إصبعي ببرود، فوجدت السبعة بانتظاري. ألقيتُ تحيةً مقتضبة وجالت عيناي تبحث عن مكانٍ شاغر، لكن القاعة كانت ممتلئة. وقفتُ مكاني وسألت: "ما الأمر يا ماركو؟"

أجابني بوقار: "جيوفاني سيطلعكِ على كافة التفاصيل."

التفتُّ نحو جيوفاني، وهنا حدث أمرٌ مريب؛ تنحى هو ولوكا في اللحظة ذاتها، وبصوتٍ واحد قالا: "تعالي اجلسي!"

كانا يفسحان لي مكانين متقابلين بجانبهما. شعرتُ بالارتباك يغزوني؛ هل ألبي دعوة لوكا "زوجي المزيف"، أم أجلس بجوار القائد جيوفاني؟ لاحظتُ أنفاس الأعضاء المحبوسة ونظراتهم التي تتنقل بين الثلاثة بذهول. تداركتُ الموقف بسرعة وقلت: "سأبقى واقفة.. جيوفاني، أخبرني تفاصيل ماذا؟"

استعاد جيوفاني نبرته السلطوية وقال: "بسبب سحقنا لمافيا أندرو الإيطالية، نشأ تحالف دولي ضدنا يضم مافيات من دول مختلفة. لذا، سأكلف كل واحد منكم بمهمة.. لنتجتمع فوراً في القبو!"

تحلقنا حول الطاولة الضخمة تحت ضوء القبو الخافت، ليوزع المهام:

"فيليكس، إليك ملفات الأعداء؛ اخترق أنظمتهم، استخرج نقاط ضعفهم، وحلل استراتيجياتهم. ماركو، عزز الدفاعات واستعد لرد صاعق في حال الهجوم. لوكا، ستقوم بتطوير تكتيكاتنا الميدانية بناءً على بيانات فيليكس. أما باولو، فمهمتك السهر على راحة الأعضاء وتوفير غذاء صحي ونوم كافٍ لهم."

سكت جيوفاني، فسألتُ بترقب: "وماذا عني؟ ما هي مهمتي؟"

رد بجمود: "سننتظر ما سيأتي به فيليكس، وبناءً على خطورة الموقف سنحدد دورك."

هممتُ بالرد، لكن خانتني قواي وتثاءبتُ تثاؤباً طويلاً حتى اغرورقت عيناي بالدموع، وقلت بضعف: "ولكن.. لا تكلفنا بمهام صعبة."

راقبني باولو بتمعنٍ شديد بينما كان جيوفاني يكمل حديثه، ليقاطعه باولو فجأة بصوتٍ مليء بالشك: "سيليست، أنتِ لم تنامي.. أليس كذلك؟"

قلتُ في نفسي "سيقتلني إن عرف الحقيقة"، فأجبتُ بكذبٍ مفضوح: "بلى.. نمت."

زمجر باولو بغضب: "جيوفاني، أنا لا أصدقها! اسمح لي بإجراء تحليل سريع لها!"

نظر إليّ جيوفاني بحدة أرغمتني على إنزال رأسي والاستسلام: "كلا.. لم أستطع النوم."

انتفض باولو وأمسكني من كتفي بصرامة: "تعالي معي أيتها المتهورة، سأعطيكِ مسكنات أعصاب تجبركِ على النوم الآن!"

اقتادني باولو إلى غرفتي بحزم، وقدم لي تلك الحبوب التي لم أملك قوة لمقاومتها. تمددتُ على السرير بينما هو يُغلق الستائر ليحجب ضوء العالم عني، وما إن أُغلق الباب حتى غصتُ في نومٍ عميق لم أعرف له مثيلاً.

فتحتُ عينيّ بتكاسل، وشعرتُ للمرة الأولى بأنني أفقتُ من تلقاء نفسي دون صراخ ساندرا أو إزعاج الشباب. أمسكتُ هاتفي لأرى الوقت، وصعقتُ حين وجدتها العاشرة صباحاً! لقد نمتُ حتى صباح اليوم التالي.. يبدو أن مخدر باولو كان بمثابة رصاصة رحمة لأعصابي المنهارة. رغم الصدمة، شعرتُ براحة غريبة تسري في جسدي، ولم أرغب في مغادرة الفراش فوراً، فبدأتُ أعبث بهاتفي حتى رأيتُ مكالمة فائتة من ساندرا، فأعدتُ الاتصال بها.

"هاي ساندرا، ماذا هناك؟" سألتُ بنعاس.

"أنا أحتاجكِ هنا حالاً!" أجابت بنبرة ملحة.

"لن آتي، لذا لا تحاولي."

"لكنه أمر يخص أختكِ!"

"لقد سلمتُ أمرها لكِ بالفعل، تصرفي أنتِ."

"ولكنني أحتاجكِ فعلاً.."

"قلتُ لن آتي، لما لا تفهمين؟ اللعنة!"

زفرت ساندرا بغضب: "حسناً أيتها الـ... سوف أتصرف بمفردي، ولا تظني أنني نسيت ما فعلتِه بي أمام كريس!"

"فلتذهبا للجحيم أنتما الاثنين، لا يهمني الأمر."

"حسناً يارا، حسابنا حين تأتين.. ولكن متى ستشرفيننا المرة القادمة؟"

"لا أدري، سأتصل بكِ حين أقرر."

"لا تتأخري، نحن بحاجتكِ."

"أوك لن أفعل، هيا اذهبي الآن أريد الاسترخاء قليلاً."

"لكنكِ أنتِ من اتصل بي أولاً!"

"هههه كاذبة، أنتِ من فعلتِ وأنا أعدتُ الاتصال."

"هههه حسناً، إلى اللقاء."

أغلقتُ الخط ورميتُ الهاتف جانباً، وعدتُ لمناظرة السقف بشرود. بدأتُ أسترجع أحداث الأمس.. ما خطب لوكا وجيوفاني؟ يتصرفان بغرابة شديدة، وكأنهما في حلبة صراع خفية للحصول عليّ. هذا التنافس يجعلني أشعر بتوترٍ لا أحتاجه الآن، اللعنة عليهما وعلى ألعابهما الذهنية.

نهضتُ أخيراً ودخلتُ الحمام، نظرتُ إلى انعكاسي في المرآة وضحكتُ بسخرية؛ كنتُ أشبه بالمهرج الحزين، ورائحتي كانت لا تُطاق. قررتُ الاستحمام، وبعد أن انتهيتُ وارتديتُ ملابسي وجففتُ شعري، بدأتُ أشعر بأنني "إنسانة" مجدداً. بحثتُ عن عطر، ولم أجد سوى ذلك العطر الذي اشتراه لي لوكا في ميلانو. أخذتُ الزجاجة ورششتُ منها، فانتشرت الرائحة لتعطيني إشراقاً وجاذبية لم أتوقعهما.

وضعتُ علبة سجائري في جيبي، وأشعلتُ واحدة منها وأنا أنزل الدرج بخطواتٍ واثقة. توجهتُ مباشرةً إلى المطبخ، حيث كان الخدم يعملون بنشاط، فنفثتُ الدخان من فمي وقلتُ بنبرةٍ آمرة:

"أعدوا لي وجبة دسمة.. لم يتذوق جوفي شيئاً منذ يومٍ كامل!"

خرجتُ إلى قاعة الجلوس، لكن الصمت كان سيد المكان؛ لا أثر لأحد. التهمتُ وجبتي بنهمٍ أمام التلفاز، ثم اتجهتُ للحديقة لأنفث دخان سيجارتي وأنا أتساءل عن سر هذا الاختفاء المفاجئ. هل يعقل أنهم لا يزالون نائمين؟ سألتُ الخادم الذي انحنى باحترام: "أين الجميع؟"

"سيدتي، لقد منحهم السيد جيوفاني عطلة اليوم، وعاد كل منهم إلى منزله."

أومأتُ له وعدتُ للداخل، لكن الملل بدأ يتسلل إلى أعصابي. تجولتُ في الفيلا وكأنني أستكشفها للمرة الأولى. صعدتُ للطابق العلوي، مررتُ بغرفهم المغلقة بإحكام؛ نعم، "الزملاء" لا يثقون بأحد حتى في عقر دارهم. توقفتُ أمام غرفة كارولين؛ كانت صورتها المعلقة على الباب تطعن قلبي بحزنٍ دفين. تمنيتُ لو كنتُ معها في تلك اللحظة المتهورة، ربما كنتُ أنقذتها من حماقتها. لا زال السؤال يراودني: "لماذا خاطرت بكل شيء للانتقام من أندرو؟ ماذا فعل لها لتدفع حياتها ثمناً؟"

واصلتُ صعودي حتى الطابق الأخير، ذلك الركن المنفي من الفيلا. وجدتُ غرفةً جديدة لم ألحظها من قبل، كانت مغلقة كبقية الأسرار التي يحرسها جيوفاني. تذمرتُ بداخلي: "جيوفاني.. أيها الغامض، كم من الأسرار تخفي خلف تلك الأبواب؟"

عدتُ لغرفتي، لكن رسالة من ساندرا قطعت حبل أفكاري: "إنه عيد ميلاد أختكِ يا حمقاء! أقمتُ لها حفلة، شرفينا بحضوركِ من فضلكِ."

ضربتُ رأسي بيدي بزفرةٍ غاضبة. أعياد الميلاد بالنسبة لي ليست سوى ذكرى لبداية جحيمي الخاص، خاصة ميلاد مايا. فكرتُ في التجاهل، لكنني وجدتُ نفسي أحمل محفظتي وأقود السيارة في شوارع إسبانيا بحثاً عن هدية.

دخلتُ محلاً وردياً يعج بالأشياء الأنثوية الرقيقة، لكنني شعرتُ بالغربة هناك؛ لم أجد شيئاً يشبهني أو يروق لي تقديمه، بل إنني لا أعرف حتى إن كانت مايا في الثامنة أم التاسعة من عمرها! خرجتُ خالية الوفاض، وبينما كنتُ أقود بلا وجهة، وقعت عيناي على المكتبة القديمة.

تلك المكتبة كانت ملاذي قبل أيام السجن. تعرّف عليّ المالك العجوز ورحب بي بحرارة متسائلاً عن غيابي الطويل، فاكتفيتُ بابتسامةٍ غامضة تُخفي خلفها سنوات القضبان. تجولتُ بين الرفوف أستنشق رائحة الورق، وهنا لمعت الفكرة في رأسي. لن أهديها دُمى أو ملابس وردية، بل سأهديها "عقلاً".

انتقيتُ مجموعة من الكتب القيمة التي تليق ببناء ثقافة فتاة صغيرة، وطلبتُ من المالك وضعها في صندوقٍ أنيق وتزيينها كهدية تليق بالمناسبة. دفعتُ الحساب وخرجتُ، متجهةً نحو المنزل لمواجهة الماضي والاحتفال بميلادٍ يذكرني بكل ما فقدت.

ترجلتُ من السيارة، وما إن فتحت الخادمة الباب حتى صفعتني أجواء الاحتفال؛ بالونات، زينة متناسقة، وضجيج أطفال يملأ المكان. ساندرا لم تترك ركناً إلا وزينته. توقفت العيون كلها عليّ، وكأن غريباً اقتحم عالمهم المثالي. لمحْتُ ساندرا مذهولة من حضوري، بينما انطلقت مايا كالسهم نحوي لتعانقني بقوة.

نزلتُ لمستواها، والهدية بين يديّ، وقلتُ بنبرة جافة أخفي خلفها حناناً دفيناً: "عيد ميلاد سعيد أيتها الشقية.. عامٌ آخر من إزعاجكِ لي قد مضى." غمزتُ لها وأنا أمسح على شعرها: "افتحي الهدية، لعلها تُهذب شقاوتكِ قليلاً."

جلست مايا بحماسٍ تحت مجهر أنظار المدعوين، وبدأت تمزق الغلاف. تلاشت ابتسامتها تدريجياً وهي تخرج الكتب واحداً تلو الآخر؛ "كيف أملك العالم بـ 10 خطوات"، "السيطرة على الهواجس"، "فن اللامبالاة"، و*"التحكم في الأحلام"*.

نظرت إليّ باستغراب طفولي وسألت: "يارا.. هل هذه الكتب مناسبة لعمري حقاً؟"

ابتسمتُ بغموض: "لا أدري.. اقرئيها وستكتشفين أن العالم لا يُدار بالدُمى."

تجاوزت مايا صدمتها بسرعة، وسحبتني من يدي لتعرضني أمام صديقاتها بتباهٍ: "انظروا.. هذه أختي الكبرى الرائعة التي حكيتُ لكم عنها." بدأت تشير بأصبعها الصغير لتعرفني عليهن: "سوزي، كلوديا، كايلي، وروبين."

تجمدت ملامحي حين وقع بصري على كايلي. تلاشت ابتسامتي وحلت مكانها نظرة القناص التي لا تخطئ. لاحظت ساندرا التغير المفاجئ، فاقتربت مني قلقة: "ما بكِ؟ لماذا تنظرين للفتاة وكأنكِ تستجوبينها؟"

همستُ في أذنها بصرامة: "أريد معلومات وافية حول هذه الفتاة.. سأوكل لكِ المهمة، لا تخذليني."

ثم، ولأكسر حدة التوتر، رفعت صوتي: "هاي.. لم تعرفيني على 'صيدكِ الثمين' حتى الآن!"

ابتسمت ساندرا بحماس وقادتني نحو الحديقة حيث كان كريس يقف. ما إن وقعت عيناه عليّ حتى شحب لونه وظهر الخوف جلياً في حدقتيه. ضحكتُ بخفة وقلتُ بسخرية: "لماذا اصفرّ وجهك هكذا؟ كأنك رأيت شبحاً.. لا تقلق، لستُ جائعة لأكلك اليوم!"

ضربت ساندرا كتفي وهمست بيأس: "لا تخجليني أيتها اللعينة! أريد الزواج من هذا الرجل."

قلبتُ عيني بملل: "سأوقعه في شباكِكِ، لا تقلقي."

"أتمنى ألا تقصدي العكس!" قالتها ساندرا وهي تتركنا وجهاً لوجه: "كريس.. يارا، يارا.. كريس. تعرفا بهدوء بينما أهتم أنا بجيش الأطفال في الداخل."

بمجرد أن غادرت ساندرا، زفر كريس بارتياحٍ ملحوظ، وكأن الجلاد قد أزاح السكين عن عنقه قليلاً. قال بابتسامة محاولاً كسر الجليد: "لم تسنح لنا فرصة جيدة لنتعارف حقاً!"

سحبتُ سيجارتي وأشعلتُها ببرود، لاحظتُ دهشته من وقاحتي الهادئة، فأشرتُ له بيدي: "ابدأ أنت.. أرني ما لديك."

"أنا كريس براون، محامٍ في نفس مكتب ساندرا. تآلفت قلوبنا وتواعدنا، والآن.. نحن بصدد تحديد موعد الزفاف."

توقفتُ عن التدخين ونظرتُ إليه باستنكار: "زفاف؟ بهذه السرعة؟ على رسلك يا رجل، لن أوافق ببساطة، فأنا لم أعرفك بعد، ولن أفرط في ابنتي بسهولة."

"من ابنتكِ؟ أنا أريد الزواج من ساندرا!"

"بالظبط.. هي ابنتي، واصل."

"ولكن.. كم عمركِ أنتِ يا سيدة؟"

"لا دخل لك بعمري، هيا أنا أسمعك."

بدأ كريس يسرد "إنجازاته" وكأنه في مقابلة عمل مصيرية: "لدي سيارة فيراري.."

"لا أحبها.. أكمل."

"لدي منزل خاص، مساحته تقترب من مساحة هذا القصر."

"راتبك؟"

"20 ألف دولار شهرياً."

"مبلغ متواضع وبسيط.. وماذا عن عائلتك؟"

"أنتِ تزعجينني على فكرة!" قالها بضيق مكتوم، لكنني تجاهلته تماماً، فواصل: "لدي أخ واحد يكبرني بثلاث سنوات، ووالداي توفيا في حادث."

توقفتُ عند نقطة "الأخ": "احكِ لي عنه، ماذا يعمل؟"

"اسمه لوكاس براون، رجل أعمال، عمره 30 عاماً."

"لحظة.. يعني أنك في السابعة والعشرين؟ أنت كبير جداً على ساندرا، المسكينة لم تتجاوز الخامسة والعشرين بعد!"

"ماذا؟ أكبر منها بسنتين فقط! ما خطبكِ؟"

"لا يهم.. أكمل، ما هي أصولك؟"

"إسبانية كورية. ملامحي إسبانية لكن أخي ملامحه كورية أصيلة."

"وما دخلي بملامح أخيك؟ عرفني بنفسك."

"أنا إنسان سوي، منظم، ومحترم."

"حسناً يا سيد 'احترام'.. سأرى إن كنت تناسب ابنتي أم لا، وحينها سأقرر مصير هذه العلاقة."

قبل أن يرحل، سألني بفضول قاتل: "كم عمركِ حتى تقولي أنها ابنتك؟"

"خمسة وعشرون.. أنا في عمرها، لكنني المسؤولة عن وجودها في هذه الحياة، لذا هي ابنتي.. ألديك مانع؟"

ابتسم بهزيمة: "أنتِ غريبة الأطوار حقاً يا يارا."

عادت ساندرا والفضول يكاد يقتلها: "إذاً؟ هل انسجمتما؟ وبماذا كنتما تتحدثان؟"

قلب كريس عينيه بيأس: "لقد أخذت مني كل المعلومات الممكنة لتقيمني وتقرر بمفردها إن كنا سنتزوج أم لا!"

نظرت إليّ ساندرا بنظراتٍ تتوعدني بالويل، وسألت بأسنان مطبقة: "وكيف كانت النتيجة يا يارا؟"

أطفأتُ سيجارتي ببطء وقلت: "مبدئياً.. يبدو مقبولاً. لكنني سأخضعه لبعض الاختبارات أولاً. لن تتزوجا 'على عمى'. أنتِ ابنتي وفي مسؤوليتي، ويجب أن أختار شريككِ بعناية."

تنهد كريس وهو يهم بالرحيل: "شريكها هي، لا شريككِ.. لماذا تعقدين الأمور؟"

قاطعته ساندرا بحدة ألجمته: "يارا تعرف ما تفعله، لا تعارضها من فضلك!"

ودّعنا كريس، فلوحتُ له بيدي قائلة: "أعجبتني.. ربما سأوافق على أن تكون صهري يوماً ما."

أشار لي بإبهامه موافقاً، وبعد أن أوصلته ساندرا وعادت إليّ، كنتُ أعلم أن "العاصفة ساندرا" على وشك الانفجار في وجهي.

وجدتني بصدد إشعال سيجارة أخرى، فزمجرت بضيق: "توقفي عن التدخين، رائحته تقتلني!"

تذكرتُ حينها أن ما أدخنه ليس مجرد نيكوتين عابر، بل صنف خاص من المخدرات القوية التي تهدئ وحشي الداخلي، فأطفأتها ببرود وقلت: "أتعلمين؟ إنها المرة الأولى التي أجري فيها حواراً طويلاً كهذا دون أن أتفوه بلعنة واحدة.. أعجبني كريس، مبدئياً هو مقبول."

تنفسْت ساندرا الصعداء: "هذا من حسن حظي إذاً."

سألتُها وأنا أتفرس في المكان الخالي: "هل غادر الجميع؟"

"أجل، ومايا في غرفتها ترتب الهدايا.. لقد أعادت هذه الحفلة الابتسامة الصادقة لوجهها أخيراً."

ربتُّ على كتفها بامتنان حقيقي: "الفضل كله يعود لكِ يا ساندرا.. أنتِ رائعة حقاً، ولا أدري كيف أشكركِ."

ردت بعاطفة أخوية: "لا تقولي ذلك، نحن إخوة، ومايا أختي الصغيرة التي لا تملني أبداً."

ابتسمتُ لها بمرارة طفيفة وأنا أفكر في القادم: "سأُكلف بمهمة قريباً ولا أدري متى سأعود، اعتني بمايا جيداً، لا تتركيها وحدها أبداً."

عانقتني بقوة وهي تطمئنني: "لا تقلقي، اذهبي وأنتِ بكامل تركيزك، فكل شيء هنا تحت السيطرة."

ثم أردفت باستغراب: "تذكرت! لماذا طلبتِ معلومات عن كايلي؟ ولماذا هي بالذات؟"

أجبت بجمود لا يقبل النقاش: "لا شيء.. فقط افعلي ما طلبت، وأريد المعلومات على هاتفي غداً كأقصى حد."

دخلنا القاعة، وبدأ جوعي يفرض نفسه: "ألا يوجد طعام هنا؟"

سألتني ساندرا عما أريد، فقلت بكل ثقة: "الباستا!"

بينما كان الخدم يجهزون طلبي، أتت مايا وارتمت في حضن ساندرا قائلة بدلال: "هدية ساندرا هي الأجمل، وهدية يارا هي الأسوأ على الإطلاق!"

أصدرتُ صوتاً ساخراً (تشه): "أنتِ جاهلة لا تدركين قيمة تلك الكتب.. وما هي هدية ساندرا العظيمة؟"

"لقد غيرت ديكور غرفتي بالكامل، جعلتها كقصر أميرة من ديزني! ساندرا هي الأفضل."

قلتُ بسخرية: "تبلين حسناً في سرقة قلوب الفتيات يا ساندرا.. حسناً يا مايا، بما أن ساندرا هي الأفضل، فلن آتي لزيارتكِ مجدداً!"

ارتمت مايا عند قدمي تمسك يدي بذعر: "لا.. لم أقصد! أتعلمين؟ أنتِ أحضرتِ لي أفضل هدية؛ لقد جعلتِ ساندرا أختي، وهذا أعظم ما حدث معي."

ضحكتُ بخفة، وشعرتُ بدفءٍ غريب: "يعجبني هذا الترابط، واصلا على هذا المنوال."

التهمتُ الباستا بنهم حتى شبعت، وكالعادة، اخترق رنين هاتف "ماركو" لحظات السكينة. أشرتُ لهما بالصمت وأجبت، فجاء صوته المختصر: "سيليست.. المقر حالاً."

وقفتُ بآلية: "أنا ذاهبة، لكن اللعنة.. لم أحضر سيارتي! ساندرا، أوصليني وعودي بسيارتك."

أصرت مايا على مرافقنا، فانطلق ثلاثتنا نحو المقر. توقفت ساندرا بعيداً عن أعين كاميرات المراقبة، وحين هممتُ بالنزول، سألت مايا بخوف: "إلى أين تذهبين؟ المكان مقفر ومظلم جداً!"

"إنه عملي يا صغيرة."

"وماذا تعملين؟"

غمزتُ لها بابتسامة غامضة: "لا دخل لكِ.. استمتعي بكتبكِ." ثم تركتُهما واتجهتُ نحو عرين الأسد.

دخلتُ المقر بخطواتٍ واثقة، وما إن طرقتُ الباب حتى استقبلتني الخادمة بملامح جادة قائلة: "سيدتي، الجميع في القبو بانتظاركِ."

نزلتُ الدرج المؤدي إلى القبو حيث يسكن الغموض، وسألتُ بنبرةٍ يملؤها الضجر: "ما الأمر الآن؟"

أجابني جيوفاني وعيناه مثبتتان على الشاشات: "لقد اكتملت خيوط المعلومات، حان وقت التحليل." انصبّ تركيزنا جميعاً عليه حين أردف بابتسامة غامضة: "يبدو أننا اكتسبنا أعداءً من ثلاث قارات مختلفة.. يا له من إنجاز مميز."

استفسر ماركو باهتمام: "ما هي الدول المتورطة؟"

أجاب جيوفاني وهو يشير إلى الخريطة الرقمية: "في أوروبا، لدينا ألمانيا وفرنسا. وفي آسيا، تبرز روسيا، الصين، وكوريا. أما في القارة الأمريكية، فالمواجهة ستكون مع المكسيك، الولايات المتحدة، والبرازيل. والآن.. هل يمكن لأحدكم تخمين ترتيبهم من حيث القوة والخطورة؟"

رفع رايدر يده بحماس وقال: "الأمر بديهي؛ مافيات آسيا في الصدارة، تليها أمريكا، ثم أوروبا في المرتبة الأخيرة."

هزّ جيوفاني رأسه نفياً: "خطأ، لا تجعل الموقع الجغرافي ميزانك الوحيد.. من لديه رأي آخر؟"

رفعتُ يدي وحاولتُ ترتيبهم بناءً على حدسي وما أعرفه عن عالم الإجرام: "المركز الأول لروسيا، تليها الصين، ثم المكسيك، البرازيل، ألمانيا، الأرجنتين، وفي المركز السابع كوريا."

قاطعني جيوفاني بنبرة ساخرة: "وهل ذكرتُ الأرجنتين ضمن القائمة؟ لماذا أقحمتِها في الترتيب؟"

ارتبكتُ قليلاً وقلتُ: "أوه، لقد اختلطت عليّ الأسماء، دعني أعد الكرة."

"لا تفعلي، فترتيبكِ من الأساس بعيد تماماً عن الواقع."

تدخل لوكا لينهي حالة الجدل: "اقرأ الترتيب الحقيقي ودعنا من التخمينات."

اعتدل جيوفاني في وقفته وقال بجدية: "حسناً، سأبدأ من الأقل خطورة تنازلياً. المركز الثامن يذهب للمكسيك، وهذا لا يعني استضعافهم أبداً. المركز السابع للبرازيل، السادس لفرنسا، الخامس لألمانيا، والرابع للولايات المتحدة. أما الثلاثة الكبار؛ فالمركز الثالث لكوريا، والثاني لروسيا، والمركز الأول كأخطر عدو يتربص بنا يذهب للصين.. هل لديكم أي تساؤلات؟"

سأل لوكا باهتمام: "ما هي تخصصات كل واحدة من هذه المافيات؟ وما هو مجال نفوذهم تحديداً؟"

أومأ جيوفاني بتقدير: "سؤال ممتاز، وهذا هو لبّ موضوعنا!"

بالمكسيك: (كارتل سينالوا Cartel Sinaloa) واحدة من أكبر وأقوى كارتلات المخدرات في العالم يختص في تجارة الهيروين، الكوكايين والماريخوانا، أصلا هي المنبع الأصلي لهم.

بالبرازيل: (كوماندو فيرميلو Comado Vermilho) هذه المافيا مختصة منذ القدم بجرائم سرقتها العنيفة فهي تعيش وتكبر على ما تسرقه، لا يهم ما المسروق بقدر ما يهم ثمنه، فمن العادي جدا أن يسرقوا كلية شخص على قيد الحياة، أو شحمة أذن شخص بالشارع.

بفرنسا: (عائلة كورسيكا Corsican Mafia) هذه الدولة بحد ذاتها تمثل موطنا عالميا للشواذ، لذا فإن الدعارة هي من أهم ما تستغنى به، أيضا تجارة البشر، ليس الأعضاء البشرية وإنما البشر بحد ذاته، يبيعون الفتيات والشبان على حد سواء للسوق السوداء وهناك يصنعون منهم دمى جنسية يبيعونها بأثمان باهضة.

بألمانيا: (عصابة الضوء الأحمر Red light gang) الدعارة بألمانيا أيضا بها ربح كبير وسوقها عالمية لكن هذه المافيا تختص بغسيل الأموال، وتهريب السلع من البلدان المجاورة لها وتوزعها بأثمان باهضة للشركات بالبلدان النامية.

بالولايات المتحدة: (كوزا نوسترا cosa nostra) مصدر ثراء هذه المافيا وشهرتها هو القمار غير القانوني، ففي ليلة واحدة تستطيع إدحال مرابيح بميزانيات دول. أغلب زبائنها إيطاليين وفرنسيين.

بكوريا الجنوبية: (سونبي Seonbi) هذه المافيا تستمد قوتها من الأعمال غير القانونية كالمقامرة، الاستبزاز، العنف غير المشروع، الخطف، السرقة، النهب وغيرها من الأعمال الاجرامية المتعددة.

بروسيا: (الأخوة سولنتسيفو Solntsevskaya bratva) الجرائم الإلكترونية والابتزاز والمتاجرة بالمخدرات وتهريب الأسلحة والبشر هي اختصاص هذه المافيا، لكن المهمة الأشهر التي يقومون بها هي بينهم وبين المافيا الكورية سونبي حيث الكوريون يبيعونهم فتيات كوريات والروس يفعلون المثل بالفتيات الروسيات لأغراض جنسية وهو ما يسمونه التلاقح الثقافي.

بالصين: (ثلاثي النمور Triads) واحدة من أعرق واشهر منظمات الإجرام في التاريخ، أعمال هذه المافيا كارثية للغاية، أولا نبدأ بسبب تسميتهم بثلاثي النمور، لأنهم وببساطة يحظون بثلاث زعماء أو شركاء، الأول سن يي اون يهتم بالحصول على الأجنة البشرية الميتة ويبيعها فثمنها في السوق السوداء فاق المليار دولار، كما يعتبر طبق الأجنة البشرية بالصين معروفا للغاية ويحظى بإقبال مثير، وان لم يحصل على أجنة ميتة فاختطاف النساء الحوامل هو اختصاصه، الثاني شو يونغ تانغ تخصصه الفتيات المراهقات، ما بين 13 و 16 سنة، بعد اختطافهن يحقنهن بمادة تجعلهن تفرزن عددا هاما من البويضات، أكثر من المعتاد بخمس أضعاف، ثم يستخرج منهن البويضات ويبيعها للعقم على أنها بويضات سليمة، أما الفتيات التي يستخرج منهن بعد ذلك ستمتن طبعا، فيستفيد من أعضائهن السليمة ويبيعها بالسوق السوداء، الثالث تشي فونغ، يكسب في اليوم مبالغ خيالية فقط من خلال الاحتيال بشتى انواعه، فهو ممثل بارع ويسهل تصديقه.

"شباب علينا أخذ أكبر حذر مع هذه النمور الثلاث، فهي خطيرة حقا، هل من سؤال؟"

ساد صمت عميق بيننا، كأن الكلمات التي ألقاها جيوفاني لم تكن مجرد تكليفات عمل، بل كانت إعلاناً رسمياً عن دخولنا نفقاً مظلماً جديداً. قال جيوفاني بنبرة نهائية: "انتهى الاجتماع. أريد من كل منكم دراسة معمقة للمنظمة المكلف بها؛ رايدر سيتولى 'كارتل سينالوا'، براين 'كوماندو فيرميلو'، باولو 'عائلة كورسيكا'، ماركو 'عصابة الضوء الأحمر'، فيليكس 'كوزا نوسترا'، لوكا 'سونبي'، سيليست 'الأخوة سولنتسيفو' الروسية، وأنا سأتولى 'ثلاثي النمور' الصينية. انطلقوا، أريد تفاصيل التفاصيل.. حظاً موفقاً."

سأل ماركو بجدية: "متى الموعد النهائي؟"

رد جيوفاني وهو يغادر: "بعد غد. لديكم يوم الغد كاملاً للبحث، يُمنع الخروج من الفيلا، صبّوا تركيزكم على هذه الملفات. الآن، لننتظر العشاء ثم اخلدوا للنوم، فالعمل الحقيقي يبدأ غداً."

هممتُ بالخروج أولاً، لكن يد رايدر أوقفتني، وهمس بصوت خفيض: "تعالي معي، أحتاجكِ في أمرٍ هام." ثم أشار لبراين: "الحق بنا!"

اتجهنا إلى الحديقة وجلسنا أمام المسبح، حيث ينعكس ضوء القمر على الماء بسكون مريب. كسر رايدر الصمت قائلاً: "أعلم أن التوقيت سيء، لكن لغز كارولين ينهش فضولي. أخبرينا بأي تفصيل تعرفينه عنها؛ أنا وبراين لن نغلق ملف قضيتها حتى نجد تفسيراً منطقياً لما حدث."

رددتُ بهدوء: "لا أملك أسراراً خاصة عنها، وكنتُ سأسألكم نفس السؤال؛ فأنا أيضاً أريد كشف هذه الحقيقة."

هنا تدخل براين، وكان صوته مشحوناً بعتبٍ قديم: "الفريق لم يعد كما كان، نحن مشتتون منذ أمد."

سألتُه ببرود: "هل بدأ هذا الشتات منذ دخولي السجن؟"

انفجر براين أخيراً: "لقد بدأ الانهيار بتهوركِ أنتِ! لم تستمعي لأحد، استهلكتِ كميات ضخمة من المخدرات، وقتلتِ رجل شرطة بدم بارد، محطمةً خلفكِ خططاً كانت محبوكة بدقة. وبعد خروجكِ، عدتِ لتلقي باللوم علينا! يا لكِ من مغرورة لئيمة، ترفضين الاعتراف بما اقترفتِ وتزيدين الطين بلة في كل مرة. توقفي عن هذا الهراء ولنعد فريقاً واحداً كما كنا."

أكمل رايدر بنبرة أكثر هدوءاً لكنها أكثر إيلاماً: "حين دخلتِ السجن، أصبنا بصدمة، وبعد يومين اختفت كارولين لتعود إلينا جثة هامدة. تخيلي وقع الأمر علينا؛ أنتِ محكومة بالإعدام، وكارولين قُتلت بالفعل. لولا جيوفاني الذي هدأ روعنا ووجد الحلول؛ دفن كارولين وعوضها بفيليكس، واستطاع تقليص عقوبتكِ لعامين.. لولا ذلك لانهار كل شيء. حتى الآن، نحن نعيش آثار تلك الفاجعة، وفشلنا في مهمات كثيرة بسبب الحزن، وهذا ما دفع جيوفاني لمنعنا من التعلق ببعضنا.. لقد كان محقاً."

أنزلتُ رأسي، وشعرتُ بثقل الكلمات، ثم قلتُ بمرارة: "لماذا أحمل وحدي وزر كل شيء؟ كارولين هي من سببت الصدمة الأكبر، لكن لأنها ميتة، لا يطالها عتابكم، فصببتم جام غضبكم عليّ.. لقد تحملتُ حصتي وحصتها من اللوم وحدي."

تمتم براين بيأس: "أرأيتِ؟ لا زلتِ تصرين على أن تكوني على حق، وهذا ما يجعل التفاهم معكِ مستحيلاً."

تنهدتُ وحاولتُ العودة للموضوع الأساسي: "حسناً، لنتجاوز هذا الآن.. لماذا ذهبت كارولين للانتقام من أندرو بمفردها؟ ولماذا لم تخبركم؟"

أجاب براين: "هذا سرّ رحل معها، لكن.. اسألي باولو. كانت علاقته بها قوية جداً قبل تهورها."

سألتُ بوجوم: "ولماذا لم تسألوه أنتم؟"

"فعلنا، لكنه رفض الكلام."

"وهل سيجيبني أنا؟"

"لا أدري.. جربي، لن تخسري شيئاً."

سكتنا جميعاً، بينما كانت الأسئلة تتلاطم في رؤوسنا كأمواج هائجة، أسئلة ضخمة بلا إجابات مقنعة، تنهش ما تبقى من استقرارنا النفسي.

بينما كنتُ غارقة في حديثي معهما، اهتز هاتفي برسالة من ساندرا. فتحتُها بسرعة لأجد تقريراً صادماً عن كايلي: "الاسم: كايلي ماركيز. العمر: 9 سنوات. الوالدان: مجهولان. تعيش مع جدتها في فقر مدقع، وتعتمد على مساعدات مايا المالية. تاريخ الميلاد: 4 أبريل 2015."

تجمدت ملامحي، وشعرتُ ببرودة تسري في جسدي أثارت ريبة رايدر الذي سأل بقلق: "هل كل شيء على ما يرام؟"

أومأتُ برأسي دون كلمة، ونهضتُ مبتعدةً عنهما بضع خطوات. أشعلتُ سيجارة وبدأتُ أربط الخيوط بذهني المشتت: "هذه الفتاة نسخة مطابقة لكارولين.. هل هي أختها؟ أم قريبتها؟ ولماذا انتقمت كارولين من أندرو؟ وما سر الغرفة التي استحدثها جيوفاني مؤخراً؟" كل شيء في هذه الفيلا بات يتمحور حول موت كارولين المريب، وكأن الجميع يخفي حقيقة بشعة.

تأخر الوقت، وبقي براين ورايدر يراقباني بصمت حتى نادى ماركو معلناً وقت العشاء. دخلنا القاعة حيث كان جيوفاني يترأس المائدة كعادته ببروده المعتاد. جلسنا الثمانية، وأكلنا في صمتٍ ثقيل لم يقطعه سوى صوت الأطباق، لينتهي الاجتماع بجملة جيوفاني المقتضبة: "طابت ليلتكم.. ناموا جيداً."

اتجه الجميع لغرفهم، وبقيتُ أنا وحدي أصارع وحش الأرق الذي يطاردني منذ خروجي من السجن. تقلبتُ في سريري، غطيتُ وجهي بالوسادة، وحاولتُ جاهدةً إحصاء الخراف حتى وصلت للمئة، لكن دون جدوى. جسدي يستغيث للنوم، وعقلي يرفض الاستسلام.

خرجتُ إلى الشرفة، وأشعلتُ سيجارة أخرى أراقب سكون الحديقة المظلمة. لمحْتُ ظلاً يتحرك عند المسبح تحت الضوء الخافت؛ إنه لوكا. لم أكن في مزاج يسمح بمواجهته، فعدتُ لغرفتي وجلستُ على السرير أعبث بهاتفي، لتصعقني رسالة أخرى من ساندرا: "لقد حددتُ أنا وكريس موعد زفافنا.. أعلم أنكِ ستغضبين لأنني لم أستشركِ، لكن حدث أمر طارئ للغاية، سأخبركِ حين نتحدث."

شعرتُ بدمي يغلي في عروقي. كيف تتجرأ على اتخاذ قرار كهذا مع شخص لم تعرفه إلا منذ أسابيع؟ "يالها من متعجرفة!" همستُ لنفسي بغضب عارم. كانت الرسالة بمثابة القشة التي قصمت ظهر هدوئي؛ فلتتحمل مسؤولية تهورها، لم يعد الأمر يهمني!

عدتُ لمراقبة السقف، محاولةً ترتيب فوضى أفكاري التي لا تهدأ. مللتُ من الانتظار، فقررتُ استغلال الوقت في البحث. جلستُ أمام مكتبي، وفتحتُ الحاسوب بجدية، دخلتُ إلى محركات البحث الخاصة التي صممتها كارولين وطورها فيليكس. وضعتُ أصابعي على لوحة المفاتيح لأكتب اسم المافيا.. لكن، يا للمصيبة! لقد تبخر الاسم من ذاكرتي تماماً. دلكتُ فروة رأسي بإحباط، وبدأتُ أبحث في هاتفي عن أي شخص متصل؛ رايدر، براين، المجموعة بأكملها كانت في غياهب النوم.. باستثناء لوكا.

هل أسأله؟ ترددتُ كثيراً، ثم أخرجتُ رأسي من الشرفة، فرأيته لا يزال هناك، وحيداً بجانب المسبح. ناديته بصوتٍ خافت مراراً لكنه لم يسمع. وبدافعٍ من نزقي المعتاد، التقطتُ كتاباً ورميته بجانبه. قفز من مكانه فزعاً، فنظرتُ إليه وأشرتُ له بالاقتراب. وقف تحت شرفتي العالية، فأنزلتُ رأسي وسألتُه بلهجةٍ عملية:

"أي مافيا كلفني بها جيوفاني؟"

كان يلهث، وعلامات الصدمة والخوف لا تزال بادية على وجهه: "واللعنة عليكِ! كدتِ تقتلينني فزعاً! تمهلي حتى ألتقط أنفاسي!"

ضحكتُ باستهزاء: "هل تخاف من كتاب؟ ما أوهن قلبك!"

"تخيلي الموقف.. الرابعة فجراً، حديقة مظلمة، والحراس بعيدون، وفجأة يهبط عليّ كتاب من السماء! إنه أمر مرعب."

"لا بأس، ستكبر وتنسى.. أجبني الآن عن سؤالي!"

نظر إليّ مطولاً بصمت، ثم قال بنبرةٍ غيّرت مسار نبضات قلبي: "أنتِ جميلة جداً بملابس النوم هذه."

تجمدتُ مكاني. لم أعرف كيف أتصرف؛ هل أتجاهل الأمر؟ هل أظهر خجلي؟ أم أقفز من الشرفة لأبرحه ضرباً؟ رمقتُه بنظرةٍ حادة: "اللعنة عليك، أجبني وتوقف عن مغازلتي!"

"أنا لا أغازلكِ.. أنا فقط أقول الحقيقة."

"لوكا.. ولكن.. فقط.. أيها.. أجبني بسرعة!"

ضحك بخفة: "آه، حسنا! ما كان سؤالكِ إذاً؟ جمالكِ أنساني كل شيء."

"لوكا، توقف! ما خطبك؟ سألتك ما المافيا التي كلفني بها جيوفاني؟"

"أظنها.. الأخوة سولنتسيفو."

دخلتُ الغرفة فوراً دون أن ألتفت خلفي، وارتميتُ على السرير والخجل يصبغ وجهي باللون الأحمر. "لقد تغزل بي لوكا!" همستُ لنفسي بذهول. كيف يتغزل بي هكذا وهو الذي قال يوماً إنني لستُ نوعه المفضل، وأنه يفضل الرقة على القوة؟

ضربتُ وجهي بكفي بقوة لأستعيد وعيي: "تداركي نفسكِ يا خرقاء! ليس هذا وقت الحب أو المشاعر. العمل ثم العمل.. سيليست، تذكري من أنتِ!"

أنتِ الآن أمام شاشة الحاسوب، واسم "الأخوة سولنتسيفو" يلمع أمامكِ..

جلستُ أمام مكتبي بعزيمةٍ لا تلين، أقتحمُ عوالم "الأخوة سولنتسيفو". كانت معظم المعلومات مشفرة أو مضللة، لكنني لم أستسلم. استخرجتُ صورهم؛ أربعة أخوة في مقتبل العمر، يفيضون بالقوة والغموض. واصلتُ النبش حتى عثرتُ على "مطعم الأشقاء". صورٌ تتكرر للأخوة هناك في نفس اليوم والساعة من كل شهر. والمفاجأة؟ المطعم يقع هنا في إسبانيا! "ماذا يفعل الروس في بلادنا؟ وما سر هذا المطعم؟" كان لا بد من الذهاب لاستكشاف الحقيقة من مصدرها.

أشرقت شمس السادسة صباحاً، فغسلتُ تعب الليل بحمامٍ سريع، وارتديتُ سوادي المعتاد. نزلتُ للقاعة، وكان لوكا أول من وقعت عيناي عليه؛ بادلني بنظراتٍ هادئة وكأن اعتراف الفجر لم يحدث قط. جيوفاني، الذي كان يرتشف قهوته بوقار، سألني فور رؤيتي: "لماذا عيناكِ محمرتان هكذا؟"

رددتُ بابتسامة سخرية: "هل سحرتاك؟"

هز رأسه وهو يتناول قطعة بسكويت: "ليس بعد.. لكن الاحمرار يشي بالكثير."

"سهرتُ أعمل على بحثي."

"هل أنهيته؟" سأل بنظرةٍ فاحصة.

"ليس بعد، أحتاج للخروج اليوم لاستكماله؛ لقد اكتشفتُ أمراً يقتضي المعاينة الميدانية."

"لا خروج اليوم.. وإذا كان ولابد، فلا تذهبي بمفردكِ."

عرضتُ الأمر على الجميع؛ رايدر، براين، وماركو.. الكل اعتذر بسباق مع الزمن لإنهاء بحوثهم. وحين كاد جيوفاني أن يمنعني، تدخل لوكا فجأة: "يجب أن أخرج أنا أيضاً، لدي أمر طارئ يخص بحثي."

وافق جيوفاني أخيراً: "إذاً، اذهبا معاً وعودا قبل منتصف النهار."

تنفستُ الصعداء وشكرتُ "قائدي" بنبرةٍ ممتنة. صعدتُ غرفتي، جهزتُ حقيبتي، واتجهتُ نحو لوكا. عند السيارات، حاول إقناعي بالركوب معه، لكنني صممتُ: "اركب أنتَ معي."

انطلقنا، وبعد صمتٍ قصير سأل: "إلى أين نحن ذاهبون؟"

"مطعم الأشقاء.. هل سمعتَ به؟"

"كلا.. ولماذا المطعم في هذا الصباح؟ كان عليكِ الإفطار في المقر."

"لوكا، لا تتدخل في بحثي.. أخبرني أين تريد أن أوصلك؟"

ابتسم بمكر: "لن أذهب إلى مكان، ادعيتُ ذلك فقط لتتمكني من الخروج!"

نظرتُ إليه بذهول: "أوه.. شكراً لك، كنتُ بحاجة ماسة لهذه الفرصة."

"أخبريني الآن، ما سر هذا المطعم؟"

"لقد رصدتُ صوراً للأخوة الروس هناك أكثر من مرة.. يبدو أن المطعم هو مركز عملياتهم أو مكان لقاءاتهم السرية، ويجب أن نكتشف ذلك عن كثب."

وصلنا إلى "مطعم الأشقاء"، ركنتُ السيارة في مكانٍ يسمح لي بمراقبة المداخل بوضوح. حاولتُ النزول بمفردي، لكن الحارس اعترض طريقي ببرود: "عذراً سيدتي، الدخول يتطلب وجود مرافق.. رجل تحديداً."

زفرتُ بضيق: "تقصد حبيباً أو زوجاً؟"

"بالضبط."

عدتُ أدراجي نحو السيارة حيث كان لوكا يراقبني بتساؤل. شرحتُ له الموقف بحدة: "قوانينهم تافهة كعقولهم! هيا، انزل ومثّل دور الزوج لنتمكن من الدخول."

عدل لوكا هندام بدلته بزهو: "أنا زوجكِ فعلياً، أنسيتِ ذلك؟"

"كله تمثيل.. لا تندمج كثيراً!"

عبرنا البوابة وجلسنا في زاوية استراتيجية. لم تمر دقائق حتى قدم لنا النادل قائمة الطعام، لتتسع عينا لوكا ذهولاً: "انظري.. مطعم روسي يقدم أطباق 'الكيمتشي' والكوريين!"

همستُ له بينما كانت خيوط المؤامرة تتضح في عقلي: "الأخوة سولنتسيفو الروس يتحالفون مع 'سونبي' الكورية.. إنه تلاقح ثقافي إجرامي بامتياز!"

ضرب لوكا جبهته بخفة: "لقد كلفني جيوفاني بملف 'سونبي'.. هذه فرصتنا لضرب عصفورين بحجر واحد!"

بينما كان لوكا يلتهم أطباقه المفضلة بشراهة، انطفأت الأنوار فجأة وسُلط ضوء باهر فوق رُؤوسنا. تقدم منا رجلٌ ذو كاريزما مريبة؛ عرفتُه فوراً، إنه أحد الأخوة سولنتسيفو.

أمسك الميكروفون بابتسامة غامضة: "أجمل ثنائي لهذا اليوم هما أنتما! من أي بلاد جئتما؟"

أجبتُ بتوتر مصطنع: "أنا من أمريكا وهو من الصين."

"وكيف التقيتما؟"

"تطبيق للتعارف.. والآن نحن زوجان سعيدان ولدينا ستة أطفال!"

شهق لوكا بجانبي حتى كاد يختنق بلقمته، فرمقتُه بنظرة حارقة. وجه الرجل السؤال له: "وهل تحب زوجتك؟"

"أجل.. جداً!"

"وكم مضى على زواجكما؟"

"خمس سنوات تقريباً."

تعجب الرجل بسخرية: "ستة أطفال في خمس سنوات؟ يا لك من رجل!"

تلعثم لوكا، فتدخلتُ منقذةً الموقف: "لقد رُزقنا بتوائم! الأول، ثم توأم فتيات، ثم توأم ذكور، وفتى وأخيراً فتاة صغيرة."

صفق الجمهور بحرارة، وأعلن الرجل فوزنا برحلة لشهر كامل إلى روسيا وكوريا. وحين حاولتُ الاعتذار بحجة الأطفال، أصرّ بابتسامة مخيفة على منحنا ثماني تذاكر لنأخذ "الجيش الصغير" معنا.

عادت الأضواء، واقترب مني لوكا هامساً برعب: "ما هذه الكذبة الانتحارية؟ ستة أطفال؟"

رددتُ بهمس حاد: "الرجل الذي كان يقف أمامك هو أحد القادة الروس.. كان يجب أن نخرج من هناك بأي ثمن."

دفعنا الحساب واستلمنا التذاكر "الملعونة" بأيدٍ ترتجف قليلاً من هول الموقف، وخرجنا إلى هواء الليل البارد قبل أن يكتشف أحد أننا لا نملك طفلاً واحداً، فما بالك بستة!

أوقفتُ السيارة بعيداً عن المطعم، أتنفس بصعوبة وأحاول استيعاب فداحة الموقف، ليقاطعني لوكا بسؤالٍ باغت تفكيري: "هل تودين إنجاب ستة أطفال فعلاً؟ هل لهذا السبب اخترعتِ تلك الكذبة؟"

ضربتُ مقود السيارة بضيق: "كلا، لا تجعل تفكيرك محدوداً! لقد أخذتُ ثماني تذاكر لنتمكن من الذهاب جميعاً كفريق."

"آه، فهمتُ الآن.. يا لي من أحمق! لكن تُرى، ماذا يفعلون بمن يرسلونهم؟ هل يعودون أحياء أم يتم الاتجار بهم؟"

"لن نعرف إلا حين نذهب. لكن الأهم أنني اكتشفتُ وجود مافيا إسبانية محلية تدعم الروس والكوريين، وإلا لما تجرأوا على فتح هذا المركز في قلب بلادنا."

أومأ لوكا بجدية: "معكِ حق، تحديد هوية الحليف الإسباني هو أولويتنا الآن."

نظرتُ إلى الساعة؛ كانت العاشرة صباحاً، بقي لنا ساعتان قبل الموعد النهائي. وبينما كنتُ أهم بالعودة للمقر، اخترق رنين هاتفي سكون المكان؛ كانت ساندرا، وصوتها لا يقبل الجدل: "يجب أن نلتقي الآن! لا يهمني عملك، الأمر مسألة حياة أو موت!"

اتجهتُ للمنزل بسرعة جنونية جعلت لوكا يتشبث بمقعده ذعراً. عند وصولنا، رفض لوكا الدخول مفضلاً انتظاري في الخارج مع سيجارته، فدخلتُ وحدي لأجد ساندرا بانتظاري. ما إن بدأت تتحدث عن زفافها حتى قاطعتُها بصراخٍ مزق هدوء الغرفة: "هل أحضرتِني إلى هنا لتتحدثي عن هذا الهراء؟ تباً لكِ ولكريس! أخبرتكِ أنني اعتزلتُ التدخل في شؤونكِ، تحملي مسؤولية قراراتكِ وحدكِ!"

دمعت عيناها وصرخت في وجهي: "لماذا تصرين على الوقوف كعقبة في طريقي؟ كريس فتى صالح، وأنتِ ترين السوء في كل شيء لأنكِ لا تخالطين سوى المجرمين! لقد أصبحتِ مريضة نفسياً يا يارا."

نظرتُ إليها ببرودٍ قاتل وقلت: "أشكركِ لأنكِ تذكرينني دائماً بالفجوة بين عالمي وعالمكِ. كريس الذي تدافعين عنه قد يتخلى عنكِ في أول عاصفة، أما أنا فلن أفعل. لكنكِ اخترتِه هو، فليكن.. اذهبي إليه وودعي حمايتي."

انهارت باكية وهي تتوسل إليّ ألا أتركها تختار بين "أختها" و"حبيبها". كانت كلماتنا كالشظايا؛ هي ترى فيّ القسوة، وأنا أرى فيها السذاجة. "لقد فقدتُ الشغف بحمايتكِ يا ساندرا. استقالتي من دور 'المحامي الخاص' لكِ باتت نهائية.. ابحثي عن مستقبلكِ بعيداً عني."

حاولتْ منعي من الرحيل، تشبثت بيدي بضعف، لكنني أبعدتها بسهولة قائلة: "أنتِ ضعيفة جداً، وتحتاجين للكثير من التدريب لتواجهي هذا العالم."

بينما كنتُ أغادر، صرخت من خلفي وهي تنهار على الأرض: "أنا أحبه! لماذا لا تفهمين معنى الحب؟ طبعاً لا تعرفينه لأنكِ 'يارا' الحديدية!"

توقفتُ للحظة، شعرتُ بغصة في حلقي ودمعة فرت من عيني رغماً عني. همستُ لنفسي: "اللعنة على الحب.. وعليكِ." صفعتُ الباب خلفي بقوة وركبتُ السيارة بجانب لوكا الذي ارتبك من ملامحي المحتقنة. سألني بقلق: "ماذا بكِ؟ هل أنتِ بخير؟"

مسحتُ دمعتي بسرعة وابتسمتُ ابتسامة جانبية مريرة: "ألهذه الدرجة يعمي الحب بصيرة البشر؟"

"عذراً.. ماذا تقصدين؟"

"لا شيء.. فقط فلنعد."

انتهيتُ من تدوين ملاحظاتي في تمام السابعة مساءً، بعد ساعات من الغوص في عالم "الأخوة سولنتسيفو". دفعني الجوع للمطبخ، وبينما كان الخدم يجهزون العشاء، سطوتُ على مثلجات الشوكولاتة الخاصة ببراين؛ "لابأس، سيشتري غيرها" تمتمتُ بلامبالاة وأنا أبدأ بجولتي في الفيلا.

لفت انتباهي باب المختبر المفتوح، فدخلتُ بهدوء لأجد باولو غارقاً بين أنابيب الاختبار بملابسه الواقية. تسللتُ خلفه وسألتُ فجأة: "ماذا تفعل؟"

قفز باولو من مكانه بذعر، يده على قلبه وهو يلعن: "من أين ظهرتِ أنتِ؟ كدتِ تقتلينني!"

"ظهرتُ من الجحيم.. أخبرني، ما هذا الذي تصنعه؟"

"مخدر جديد.. ومميت. لن يعيش مستهلكه أكثر من أسبوع واحد."

"ولماذا تصنعه إذاً؟"

"لأبيعه طبعاً، هل ظننتِ أنني سأقدمه لكم على الإفطار؟ والآن اخرجي، المكان ملوث بالجراثيم والعدوى."

تجاهلتُ تحذيراته وجلستُ على مقعده المرتفع أراقب حركاته الدقيقة. بعد صمت قصير، قررتُ رمي ورقتي الرابحة: "باولو.. هل كنت مقرباً من كارولين قبل رحيلها؟"

أومأ برأسه دون أن يحرف نظره عن عمله.

"هل أخبرتكَ بشيء؟ خيط يقود لسبب موتها؟"

"اسكتي، أحتاج للتركيز."

"أجبني وسأصمت للأبد!"

رمقني بنظرة حادة ثم قال بمرارة: "حتى لو أخبرتكِ، لن تغيري شيئاً."

"أخبرني وحسب.. قضيتها لا زالت حية في رأسي."

تنهد باولو، وترك ما في يده ليفجر القنبلة: "كارولين كانت متزوجة سراً.. من أندرو."

تجمدت المثلجات في فمي: "أندرو ال دوتشي؟ زعيم المافيا العدو؟"

"أجل. أحبته بجنون، وظنت أنه يبادلها الشعور، لكنها اكتشفت لاحقاً أنه تزوجها طمعاً في عبقريتها الإلكترونية ليضمها لفريقه. وحين رفضت خيانة جيوفاني واكتشفت خيانته لها، عمي بصيرتها الاكتئاب، فذهبت لتنتقم منه بمفردها لتلاقي حتفها هناك."

شعرتُ بغثيان يجتاحني: "ولماذا لم تمنعها؟"

"وعدتني أنها لن تفعل شيئاً طائشاً.. كنتُ أحاول تهدئتها، بل فكرتُ في الزواج منها لأنتزع حب ذلك الوغد من قلبها، لكنها كانت قد اتخذت قرارها بالفعل. لقد قتلها الحب يا سيليست.. القلب لا يفهم لغة الأذى حين يعشق."

أطبقتُ شفتي بغضب: "اللعنة على أندرو.. وعلى كريس واللعنة على الحب."

"عرفتِ ما تريدين الآن، اتركي كيميائي وشأنها."

"سؤال أخير.. من يملك مفتاح غرفتها؟"

"المفتاح معي."

"أعطني إياه."

نظر إليّ بتردد، ثم قال وهو يعود لعمله: "انتظري حتى أنهي هذا المزيج، وسأحضره لكِ."

أومأتُ لباولو وواصلتُ مراقبة تحركاته بصمت وأنا ألتهم ما تبقى من مثلجاتي، لكن الرتابة بدأت تتسلل إليّ؛ فدقة باولو في مزج المكونات لم تعد تثير فضولي. قررتُ استكشاف أرجاء المختبر، تلك القلعة العلمية المليئة بالآلات المعقدة. فجأة، بدأت المثلجات تذوب في يدي، فلمحتُ ثلاجة في الزاوية وقررتُ وضعها هناك ريثما أنتهي.

ما إن فتحتُ الباب حتى صفعت وجهي رائحة كيميائية غريبة ممزوجة ببرودة قارسة شعرتُ معها برغبة في التقيؤ. وحين انقشع بخار التجميد، تجمدت الدماء في عروقي؛ لم تكن ثلاجة أطعمة، بل كانت "مستودعاً للأعضاء البشرية". أيدٍ، قلوب، أكباد، وعيون مصفوفة ببرود خلف الزجاج المجمد. انكسرت مقاومتي فوراً، فسقطتُ على ركبتي أتقيأ بمرارة، قبل أن تظلم الدنيا في عيني وأسقط فاقدة للوعي.

فتحتُ عينيّ ببطء لأجد نفسي في غرفة المستشفى الخاصة بالمقر، والوجوه السبعة تحيط بي كحلقة من القضاة. سألتُ بصوت واهن: "ماذا حدث؟"

أجاب باولو بنبرة لائمة: "لقد انهرتِ لأنكِ أقحمتِ أنفكِ فيما لا يعينك، ورأيتِ منظراً لم يكن معداً لعينيكِ!"

زأر جيوفاني بغضب لم يستطع إخفاءه: "لا أفهم ما الذي أتى بكِ إلى المختبر أصلاً! ألم يكن من المفترض أن تنهي بحثكِ؟"

"لقد أنهيته بالفعل، وخرجتُ للبحث عن قليل من الراحة، لكنني لم أجد أحداً متفرغاً سوى باولو."

قاطعنا براين بنبرة حانقة: "لن أسامحكِ أبداً أيتها السارقة!"

اعتدلتُ في جلستي ونظرتُ إليه باستغراب: "سارقة؟ وماذا سرقتُ منك واللعنة؟"

"مثلجاتي!"

"أوه.. اشترِ لنفسك أخرى، كنتُ أحتاج إليها أكثر منك."

حسم باولو الجدل طبياً: "يمكنكِ النهوض الآن، لا خطر عليكِ."

علق رايدر بحماس: "أخيراً! العشاء جاهز، فلنأكل."

تمتم براين بضيق: "رايدر وسيليست.. لا يفكران إلا في بطونهما."

نزلتُ من السرير وأنا أرد له الصاع: "وهل تريدني أن أفكر بك؟ بطني أهم بكثير."

تسابقتُ أنا ورايدر نحو الطاولة وكأننا في سباق مع المجاعة. لحق بنا البقية، وبدأنا الأكل بنهم غريب، حتى قطع لوكا الصمت قائلاً بسخرية: "سيزداد وزنكِ إن واصلتِ الأكل بهذا الشكل."

أخرجتُ له لساني بطفولية: "وما دخلك بوزني؟"

"ستبدين كالخنزير الصغير إن سمنتِ قليلاً."

"أنا نحيفة جداً، واهتم بشؤونك الخاصة.. لا دخل لك بجسدي."

"لن تبقي جميلة كما أنتِ الآن."

هنا، تدخل جيوفاني بصوت هادئ ومريب: "أعتقد أنها ستظل جميلة حتى لو زاد وزنها قليلاً."

وضعتُ الشوكة جانباً ومسحتُ فمي بنفاذ صبر، ناظرةً لكليهما: "يا شباب، أنتما تفقدانني شهيتي فعلاً."

لوكا (مصححاً لهجته): "أمزح فقط، أكملي طعامكِ فأنتِ بالكاد تأكلين."

أضاف جيوفاني باستفزاز: "في الواقع، لو نقص وزنكِ أكثر من ذلك ستصبحين قبيحة.. أشبه بـ 'الجرادة'."

"لوكا، جيوفاني.. توقفا عن التدخل في شؤوني، وكُلا طعامكما قبل أن يبرد."

ضحك كلاهما بانتصار خفي، وأكملنا العشاء في أجواء مشحونة بالغموض. وحين هممنا بالمغادرة، ألقى جيوفاني قنبلته الأخيرة: "غداً في الثامنة صباحاً، تُقدم البحوث في المقر. من يتأخر أو يقدم بحثاً ناقصاً.. فليستعد للعقاب."

أومأنا له بصمت، واتجه كل منا إلى غرفته، حيث تنتظرنا أشباح البحوث.. وأسرار "سولنتسيفو" التي لا تنام.

في طريقي لغرفتي، مررت بباولو وقبل أن يغير رأيه قلت بلهجة حازمة: "أعطني المفتاح!"

أجابني وهو يراقب الممر بحذر: "اذهبي لغرفتك، انتظريني هناك."

دخلتُ غرفتي وجلستُ خلف مكتبي، ألقيتُ نظرة أخيرة باردة على بحثي الجاهز، ثم انتقلتُ للسرير بانتظاره. بدأتُ أسترجع كلمات باولو؛ كارولين المسكينة، العبقريّة التي لم تكن تدري أن نهايتها ستُكتب بيد الرجل الذي نبض قلبها له. ما هي إلا دقائق حتى سُمعت طرقات خفيفة على الباب. فتحتُه، فمد لي يده بالمفتاح وهمس محذراً: "لا تخبري أحداً بما قلته لكِ، ولا يجب أن يعلم كائن مَن كان أن غرفة كارولين قد فُتحت."

ابتسمتُ له بطمأنة: "لا تقلق، وشكراً لك على مساعدتي."

"العفو.. أرجو أن حلّي قضيتها."

"سأفعل، اعتمد عليّ."

غادر باولو، وبقيتُ أتفحص ذلك المفتاح الصغير بين أصابعي. صراع داخلي احتدم في عقلي: "هل أذهب؟ كلا.. بل سأذهب!" إنه الوقت المثالي، فالجميع غارقون في سباق مع الزمن لإنجاز بحوثهم، ولن يشعر بي أحد. ارتديتُ ملابس النوم كتمويه احترافي؛ فإذا صادفتُ أحدهم، سأتحجج برغبتي في شرب الماء.

تسللتُ إلى الرواق أمشي على أطراف أصابعي. كانت أضواء غرفهم تتسرب من أسفل الأبواب، مما يعني أنهم لا يزالون مستيقظين. وقفتُ أمام باب غرفة كارولين، أدخلتُ المفتاح وفتحتُه ببطء شديد وأنا أعانق الباب كي لا يصدق صريراً يفضحني. دخلتُ وأغلقتُ القفل خلفي بسكون تام. لم أشعل الضوء الرئيسي كي لا يلحظ أحد إضاءة الغرفة المهجورة، واكتفيتُ بضوء هاتفي الضئيل، ثم فتحتُ النافذة قليلاً ليشارك ضوء القمر في إنارة المكان.

بدأتُ التفتيش بقلبٍ يخفق. خزانتها لا تزال تحتفظ بملابسها ورائحتها، لكن لا شيء يثير الشبهة هناك. اتجهتُ لمكتبها؛ كان مثقلاً بالأوراق. لم أقرأها بالتفصيل، بل كنتُ ألمح السطور الأولى منها؛ كانت مجرد سجلات لديون يتم تسديدها بانتظام. فتحتُ الدرج الأخير، وهنا وجدتُ دفتراً كُتب عليه بخط يدها: "يوميات بائسة". دسته في جيبي وواصلت البحث. فوق الخزانة، فوق السرير، ثم تحته.. وهناك وجدتُ كنزاً مخفياً: صندوق خشبي نُقش عليه كلمة "ذكرياتي".

حاولتُ فتحه لكنه كان مغلقاً بإحكام. ظللتُ أبحث بيأس في أرجاء الغرفة المظلمة عن مفتاحه، وجلستُ للحظة على سريرها أنظر لصورتها المبتسمة فوق المكتب وقلتُ في سري: "ماذا تخفين في هذا الصندوق يا كارولين؟"

أخيراً، عثرتُ على مفتاح صغير مخبأ خلف طاولة التلفاز. جربته بلهفة، ففتح الصندوق ليظهر ما بداخله: صور، حافظة معلومات، وأغراض أخرى لم تتبين ملامحها في الظلام. قررتُ عدم المخاطرة بالبقاء أكثر، وحملتُ الصندوق والدفتر وتسللتُ خارجةً بعد التأكد من خلو الرواق.

وصلتُ غرفتي بسلام، أغلقتُ الباب وأشعلتُ الأضواء. وضعتُ الصندوق والدفتر أمامي على الطاولة وبدأتُ النبش في الحقيقة. الصور كانت صاعقة؛ كارولين وأندرو معاً في لحظات حميمية، ويبدو أنهما كانا في منزلهما الخاص.. لقد تزوجا فعلاً! ثم ظهرت صورة طفل رضيع. صدمتُ وسألت نفسي: "يا إلهي، هل أنجبت منه؟" نبشتُ في الصندوق أكثر فوجدتُ ملابس رضيعة: جوارب وردية، فستان أصفر صغير، وزينة شعر رقيقة.. لا شك أنها مولودها فتاة.

فتحتُ حافظة المعلومات عبر حاسوبي، فظهرت لي مقاطع فيديو توثق حياتهما السريّة؛ عشاء رومانسي، نزهات في الحديقة، ثم مقطع فيديو وهما يتناقشان بخصوص مستقبلهما:

كارولين: "لا تتخلى عني حبيبي!"

أندرو: "لن أفعل ذلك طالما حييت عزيزتي!"

كارولين بابتسامة: "ماذا نسمي أول مولود لنا؟"

أندرو: "إن كان صبياً فأدريان، وإن كانت بنتاً فـ كايلي."

كارولين: "هذا جميل.. أدريان ابن أندرو وكايلي ابنة كارولين، أسماء متشابهة وجميلة."

تجمدت الدماء في عروقي.. كايلي! الطفلة التي رأيتُها في الحفلة، النسخة المصغرة من كارولين.. إنها ليست مجرد قريبة، إنها ابنة كارولين وأندرو!

أغلقتُ الفيديو، وكان اسم "كايلي" يتردد في عقلي كصدى مزعج. هل يعقل أن صديقة مايا هي ذاتها ابنة كارولين وأندرو؟ لن أجد إجابة اليقين إلا في ذلك الدفتر. فتحتُ مذكرات "يوميات بائسة" وبدأتُ القراءة بنهم؛ حكت فيها كارولين قصة لقائها الأول بأندرو خلال عملية ميدانية، وكيف كان عدوها اللدود قبل أن يوقعهما الحب في فخه، وصولاً إلى زواجهما السري.

ثم بدأت السطور تصبح أكثر قسوة؛ حين حملت منه، لم يتقبل فكرة الأبوة أبداً، بل أجبرها على إجهاض الجنين والانضمام لعصابته والتخلي عن ولائها لنا. لكنها قررت الحفاظ على طفلتها، وأنجبتها سراً وسمتها "كايلي"، وأودعتها عند "إيفا" أمها، لتربيها دون أن تخبر أندرو بوجودها. وحين رفضت الانضمام إليه، اكتشفت خيانته لها، فكانت تلك اللحظة هي شرارة قرارها بالانتقام، وهو آخر ما دونته في مذكراتها.

في الصفحة الأخيرة، كانت هناك تواريخ محفورة كأنها مقدسة في قلبها:

18 فبراير 2013: اللقاء الأول بأندرو.

20 مارس 2014: الزواج من أندرو.

4 أبريل 2015: ولادة ابنتها كايلي.

عدتُ فوراً لرسالة ساندرا التي أرسلتها لي بالأمس؛ كايلي صديقة مايا ولدت أيضاً في 4 أبريل 2015، وتعيش مع جدتها، أي والدة كارولين! الحقيقة صفعتني؛ كايلي هي ابنة كارولين وأندرو، وهي الآن يتيمة الأبوين.. والدها قتل والدتها، وأنا... أنا قتلتُ والدها. يا للهول، ما هذه المتاهة اللعينة؟ لقد كنتُ مقربة من كارولين، فلماذا أخفت عني كل هذا؟ لقد غدرتني بصمتها، لكنني في المقابل كنتُ أنا من انتقمتُ لها.

عدتُ أتفحص الفيديوهات في الحاسوب، فوجدتُ مقطعاً بعنوان "لأجل سيليست". كان موجهاً لي. فتحتُه فظهرت كارولين وهي تمسك الكاميرا وتصور نفسها، كانت تبكي بحرقة وتقول:

"أرجوكِ سامحيني يا سيليست، لم أخبركِ بشيء، ولم أكن أنوي ذلك أصلاً! أعلم أن همومكِ ومشاكلكِ تكفيكِ، ولم أرد أن أثقل كاهلكِ بمشاكل إضافية. أعلم أنكِ ستجدين هذا الفيديو بطريقة ما لأن أمري يهمكِ."

ابتسمتُ بمرارة وأنا أمسح دمعة خانتني: "أيتها العاهرة.. طبعاً أمركِ يهمني!"

أكملتُ الاستماع إليها وهي تروي كيف ظنت أن أندرو بادلها المشاعر، لكن زواجه كان لمصلحته فقط ليضمها لفريقه، وحين رفضت، ذاقت منه أصناف العذاب والضرب حتى اكتشفت حملها. هربت منه وعادت لمافيتنا التي لم تخنها أبداً. لاحظ جيوفاني إرهاقها وآثار الضرب، فبقيت مع الشباب أربعة أشهر حتى بدأ بطنها بالانتفاخ. خوفاً من تحقيق جيوفاني وعقابه، ادعت أخذ إجازة طويلة وذهبت لمنزل والدتها، حيث ولدت "كايلي".

قالت بنبرة منكسرة: "أمي وبختني وضربتني لأنني أخفيتُ زواجي، لكنها سامحتني.. ولا أظنها ستفعل الآن بعد أن تركتُ لها كايلي رضيعة وهربتُ مجدداً للمافيا." حكت كيف جمعت معلومات عن أندرو بمساعدة باولو، الوحيد الذي ائتمنته على سرها. ثم ختمت وهي تستعد لمواجهة مصيرها:

"لو لم أعد، أو عدتُ جثة، أطلب منكِ ثلاث وصايا يا سيليست:

اذهبي لأمي واطلبي منها العفو نيابة عني، وبرري لها موقفي، ولا تخبريها أبداً بحقيقتي مع المافيا؛ فهي تظنني موظفة بشركة.

إن استطعتِ، اعتني بكايلي لأجلي.. اطمئني عليها فقط، فقد اشتقتُ لرائحتها، عمرها الآن ثلاثة أشهر ونصف.

أخبري زملائي أنني لم أغدر بهم يوماً، وفعلتُ كل هذا لأجلهم.. فسري لهم وضعي، وأبلغي تحياتي الحارة لجيوفاني، لوكا، باولو، رايدر، ماركو، وبراين.. سأشتاق لهم جميعاً. والآن.. أنا ذاهبة لانتقامي."

انتهى الفيديو، وبقيتُ أنا في مواجهة الفراغ. لقد نفذتُ الجزء الأول من انتقامها دون أن أعلم، والآن تقف "كايلي" في طريقي وكأن القدر يسخر مني.

"كارولين مالسيني.. أيتها الساذجة، كم كنتِ حمقاء حقاً!" تمتمتُ بمرارة وأنا أغلق الحاسوب. "سأفعل ما طلبتِ، لكنني لن أسامحكِ ما حييت." شعرتُ بغصة في حلقي، وعينيّ تأبيان إلا أن تذرفا الدمع، لكنني كبحتُ مشاعري بقوة؛ فلماذا عليّ أن أتحمل أوزار أخطاء الآخرين؟ وبينما غضبي ينصب على كارولين، تذكرتُ الحمقاء الأخرى، ساندرا، التي تهرع نحو زواج من شخص لا تعرفه، فقط هرباً من شبح "العنوسة".

أسندتُ رأسي على المكتب، والأفكار تتقاذفني كأمواج هائجة؛ كيف سأواجه والدة كارولين؟ وكيف سأعتني بتلك الطفلة، كايلي؟ ألا يكفيني عبء مايا الذي يثقل كاهلي؟ لم أشعر بنفسي إلا وأشعة الشمس تداعب وجهي معلنةً بداية يوم جديد. نظرتُ للساعة؛ إنها السابعة صباحاً. قضيتُ الليل بطوله غافيةً فوق المكتب، مما جعل رقبتي وظهري يصرخان من الألم. نهضتُ بتثاقل، استحممتُ وارتديتُ سوادي المعتاد، ثم نزلتُ وأمرتُ الخدم بإحضار قهوتي إلى الحديقة.

هناك، وجدتُ باولو جالساً وحده، فاقتربتُ منه وألقيتُ عليه التحية: "صباح الخير"، ومددتُ يدي بمفتاح غرفة كارولين.

أخذه وسألني باهتمام: "صباح الخير.. هل توصلتِ لشيء؟"

ابتسمتُ بخفة: "توصلتُ لكل شيء."

"أخبريني!"

"ستعرف في الوقت المناسب، لكن أخبرني أنت.. أين دفنتم كارولين؟ أريد زيارتها."

تنهد باولو وفرك مؤخرة رقبته بتردد: "إنها ليست هنا.. مكانها بعيد."

"بعيد؟ أين تحديداً؟"

"في مدينة ريفية تبعد حوالي 150 كيلومتراً عن موقعنا."

"ليست بعيدة جداً.. أنت تعرف موقع القبر، صحيح؟ سنحدد يوماً لتأخذني إليها، اتفقنا؟"

"اتفقنا."

وصلت قهوتي، فأخذتُ أرشفها بينما باولو لا يزال بجانبي يسأل: "هل أنهيتِ بحثكِ؟" أومأتُ برأسي، فتابع: "أخبريني.. هل كانت المعلومات التي أعطيتُكِ إياها صحيحة؟" هززتُ رأسي تأكيداً، فتنهد وقال: "ظننتُها كذبت عليّ."

قلتُ بمرارة: "لم يكن لديها سبب للكذب، لكن ما آلمني حقاً هو إخفاؤها لهذا السر عني."

"قالت إنكِ كنتِ تمرين بوقت عصيب حينها، ولم ترد إثقالكِ بمشاكلها."

نظرتُ إلى كوب القهوة وشردتُ بعيداً؛ تذكرتُ أن مايا وكايلي في نفس العمر، ومن هنا بدأ عذابي الحقيقي. كانت كارولين محقة، فقد كنتُ أمرّ بجحيمٍ حين تزوجت والدتي من ذلك الوغد وأنجبت منه مايا، لكنني كنتُ أتمنى لو وثقت بي وأخبرتني.

أيقظني باولو من شرودي سائلاً: "لا زلتِ تمرين بنفس الصعوبات؟"

ابتسمتُ بوهن: "كلا.. أجل.. لا أعلم، انتهى الأمر ولم ينتهِ بعد."

ضحك باولو بخفة: "يبدو أن وقتكِ الصعب لم ينجلِ تماماً. إذا أردتِ البوح بسركِ يوماً فأنا هنا، وأتوسل إليكِ ألا تتصرفي بمفردكِ كي لا ينتهي بكِ المطاف ككارولين، حسناً؟"

"لا تقلق عليّ، لستُ غبية مثلها."

فجأة، اقتحم رايدر هدوءنا وهو يلهث: "بحثتُ عنكما طويلاً! سيبدأ الاجتماع، أسرعا قبل وصول جيوفاني."

وضعتُ كوب القهوة جانباً وهرعتُ معهما نحو القبو. جلسنا في أماكننا المعتادة ننتظر القائد، وبدا الشرود واضحاً على ملامحي حتى لاحظ لوكا ذلك، فلوح بيده أمام وجهي قائلاً: "ما بكِ؟ فيمَ تفكرين؟"

أفقتُ من ذهولي: "لا.. لا شيء مهماً."

بدأتُ أتفرس في وجوههم واحداً تلو الآخر؛ لوكا، باولو، ماركو، رايدر، براين.. ثم استقرت عيناي على فيليكس. في تلك اللحظة، أدركتُ سبب كرهي العميق له؛ لأنه كان "البديل" الذي عوّض مكان كارولين. اللعنة عليه! شعرتُ بنظرات الشر تتطاير من عينيّ نحوه، ورغم يقيني بأنه لا ذنب له، إلا أنني لم أستطع كبح جماحي. لاحظ فيليكس نظراتي وسأل باستغراب: "لماذا تنظرين إليّ هكذا؟"

أشحتُ ببصري عنه ببرود: "لا شيء."

دخل جيوفاني القبو وملامحه تنطق بالبهجة: "صباح الخير يا شباب! أنتم في الموعد حقاً.. يا للعجب، حتى سيليست هنا! هذا رائع. أبحوثكم كاملة؟"

أومأنا جميعاً، فأكمل بحماس: "عظيم، إذاً بلا مقدمات، فليعطني الجميع تركيزه الكامل.. ولنبدأ مع رايدر."

بمجرد أن استقر جيوفاني في مقعده، نهض رايدر متوجهاً إلى المقدمة، وضع بحثه على الطاولة وبدأ بلهجة واثقة:

"مافيا كارتل سينالوا بالمكسيك؛ المخدرات هي محور ارتكازهم الوحيد. وإضافة لما ذكره القائد بالأمس، اكتشفتُ أنهم يعكفون على تطوير مخدر جديد فائق القوة، لم أستطع تحديد اسمه لسرية الأمر، لكنني عرفتُ موعد إطلاقه وخريطة توزيعه. سيتم إصداره بعد شهر من الآن، والوجهة المستهدفة هي الصين. هذا المخدر في الحقيقة هو 'فيروس معدي'، يقتل مستهلكه فور تكرار الجرعة لثلاث مرات. كارتل سينالوا في عداء صريح مع مافيا النمور الثلاثة الصينية، لذا يمكننا ضرب المكسيك بالصين؛ ننتظر خروج المخدر وبداية تفشيه، ثم نُسرب للنمور الثلاثة أن سينالوا هي من تنشر الموت في أزقتهم، وحينها سيطحنون بعضهم البعض بكل تأكيد."

جلس رايدر، فأشار جيوفاني لـ براين الذي وقف قائلاً:

"مافيا كوماندو فيرميلو بالبرازيل؛ السرقة هي مصدر قوتهم، وقد طالت عملياتهم بنوكاً في شتى أنحاء العالم. هم يجهزون الآن لعملية سطو ضخمة على متحف في ألمانيا، حيث تُحفظ مجوهرات ملكية تقدر قيمتها بـ 3000 مليار دولار. نجاحهم في هذا يعني سيطرتهم مالياً على العالم، لكن خطتي تكمن في إخبار عدوتنا عصابة الضوء الأحمر بهذا المخطط، ليقوموا هم بإيقاف البرازيليين والاشتباك معهم، وبذلك نضرب عصفورين بحجر واحد."

جاء الدور على باولو الذي استطرد قائلاً:

"عائلة كورسيكا الفرنسية؛ اكتشفتُ أمراً مريباً خلف واجهة أعمالهم، فهم يقومون باختطاف الشباب والفتيات من الولايات المتحدة منذ عام لبيعهم في السوق السوداء. يختارون ضحاياهم من الولايات المتحدة الأمريكية تحديداً لتنوع أعراقهم (الأشقر، الأسمر، والقمحي) مما يسهل ترويجهم للمشترين دون إثارة الشكوك حول جنسيتهم الموحدة. وبما أن عائلة كورسيكا ومافيا كوزا نوسترا عدوين لدودوين، فيمكننا اختطاف عضو بارز من كوزا نوسترا وتلفيق التهمة لكورسيكا، لنشعل حرباً مدمرة بين فرنسا وأمريكا."

ثم وقف ماركو مقتضباً:

"عصابة الضوء الأحمر بألمانيا؛ حالياً لا جديد سوى أنشطتهم التقليدية في غسيل الأموال والقمار، لكنني سأعمل على تطوير خطة براين لضرب الألمان بالبرازيليين بذكاء."

تلاه فيليكس الذي قال:

"كوزا نوسترا الأمريكية؛ القمار هو لعبتهم الكبرى، وأرى أن خطة باولو لضربهم مع الفرنسيين مثالية، وسنعمل معاً على صياغة تفاصيلها."

جاء دور لوكا الذي وقف موضحاً:

"مافيا سونبي الكورية الجنوبية؛ على عكس البقية، هم في حالة تحالف وثيق مع الروس (الأخوة سولنتسيفو). يتبادلون البشر والعبيد تحت مسمى 'التلاقح الثقافي'، وهو مشروع غامض لا نعرف أهدافه الحقيقية بعد، وسأترك لسيليست إكمال التفاصيل."

وقفتُ أنا، وتوجهت الأنظار نحوي، فقلت برصانة:

"ذهبتُ مؤخراً مع لوكا لمطعم تابع للأخوة سولنتسيفو في إسبانيا، واكتشفنا أن الروس والكوريين يديرون مشروع 'التلاقح الثقافي' الذي ذكره جيوفاني سابقاً. المشروع لا يزال مبهماً، لكننا عرفنا آلية إرسال الضحايا؛ يختارون من المطعم زبائن بجنسيات مختلفة

ويوهمونهم بربح رحلات مجانية لروسيا وكوريا. لقد استطعتُ تأمين ثماني تذاكر لنذهب جميعاً ونكشف السر، بعد أن تظاهرتُ بأنني ولوكا زوجان ولنا ستة أطفال."

تعالت ضحكات خفيفة، فتابعتُ بجدية رغم خجلي:

"المثير للريبة هو وجود المطعم في إسبانيا، مما يعني وجود مافيا إسبانية تدعمهم. والأخوة سولنتسيفو الأربعة لا يتشابهون أبداً؛ فهم من أب روسي واحد وأمهات من أربع جنسيات (يابانية، فرنسية، إسبانية، وبرازيلية). هذا المشروع ناتج عن تكوينهم الشخصي، ومن المحتمل وجود مافيات في تلك الدول تدعمهم، وهذا ما يتطلب بحثاً أعمق."

ختم جيوفاني الاجتماع بابتهاج:

"عمل ممتاز أبنائي. بخصوص النمور الثلاثة الصينية، سأدعم خطة رايدر لضربهم بالمكسيك. والآن، يبدأ العمل الحقيقي؛ سننقسم لثنائيات: أنا ورايدر (الصين والمكسيك)، فيليكس وباولو (أمريكا وفرنسا)، براين وماركو (ألمانيا والبرازيل). أما سيليست ولوكا، فمهمتكم ليست ضرب روسيا بكوريا لكونهما حليفتين، بل كشف لغز هذا المشروع المشترك. لديكم متسع من الوقت للتعاون، وسأكافئكم على هذا الجهد. خذوا بقية اليوم راحة، ويمكنكم الخروج."

تلاشت ملامح الجدية عن وجوهنا تدريجياً، وتنفسنا الصعداء ما إن غادر جيوفاني القاعة. استعاد كل منا ملفه الخاص وخرجنا من القبو، حيث عدتُ إلى غرفتي، وضعتُ الملف على المكتب، والتقطتُ مفاتيح سيارتي وهممتُ بالمغادرة.

في المستودع، وبينما كنتُ أخرج سيارتي، رأيتُ الجميع يهمّون بفعل الشيء ذاته؛ تبادلنا ابتسامات خفيفة، قبل أن يوجه باولو حديثه إليّ قائلاً: "هل تودين الذهاب اليوم؟"

أطرقتُ رأسي مفكرةً للحظة ثم قلت: "امم، كلا، لنجعلها يوماً آخر، فلديّ ما أنجزه اليوم".

لم تخفَ عليّ نظرات لوكا وبقية الأعضاء التي راقبتنا باستغراب، حتى نطق ذاك الثرثار رايدر بفضوله المعتاد: "ماذا؟ منذ متى وأنتما مقربان إلى هذا الحد؟ سيليست، باولو، عليكما ملاحظات، فانتبها!"

رمقتُه بنظرة حادة وأنا أدلف إلى مقعد القيادة: "أغلق لعنتك يا رايدر، ما شأنك أنت بهذا أصلاً؟".

انطلقتُ بسيارتي مغادرةً المستودع نحو منزلي، وبعد مسافة الطريق وصلتُ أخيراً. ترجلتُ من السيارة، لكنني لاحظتُ غياب سيارة ساندرا عن الفناء. طرقتُ الباب ففتحت لي الخادمة وهي تنحني ترحيباً: "سيدتي، مرحباً بكِ، الآنسة ساندرا..."

قاطعتُها بصراخٍ حاد: "وما شأني بها؟ أنا صاحبة هذا المنزل لا هي! ألا يحق لي دخول بيتي دون وجودها؟".

جلستُ في قاعة الجلوس وسألتُ الخادمة التي لا تزال واقفة أمامي بارتباك: "أين مايا؟"

"سيدتي، مايا لا تزال في مدرستها الآن، ولكن..."

استحثثتُها قائلة: "تكلمي، ولكن ماذا؟"

"الآنسة ساندرا ليست هنا منذ البارحة، ولم تعد إلى المنزل منذ أمس".

أخرجتُ هاتفي على الفور واتصلتُ بها، وما إن أجابت حتى انفجرتُ قائلة: "أين لعنتكِ أنتِ؟"

"وهل يهمكِ أمري حقاً؟"

"لماذا تركتِ مايا بمفردها في المنزل؟"

"إنها مع الخدم! ليست وحدها!"

"أين أنتِ يا ساندرا؟"

"أنا في منزلي، أتجهز لحفل زفافي".

"آه حقاً؟ هل عليّ إحضار مربية تعتني بمايا إذاً؟"

"افعلي ما يحلو لكِ، فلن أتزوج شخصاً لستِ موافقة عليه في منزلكِ! سأتدبر أمري وحدي، حتى لو كان بيتي صغيراً، سأفعل المستحيل لأتزوج كريس".

استشطتُ غضباً: "اللعنة عليكِ وعليه! عودي حالاً مع أغراضكِ وإلا اضطررتُ لإحضاركِ بالقوة!"

"لن أعود يا يارا، انسي أمري؛ أنتِ ترفضين كريس، وأنا أحببته.. أنتِ تبالغين في التفكير لأن كل ما يحيط بكِ هو الإجرام والبيئة السيئة و..."

قاطعتُها بلهجةٍ مغايرة: "أنا موافقة، عودي يا لعنة! القصر هو بيتكِ فافعلي فيه ما تشائين، فقط عودي الآن".

"أنتِ موافقة حقاً؟ لا أصدق هذا!"

"لا يهم إن كنتِ تصدقين أم لا، فقط عودي".

"أنا قادمة، انتظريني في القصر".

أغلقتُ الهاتف وارتسمت على وجهي ابتسامة جانبية خفيفة، وبقيتُ في انتظارها. لم يمر وقت طويل حتى وصلت؛ فتحت لها الخادمة الباب فهرعت نحوي لتعانقني، لكنني أبعدتها ببرود قائلة: "متى ستتزوجين ذلك الأحمق؟"

أجابت وهي تكاد تطير فرحاً: "الشهر المقبل، ويجب أن تحضري بالتأكيد، أريدكِ أن تريني وأنا عروس، حسناً؟"

"بالطبع، ستبدين كالمهرج في ذلك الفستان الأبيض، هههه".

ضربتني على كتفي بخفة ثم سألت: "ألهذه الدرجة يهمكِ أمري حتى أتيتِ؟"

"أولاً، أجل يهمّني، ثانياً، اشتقتُ لمايا وأريد رؤيتها، وثالثاً، لديّ ما أسألكِ عنه!"

"أولاً، أحبكِ لأنكِ تهتمين بي، ثانياً، ابقِي لتناول الغداء معنا فمايا ستعود خلال ساعة، وثالثاً، اسأليني ما تشائين".

"سأجيب على النقطة الثالثة أولاً؛ كايلي تلك، صديقة مايا، هل تعرفين أين تسكن؟"

"ليس بعد، لكن مايا تعرف أين تقيم مع جدتها. لماذا تسألين كثيراً عن هذه الطفلة؟"

"أمر يخص المافيا لا تتدخلي فيه؛ يجب أن أذهب لمنزلها، لذا سأنتظر مايا لنذهب معاً بعد الغداء".

"جيد، ألم تشتاقي إليّ أنا؟"

"ههه كلا، ليس كثيراً".

"يا لكِ من بغيضة!"

تابعتُ بسؤال: "إذاً، ما هي تجهيزاتكِ لحفل الزفاف الشهر المقبل؟"

أخرجت تلك الحقيبة الضخمة التي أحضرتها معها، وبدأت تستعرض محتوياتها أمام عينيّ: فساتين، إكسسوارات، عطور، أدوات تجميل، والكثير من الأشياء الأنثوية التي لم أفقه فيها شيئاً. كانت السعادة تغمر ملامحها، وكأنها مقبلة على حرب تضمن نتيجتها سلفاً. ابتسمتُ حين رأيتُ فرحتها، ولأول مرة ألاحظ جمال عينيها وهي تبتسم.

ظلت تثرثر حول مشترياتها حتى لمحت نظراتي المتأملة، فصمتت فجأة ونظرت في عينيّ باستغراب وقالت: "لم تعجبكِ أغراضي؟"

ابتسمتُ بخفة على غبائها وقلت: "ألهذه الدرجة أدخل كريس السعادة إلى حياتكِ؟"

أطرقت برأسها وقالت بنبرة خافتة: "إنه يحبني، ويعاملني برقة دوماً كأنني أغلى ما يملك، يسعى دوماً لرؤيتي سعيدة وصادق تماماً معي.. الحب يا يارا لا يُقاس بالسنوات، بل بالمواقف التي تثبت صدق العلاقة و..."

قاطعتُها بضيق: "بلا بلا بلا، كلام تافه لا يهمني. اجمعي أغراضكِ وضعيها في غرفتكِ، وإياكِ أن تكرري فعلتكِ تلك".

"آسفة، ماما يارا!"

جمعت أغراضها، وقبل أن تصعد طبعت قبلة قوية على خدي ثم ركضت للأعلى. مسحتُ مكان القبلة بيدي وأنا أقول باشمئزاز مصطنع: "مقززة أنتِ يا ساندرا!".

بينما كنتُ غارقةً في تتبع أخبار "الأخوة سولنتسيفو" عبر هاتفي، قُطع سكون انتظاري بطرقاتٍ على الباب. فتحت الخادمة لتدلف مايا، التي لم تكد تراني حتى انطلقت صرختها المندهشة: "لا أصدق! أختي هنا؟!".

ارتمت في أحضاني بشوقٍ بادلته إياها لفترة قصيرة قبل أن أنفصل عنها. جلست قبالتي بملامح كساها اليأس فجأة وقالت بنبرة لائمة: "يارا، لقد غادرت ساندرا منذ أمس، وأظنها لن تعود أبداً.. كله بسببكِ! هي تحب كريس وأنتِ ترفضينه، أنتِ سيئة معها رغم أنها تتحدث عنكِ دوماً بشكلٍ جيد، بينما تعاملينها أنتِ بقسوة".

رفعتُ حاجبي باستغراب: "وماذا عساها أن تقول عني مثلاً؟".

"حين أحضرتِها لتعيش معي أول مرة، كنتُ أكرهكِ للغاية، لكنها هي من جعلتني أحبكِ. كانت تخبرني أنكِ تحبينني لكنكِ تفضلين إظهار جانبكِ القوي فقط، وأنكِ تغرقين في العمل لتؤمني لي المال والحياة الرغيدة. بكلماتها تلك جعلتني أحبكِ، أما أنتِ فماذا فعلتِ؟ طردتِها!".

"أغلقي لعنتكِ يا صغيرة، أنا لم أطردها، هي من غادرت بإرادتها!".

"لكنه بسببكِ.. فلنذهب ونعيدها، هي لن ترفض لأنها تحبكِ أيضاً".

كنتُ على وشك الرد، حين نزلت ساندرا الدرج قائلةً بحنان: "مايا، لقد عدتُ حبيبتي!". انطلقت مايا نحوها بدموع الفرح: "لا تذهبي مجدداً، أرجوكِ ابقي معي". طمأنتها ساندرا بأنها لن تتركها، ثم تقدمتا وجلستا قبالتي. راقبتُ قوة الرابط بينهما بصمت، حتى سألت ساندرا مايا عن امتحان الرياضيات.

"لو أحكي لكِ يا ساندرا لما صدقتِ! كل ما راجعناه معاً جاء في الامتحان، لم أجد أي صعوبة".

"هذا رائع، ستكونين الأولى كالعادة".

"أجل، فمعدلاتي هي الأعلى حتى الآن".

"سأكافئكِ بجائزة كبرى لو حافظتِ على الصدارة".

قاطعتُ جوّهما العائلي قائلةً بجدية: "حسناً فتيات، آسفة لمقاطعة هذا المشهد الظريف، لكن لدينا ما نفعله؛ لذا فلنسرع بتناول الفطور".

سألت مايا باستغراب: "وإلى أين سنذهب؟".

"إلى منزل كايلي!".

"كايلي صديقتي؟ ولماذا نذهب إليها معاً؟".

"لنساعدها ببعض الحاجيات، سمعتُ أنها وجدتها تعيشان في فقر".

"لقد اعتدنا أنا وساندرا مساعدتها دوماً، لكنها المرة الأولى التي تهتمين فيها بكايلي.. لماذا هذا الاهتمام المفاجئ؟".

"أغلقي لعنتكِ، لا دخل لكِ بي أيتها الصغيرة.. هههه، هيا أخبري الخدم بتجهيز الفطور ولننطلق".

استقامت ساندرا للمطبخ وتبعتها مايا، وأنا على يقين أنهما ستتبادلان الهمسات حول هذا التغير في موقفي، لكنني لن أبوح بسري أبداً. تناولنا فطورنا، ثم حملنا أنفسنا وانطلقنا بسيارتي نحو منزل "كايلي" والجدة "إيفا"، حيث تنتظرني الحقيقة وجهاً لوجه.

وصلنا أخيراً إلى العنوان الذي أرشدتني إليه مايا، ترجلتُ من السيارة وأنا أتأمل الواجهة الرثة للمنزل؛ كان البناء متهالكاً يشي بحجم المعاناة القابعة خلف جدرانه. طرقتُ الباب بوجل، لتفتحه لنا كايلي الصغيرة؛ تلك الطفلة التي تحمل ملامحاً أعرفها جيداً.

ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة ما إن رأت مايا، وارتمت في حضنها بعفوية بادلته إياها أختي بذات الشوق، ثم انتقلت لتعانق ساندرا، وصولاً إليّ وهي تقول ببراءة: "أنتِ أخت مايا الكبرى، لقد رأيتكِ في حفلة ميلادها".

ابتسمتُ لها وسألتها عن جدتها، فأشارت بيدها الصغيرة للداخل: "إنها نائمة، هل جئتن لزيارتنا؟". أومأتُ لها، فدعتنا للدخول بلطف. كان المكان ضيقاً، تفوح منه رائحة القدم، وأثاثه مهترئ للغاية. طلبتُ منها إيقاظ جدتها، فانطلقت بخفة لتعود وهي تسند امرأة عجوزاً تتكئ على كتفها وتمشي بخطى وئيدة، ويبدو من عينيها أنها فقدت بريق البصر أيضاً. أجلستها كايلي قبالتنا وقالت: "جدتي، الضيوف أمامكِ مباشرة، يمكنكِ التحدث إليهم".

ابتسمت الجدة وسألت: "أنتم أصدقاء كايلي؟". ضحكت الصغيرة ببراءة وردت: "هذه مايا صديقتي، وأختاها ساندرا ويارا". رحبت بنا الجدة متسائلة عن سبب الزيارة المفاجئة، فدنوتُ منها قائلة: "أتينا لنطمئن عليكِ وعلى كايلي، هناك شخص ما أرسلني إليكِ وطلب مني رعايتكما".

استغربت الجدة، وقبل أن تفيض أسئلتها، طلبتُ من ساندرا أن تأخذ الفتاتين للعب، ليتسنى لي الحديث مع الجدة منفردة. ما إن غادرن حتى أمسكتُ يدها المتغضنة وقلتُ بهمس: "أظن أنكِ عرفتِ من أرسلني!".

ارتجف صوتها: "ليس لي أحد في الدنيا سوى ابنتي سوزان.. هل هي من أرسلتكِ؟ هل هي بخير؟".

أنزلتُ رأسي بأسى: "هي من أرسلتني، لكنها فارقت الحياة منذ زمن. لقد وجدتُ وصيتها التي كتبتها قبل رحيلها، أوصتني بكِ وبابنتها، وطلبت مني أن أرجو منكِ العفو عما اقترفته بحقكِ. كارولين -أقصد سوزان- كانت فتاة صالحة، لكنها أخطأت كباقي البشر، فسامحيها رجاءً".

انفجرت الجدة بالبكاء: "لقد غضبتُ منها حين تركت ابنتها رضيعة وهربت، لكنني سامحتها في اللحظة ذاتها. قلبي كان يخبرني أنها رحلت، لقد عانت لتوفير المال لنا، وأخبرتني أنها تعمل في شركة.. ثم عادت فجأة بتلك الرضيعة، وبّختها لهول الصدمة، لكنها غادرت مجدداً وتركتها لي. كنتُ راضية عنها دوماً، وأتمنى أن موتها كان رحيماً".

طمأنتُها: "ماتت بسلام وهدوء، والآن ستركض روحها بسلام لأنكِ عفوتِ عنها".

سألتني الجدة بلهفة عن الرجل الذي تزوجته سوزان، وعن سبب هروبها وكيف عاشت، فأجبتها بحذر: "سيدتي، لم أكن مقربة منها لدرجة معرفة كل التفاصيل، لكنني كنتُ صديقتها الوحيدة التي وثقت بها. لا تشغلي بالكِ بالماضي، فمنذ اليوم، سأعتني بكِ وبالصغيرة كايلي عوضاً عن سوزان، اسمحي لي بذلك".

رفضت الجدة بلطف في البداية، معتزة بكرامتها، لكنني أصررت: "لقد فقدتُ أمي، وأنتِ فقدتِ ابنتكِ؛ اعتبريني ابنتكِ وسأعتبركِ أمي. فكري في مستقبل كايلي، العيش هنا بمفردكما سيؤثر عليها وعلى نشأتها".

"ماذا تطلبين مني؟ هل ستأخذين حفيدتي وتربينها بعيداً عني؟".

ضحكتُ بخفة لتلطيف الجو: "كلا، فهمتِني خطأ، ستربينها أنتِ، لكن في مكان أفضل.. لنعش معاً كعائلة واحدة".

وبعد إصرار طويل ونظرة منها إلى كايلي التي كانت تضحك مع مايا في الخارج، وافقت الجدة أخيراً: "تبدو كايلي سعيدة جداً مع مايا، ربما ستكون حياتها أجمل معكم".

"بل معنا جميعاً! ستأتين معنا، ولا تذكري كلمة إزعاج ثانية لأنني سأغضب".

ابتسمت الجدة أخيراً، ومسحتُ دمعتها وأنا أمسك يدها قائلة: "فلنذهب يا أمي". شعرتُ بابتسامتها تخترق قلبي، وتملأ فراغاً سكن روحي لسنوات؛ فراغ الأمومة الحنونة التي حُرمتُ منها في طفولتي القاسية.

خرجتُ للفتيات وقلتُ بحزم: "مايا، ساعدي كايلي في إحضار أغراضها، ستعيش معنا هي والجدة من اليوم فصاعداً!". قفزت مايا فرحاً وعانقت كايلي: "مرحى! ستصبحين أختي مثل ساندرا". ساعدتُ أنا وساندرا الجدة في الصعود للسيارة، وانتظرنا الصغيرتين؛ كانت كل ممتلكات كايلي تتلخص في محفظة مدرسية مهترئة وقطعتي قماش، لكن سعادتها كانت تزن الجبال.

استقلينا السيارة جميعاً، وكانت وجهتنا الأولى هي المركز التجاري؛ هناك، اشتريتُ لـ "كايلي" و"مايا" الكثير من الملابس الجديدة المتماثلة، والألعاب، والأدوات، وكل ما يمكن أن يبهج قلبيهما الصغيرين. ولم أغفل عن الجدة "إيفا" بالطبع، فقد انتقيتُ لها ملابس وأغراضاً تليق بوقار الجدات واحتياجاتهنّ.

عدنا إلى القصر، وما إن وطئت قدما الجدة المدخل حتى بدت عليها علامات الدهشة من فخامة المكان واتساعه، والواضح أن تفاصيله قد نالت إعجابها. أما "كايلي" فلم تكن غريبة على المكان، فقد سبق لها زيارته. اخترتُ للجدة غرفةً مجهزة في الطابق الأرضي تجنباً لعناء الصعود والهبوط، وخصصتُ لها خادمتين لمرافقتها وتلبية احتياجاتها على مدار الساعة، وبعد أن اطمأننتُ على استقرارها ورفاهيتها، تركتها لتستريح وتتعرف على مملكتها الجديدة. أما "كايلي"، فقد كانت غرفتها مقابلة لغرفة "مايا"، حيث رتبتُ لها كل مقتنياتها الجديدة وطلبتُ منها الاستمتاع بوقتها، فانطلقت مع "مايا" في جولة استكشافية عبر أرجاء القصر.

نال مني التعب مبلغه، فانزويتُ في غرفتي ألتمس بعض الراحة، حتى طُرق الباب ودخلت "ساندرا". جلست حذوي، وقبل أن تنطق بكلمة بادرتُها قائلة: "أنا حقاً آسفة.. لم أكن أخطط لإحضارهما للعيش معنا، لكن حالتهما الرثة أثارت شفقتي، أرجو أن تتفهمي الأمر وألا يزعجكِ وجودهما".

ابتسمت "ساندرا" بحنو وأمسكت يدي قائلة: "في الواقع، فكرتُ كثيراً في إحضار كايلي لتعيش مع مايا، لكنني كنتُ أخشى رفضكِ. أنا ممتنة لكِ حقاً يا يارا، يبدو أن جانبكِ الإنساني بدأ يطغى، وهذا أمر رائع".

أجبتها بنبرة شردت بعيداً: "أجل، رائع حقاً.. هذه الجدة أعادت إليّ إحساسي المفقود بالأمان؛ كنتُ أظن أن حنان أمي الذي حُرمتُ منه لا يُعوض، لكن نظرات هذه المرأة الدافئة كانت كفيلة بالاستيلاء على قلبي".

"سأعتني بهما، لا تقلقي.. سأعتبر الجدة أماً لي وكايلي أختاً صغرى، فمن الواضح أنهما تعنيان لكِ الكثير".

كشفتُ لها جزءاً من الحقيقة: "والدة كايلي كانت زميلة لي في المافيا وقد توفيت، أما والدها فقد كان عدواً لنا وقتلته بيدي.. لذا أشعر بذنب عظيم تجاه هذه الصغيرة. أعدكِ أنني لن أغيب عنكم طويلاً بعد الآن، وسأشاركِ عبء العناية بهما".

حل المساء، فاجتمعنا جميعاً حول طاولة الطعام؛ الجدة، مايا، كايلي، أنا وساندرا.. لقد كبرت عائلتنا أخيراً.

قلت للجدة بلطف: "هل لي أن أعرف اسمكِ يا سيدتي؟".

أجابت بابتسامتها العذبة التي تخترق الروح: "إيفا.. اسمي إيفا".

قلت: "أمي إيفا، هل أعجبكِ المكان؟ هل ارتحتِ في غرفتكِ؟ لا تترددي أبداً في طلب أي شيء مني أو من ساندرا".

ابتسمت بهدوء وقالت: "لو كانت سوزان معنا لما عوملتُ كأميرة هكذا.. كل شيء مثالي يا ابنتي، شكراً لكِ!".

"لا تشكريني أبداً، هذا واجبنا".

علقت ساندرا مرحبة: "المنزل منزلكِ يا أمي إيفا، خذي راحتكِ التامة".

أضفتُ وأنا أنظر للصغيرتين: "كايلي، أنتِ ومايا تبدوان كأختين حقيقيتين".

ضحكت ساندرا قائلة: "معكِ حق، لقد تضاعف شغب كل منهما منذ وصولنا!".

تعالت ضحكاتنا جميعاً بينما وُضع الطعام على الطاولة، وفي تلك اللحظة، ولأول مرة في حياتي، شعرتُ بذلك الإحساس الغريب والجميل الذي يطلقون عليه: "الدفء العائلي".

بعد العشاء، انتقلنا إلى الحديقة حيث لفّنا هدوء الليل وجمال الجلسة، وتبادلنا أطراف الحديث مع الأم إيفا التي استمعت باهتمام لخبر زفاف ساندرا الشهر المقبل، وأبدت رغبة صادقة في التعرف على "كريس". فجأة، التفتت إليّ تسألني عن موعد زفافي، فضحكتُ قائلة: "بعد ساندرا طبعاً.. أمزح، أنا لا أفكر بالزواج الآن، فلديّ عمل أهم".

ردت بنبرة حانية: "بنيتي، رجاءً لا تغرقي في العمل وتنسي نفسكِ، يجب أن يكون لكِ حبيب وزوج يشاركِ الحياة".

ابتسمتُ لها بعاطفة لم أعهدها: "فقط لأجلكِ، سأفكر في الأمر".

تأخر الوقت، فعدنا جميعاً لغرفنا، باستثناء مايا وكايلي اللتين أصرّتا على النوم في غرفة واحدة احتفالاً بيومهما الأول كأختين.

في تمام الرابعة فجراً، والكون غارق في سكونه، أيقظني اتصال مفاجئ من ماركو يطلب حضوري فوراً للمقر. ذهبتُ لغرفة ساندرا وأيقظتها بصعوبة قائلة: "يجب أن أغادر الآن، أخبري الأم إيفا أنني ذهبت للعمل وسأعود لاحقاً، وإياكِ أن تذكري المافيا، أخبريها أنني موظفة بشركة، حسناً؟".

أومأت ساندرا برأسها وهي تغالب النوم، فربتُّ على رأسها وغادرت. ركبتُ سيارتي وشعرتُ لأول مرة بتغير جذري في كيميائي الداخلية؛ كنتُ مبتهجة وسعيدة، ولأول مرة أشعر أن خلفي عائلة متكاملة تستحق أن أعود إليها.

وصلتُ للمقر والظلام لا يزال سيد المكان. دخلتُ الفيلا فاعترضني ماركو قائلاً بجدية: "أسرعي للقبو". توجهتُ إلى هناك فلم أجد أحداً سوى جيوفاني، الذي بدا عليه النعاس والملل. قلتُ مستغربة: "صباح الخير.. لماذا أحضرتنا يا جيوفاني؟ وأين البقية؟".

ردّ وهو يتثاءب بملل ويده على فمه: "لستُ أنا من جمعكم!".

"امم.. ومَن إذاً؟".

"فيليكس وباولو!".

"اللعنة! ولماذا يجمعنا فيليكس وباولو في هذا الوقت المتأخر؟ وأين البقية؟".

"نحن ننتظر قدومهما.. سيليست، كوني هادئة واجلسي قليلاً".

فعلتُ كما طلب، لكن شعوراً بعدم الارتياح تملكني؛ فأنا وجيوفاني وحيدان في هذا القبو الصامت، وماركو يقف عند الباب ليسجل الحضور. أطرقتُ رأسي، ولم أجرؤ على النظر إليه مباشرة، لكنني اختلستُ نظرة سريعة وبدأتُ أتأمله في صمت: "كم هي وسيمة ملامحه، وكأنه لوحة رسمها أبرع فنان". تذكرتُ حين كنتُ يوماً غارقة في حبه، حباً من طرف واحد لحسن حظي، فهو لم يبادلني المشاعر، ولا أظنه علم أصلاً بما كان يختلج صدري.

جيوفاني روسو؛ ربما لم أقع في حبه عبثاً، أو ربما كان مجرد إعجاب قوي؛ بروحه القيادية، جسده الرياضي المعضل، طوله الفارع، وسامته الحادة، صوته الخشن، قسوته التي تخفي حنية يرفض إظهارها، وعصبيته القاتلة. كنتُ غارقة في تأمل كل هذه التفاصيل، وفجأة رفع بصره فالتقطت عيناه عينيّ اللتين كانتا ترويان قصة عشق خيالية.

ارتبكتُ بشدة وتلعثمتُ، وأشحتُ بنظري عنه فوراً، لكنه ظل يراقبني باستغراب رافعاً أحد حاجبيه. وضع ساقاً فوق الأخرى واقترب من الطاولة قائلاً: "إلى ماذا كنتِ تنظرين؟".

تلعثمتُ ثانية: "لا.. لا شيء".

لم يصدقني بالطبع، لكنه صمت كي لا يحرجني أكثر، رغم أن نظراته كانت كفيلة بأن تجعلني أشعر أنه قرأ كل أفكاري.

همّ بالحديث، لكن دخول لوكا المفاجئ قطع حبل أفكاره. قال لوكا بتذمر: "لماذا في هذا الوقت يا جيوفاني؟ هل تنوي تعذيبنا؟".

ابتسم له جيوفاني وردّ: "لستُ أنا! بل باولو وفيليكس".

جلس لوكا بجانبه وهمس في أذنه بشيء لم أسمعه، فضحك جيوفاني وضربه على كتفه قائلاً: "توقف عن هذا!". ثم نظرا إليّ معاً، فقلتُ بضيق: "اللعنة! أوغاد!".

ضحك لوكا وقال: "اسمعي يا زوجتي الحبيبة، لا تجالسي الغرباء وحدكِ من هنا فصاعدا، حسناً؟".

رددتُ بسخرية: "زوجة مَن يا لعنة؟ لستُ زوجتك، لماذا لا تفهم؟".

ابتسم: "أمزح.. لماذا تفكيركِ ضيق هكذا؟".

ناظره جيوفاني باستغراب وسأل: "لوكا، ألم تلاحظ شيئاً في شخصيتك؟".

"بخصوص ماذا؟".

"لقد كنتَ قليل الكلام، بل أحياناً لا تنطق بكلمة، لكنك منذ تقربت من سيليست صرتَ أكثر مرحاً وتمزح أيضاً".

فرك لوكا مؤخرة رأسه بابتسامة مرتبكة: "كلا.. ليس الأمر كذلك..".

قطع حديثنا دخول رايدر وبراين وهما يتذمران بصوت عالٍ: "اللعنة يا جيوفاني! لماذا في هذا الوقت؟".

وقف جيوفاني فجأة وضرب الطاولة بقوة: "ماذا قلتما؟".

أنزلا رأسيهما فوراً وجلسا، فقال براين بصوت خفيض: "لقد أعطيتنا يوماً إجازة، لماذا تفسده بالقدوم باكراً؟".

"أولاً، انتهت الإجازة. ثانياً، لستُ أنا من أحضركم! فيليكس وباولو لديهما مستجدات سيشاركانها معنا!".

ساد الصمت لثوانٍ حتى دخل فيليكس، باولو، وماركو. جلس الثلاثة، فصرخ جيوفاني محفزاً: "ها نحن قد اجتمعنا.. افتحا لعنتكما، ما الذي حدث؟".

نهض باولو والزهو يملأ تقاسيم وجهه، قائلاً بنبرة منتصرة: "لقد تكفلتُ أنا وفيليكس بمهمتنا، وفي يوم إجازتنا قررنا التنفيذ.. وقد فعلناها!"

اتسعت عينا جيوفاني من شدة الصدمة، ولم نكن نحن أقل منه ذهولاً، ليرد القائد بذهول: "اللعنة.. ما هي مهمتكما أصلاً؟"

أجاب فيليكس ببرود: "لقد كلفتنا بضرب عائلة كورسيكا وكوزا نوسترا، وهذا ما فعلناه حرفياً؛ لقد اختطفنا أحد أهم أعضاء كوزا نوسترا، وهو بين أيدينا الآن!"

"بين أيديكم أين؟" صرخ جيوفاني.

"هنا في المقر، ربطناه في المستودع.. فما هي الخطوة التالية؟"

هزّ جيوفاني رأسه محاولاً الاستيعاب: "انتظر حتى أفهم الخطوة الأولى! لم أتوقع هذه السرعة أبداً، كيف نلتم منه؟"

أوضح فيليكس: "لدينا فرع في أمريكا، ألم تنسَ؟ كلفنا أمهر رجالنا هناك بالمهمة، فخطفه وأحضره إلينا.. وصل به فجر اليوم، ولم نطق صبراً لإخبارك؛ فالأمر لا يحتمل التأجيل".

"صحيح، أنتما سريعان بحق.. إذاً، ما المخطط الآن؟"

"سننتظر 24 ساعة ريثما تبدأ كوزا نوسترا بالبحث عن فقيدها، ثم نطير إلى فرنسا، وبالقرب من مقر كورسيكا سنتصل بالأمريكيين مدّعين أننا من عصابة كورسيكا، وسنطلب فدية تعجيزية ثم نغلق الخط للأبد.. لكننا سنترك الهاتف بجوار مقر كورسيكا ليتعقبوا مكانه. وحين تضرب كوزا نوسترا بكل قوتها، سنسمع أجمل خبر في العالم: تدمير عائلة كورسيكا تماماً".

اعترض لوكا مشككاً: "وما الذي يضمن لك أن كوزا نوسترا ستهاجم كورسيكا لأجل عضو واحد؟"

فرك فيليكس رقبته بابتسامة غامضة: "في الحقيقة.. هذا العضو هو 'مورينيو دي بالاس'.. قائد كوزا نوسترا بذاته!"

لم يكد جيوفاني يسمع الاسم حتى جحظت عيناه: "واللعنة! كيف حصلتما عليه؟ أهو حقاً بين يدي؟"

وما إن أومأ كلاهما إيجاباً حتى انطلق جيوفاني يجري نحو المستودع بجنون. بقِينا في القبو في حالة ذهول، ليسأل رايدر: "ما خطبه؟"

أجاب ماركو: "مورينيو دي بالاس هو العدو اللدود لجيوفاني، ووقوعه بين يديه اليوم حلم لم يتوقعه".

براين: "وماذا سيفعل به؟"

باولو: "لا أظنه سيلقي عليه التحية، بل سيرحب به على طريقته الدموية الخاصة".

تكلمتُ أنا بملل محاولةً كسر هذا الجو المشحون: "الخطة خطتكما ونفذتماها، فلماذا جمعتمونا في هذا الوقت اللعين؟"

رد فيليكس: "نحن فريق واحد، ولو أخفينا الأمر لنلنا عقاباً وخيماً من جيوفاني".

"وما المطلوب منا الآن؟"

"لا ندري، القائد غادر وتركنا".

بعد ربع ساعة، عاد جيوفاني وقطرات الدماء تلطخ قميصه الأبيض الناصع، سأله باولو بفزع: "اللعنة، هل قتلته؟"

ابتسم جيوفاني ابتسامة جانبية مرعبة: "كلا.. ليس بعد، فما زلنا نحتاجه".

سأل فيليكس: "متى نبدأ التنفيذ؟"

"متى شئتما، انطلقا حالما تجهزان.. لقد أبدعتما يا شباب، وتستحقان مكافأة؛ فور تدمير كورسيكا وكوزا نوسترا سأمنحكما إجازة طويلة تعوضكما عن غيابكم عن العالم الخارجي".

تذمر رايدر: "وأنا أيضاً اشتقت للعالم الخارجي!"

رد جيوفاني بصرامة: "ستنال إجازتك حين تدمر معي النمور الثلاثة وكارتل سينالوا.. والآن ليعُد كل منكم لعمله، وليكن فيليكس وباولو قدوة لكم".

وقبل خروجه، بعثر شعر فيليكس وباولو بامتنان وغادر. وقفنا نستعد للخروج، فقلتُ لهما: "لقد أسعدتماه حقاً، عمل جيد".

فيليكس: "حظاً موفقاً لكِ أيضاً".

باولو غامزاً: "أنتِ ولوكا، أليس كذلك؟"

أومأتُ برأسي بينما أناظر لوكا الذي بدا بارداً بشكل مريب. خرجنا، ووقفتُ في قاعة الجلوس أرقب الساعة؛ إنها السادسة صباحاً، لا بد أن الأم إيفا لا تزال نائمة، وسأعود للمنزل قبل أن تلحظ غيابي.

هممتُ بالخروج لكن لوكا أوقفني: "أستغادرين؟"

"أجل".

"وكيف سنعمل على خطتنا المعقدة؟"

"سأتصل بك لاحقاً".

"سأنتظركِ".

"لا تنتظرني، ابدأ العمل وسأكمله لاحقاً".

"سنعمل معاً.. الآن!"

"ليس الآن، لديّ مكان مهم أقصده".

"ستتأخرين، وجيوفاني لن يسره ذلك".

"ماذا تريد مني يا لوكا؟"

"أريد العمل لنيل إجازتي بسرعة".

"سأذهب وأعود سريعاً، لا تخبر جيوفاني".

"لو خرجتِ سأخبره فوراً".

"اللعنة عليك! ماذا تريد؟"

"سأذهب معكِ أينما تذهبين لأضمن عدم تأخركِ، ثم نعود للمقر لنعمل".

فكرتُ ملياً في إصراره الغريب، ثم قلتُ بقلة حيلة: "حسناً، لكنك لن تنزل من السيارة أبداً!".

أجاب بانتصار: "أجل".

انطلقتُ بسيارتي وذلك "الممل" يجلس بجانبي، كانت وجهتي هي المنزل، وفي منتصف الطريق لم أتمكن من كبح قلقي فاتصلت بساندرا:
"اسمعي، هل الأم إيفا مستيقظة؟"

"كلا، لا يزال الجميع غارقين في النوم!"

"رائع جداً، أخبري الخدم بتجهيز الفطور، سنأكل جميعاً فور وصولي."

"ستأتين الآن؟ يا للروعة!"

"أجل، هيا أسرعي."

أغلقتُ الهاتف، ليفاجئني لوكا بنبرته الهادئة: "لقد بدأتُ أعرف الكثير عن حياتكِ الخاصة، ألن يزعجكِ الأمر؟"

"هه، وماذا عرفتَ مثلاً؟" رددتُ بتحدٍّ.

"أعرف أن لكِ أختاً صغيرة، وصديقة مقربة، وأن زوج أمكِ توفي، وأمكِ تركتكِ ورحلت وأنتِ صغيرة. أعرف مكان منزلكِ، والآن لديكِ أم اسمها إيفا، وصديقتكِ تعيش قصة حب."

"هههه أحسنت! أنت بارع حقاً، تكاد تعرف كل شيء.. ما رأيك أن أدعوك لحفل زفاف صديقتي إذاً؟"

"لما لا؟ لو سمحت الظروف سآتي فوراً."

"اخخ، المشكلة أنك تعرف عني كل شيء بينما لا أعرف عنك شيئاً، هذا ليس عدلاً أبداً!"

"فجأة تولد لديكِ الفضول لمعرفة حياتي الشخصية! هل يعني هذا أنكِ معجبة بي؟" سأل بخبث.

"هههه ماذا؟ كلا، لستَ نوعي المفضل، لكنني أنشد العدالة فقط."

"حسناً، سآخذكِ إلى منزلي، سأعرفكِ عليه وسنعمل هناك.. ما رأيكِ؟"

"اتفقنا! هذا أكثر عدلاً.. ولكن متى؟"

"متى شئتِ!"

"حسناً إذاً."

توقفتُ بالسيارة أمام القصر وترجلت، فناداني لوكا: "لا تتأخري، سأشعر بالملل هنا وحدي!"

"لن أفعل، انتظرني."

دخلتُ القصر فوجدتُ الأم إيفا تجلس على مائدة الطعام بانتظارنا. فور رؤيتي، ارتسمت على وجهها تلك الحنية التي تذيب الجليد عن قلبي؛ تقدمتُ وقبلتُ رأسها، ثم جلستُ حذوها ممسكةً يديها: "هل أنتِ بخير اليوم يا أمي؟"

مسحت على شعري بحنان: "بفضلكِ يا بنيتي أنا بخير، ولكن أين كنتِ في هذا الصباح الباكر؟"

"اه ههه، إنه العمل يا أمي، لا تشغلي بالكِ بي، وتعودي على طبيعة شغلي؛ فقد يُطلب مني الحضور في أي لحظة."

"آه، حسناً يا ابنتي، بالتوفيق لكِ."

بينما كنا نتحدث، أقبلت مايا وكايلي وهما ترتديان نفس "البيجاما"، قبلتا الأم إيفا وألقيتا التحية عليّ، ثم تبعتهما ساندرا مع الخدم يحملون أطباق الفطور.

جلسنا وبدأنا الأكل في أجواء دافئة، حينها قالت ساندرا: "أمي إيفا، لقد دعوتُ كريس للعشاء الليلة، هل ترغبين في التعرف عليه؟"

"طبعاً يا ابنتي، أريد ذلك بشدة. رغم أنني لم أعرفكما إلا بالأمس، إلا أنني أشعر كأنكما ابنتاي منذ سنوات طويلة."

عبست مايا بمكر طفولي: "ولماذا تقولين 'أنتما'؟ ألستُ معهما؟"

ضحكت الأم وقالت: "كلا، أنتِ عرفتكِ قبلهما، وأعتبركِ أخت كايلي منذ زمن."

سكتت برهة ثم وجهت نظرها نحوي: "ماذا عنكِ يا يارا؟ ألا تريدين تقديم حبيبكِ لي؟"

تلعثمتُ قليلاً وأجبت بفرار: "كلا يا أمي، ليس لي حبيب حقاً!"

"فلتجدي واحداً بسرعة، سيفوتكِ القطار إن لم تتزوجي الآن."

"هههه حسناً، كما تريدين يا أمي."

نهضت مايا وكايلي بحماس: "سنتأخر عن المدرسة! ستغار بقية زميلاتنا حين يعرفن أنكِ انتقلتِ للعيش معي يا كايلي.. أجل يا مايا، سيكون الأمر ممتعاً! هههه إلى اللقاء جميعاً."

غادرتا المكان، فقالت الأم بقلق: "ولكن هل ستذهبان بمفردهما؟ لقد اعتدتُ أن أوصل كايلي بنفسي للمدرسة!"

طمأنتها ساندرا بسرعة: "كلا يا أمي، السائق سيوصلهما وهو من سيعيدهما، لديهما سائق وسيارة خاصان."

أكملنا فطورنا، وبعد أن رُفعت المائدة، انتقلنا إلى غرفة الجلوس لنواصل حديثنا الشائق ونتعرف أكثر على "الأم إيفا" التي بدأت تملأ حياتنا بصخبها الهادئ ودفئها الصادق.

فجأة، قُطع هدوء جلستنا بطرقات على الباب، وما هي إلا لحظات حتى دخلت الخادمة قائلة: "سيدتي، هناك شاب بالباب يريدكِ!". تجمدتُ في مكاني، فقد نسيتُ أمر لوكا تماماً!

وقعت نظرات الأم إيفا وساندرا عليه بمزيج من الاستغراب والحيرة. اتجهتُ نحوه بخطوات سريعة، وما إن اقتربتُ منه حتى همستُ بحدة كي لا يصل صوتي إليهما: "ما الذي أتى بك إلى هنا؟ ألم أقل لك ألا تنزل من السيارة؟".

أجابني بنفس نبرة الهمس: "لقد مللتُ الانتظار يا سيليست، لقد تأخرتِ بالفعل!".

سألت الأم إيفا بفضول: "مَن هذا الشاب يا ابنتي؟".

التفتُّ إليها ثم عدتُ بالنظر إليه، وقلتُ في سري: "لا أريدها أن تأخذ عني فكرة سيئة، أو تظن أنني أصاحب الغرباء". فقلتُ له هامسة: "ستقوم بدور حبيبي الآن، هل فهمت؟".

أومأ لي بالموافقة، فأمسكتُ يده وتوجهتُ به نحو المائدة حيث تجلسان، وقلتُ بتوتر أحاول إخفاءه: "حسناً يا أمي.. امم، في الحقيقة لقد خجلتُ أن أخبركِ أن لي حبيباً، فنحن قد بدأنا المواعدة منذ مدة قصيرة، ولهذا السبب لم أستطع إخباركِ في البداية".

نهضت الأم بابتسامة واسعة وقالت: "هذا رائع! صحيح أنكِ أخفيتِ الأمر، لكن الخبر أسعدني.. عرفيني على صهري يا بنيتي!".

قلتُ بوقعة: "صهرك؟ آه.. حسناً! اسمه...".

قاطعني لوكا بثبات: "أهلاً بكِ يا أمي، أنا أدعى لوكاس براون، عمري ثلاثون عاماً، وأعمل مع سيليست في...".

وضعتُ يدي على فمه فوراً وقلت: "يعمل معي في نفس الشركة!".

استغربت الأم: "مَن سيليست؟".

تداركتُ الموقف وأنا أقرص يده خفية: "إنه اسم الدلع الذي يحب مناداتي به، هههه.. أحياناً ينسى أن اسمي يارا!".

فقال مكملاً اللعبة: "أجل، أحب مناداتها سيليست، ليكون شيئاً مميزاً بيننا، وهي في المقابل تناديني لوكا فقط".

قالت الأم: "اجلسا". نفذنا أمرها، فأكملت بفضول الجدات: "إذاً، تعرفتما في العمل؟". أومأنا برأسينا، فأضافت: "ومَن أُعجب بالآخر أولاً؟".
قلنا في وقت واحد؛ أنا قلتُ: "هو"، وهو قال: "هي".

ضحكت الأم: "ههه، أعلم أن الأمر محرج بعض الشيء، لكن لا بأس ما دمتما تحبان بعضكما".

قلتُ منسحبة: "أجل يا أمي، لكننا مستعجلان حقاً ويجب أن نذهب الآن".

كانت ساندرا تكتم ضحكاتها عليّ طوال الوقت. سحبتُ لوكا من يده وهممنا بالخروج، فصاحت الأم خلفنا: "سأدعوك على العشاء الليلة يا لوكاس! تعال مع يارا وسنتعشى معاً جميعاً".

أومأتُ لها برأسي موافقةً ثم خرجتُ به مسرعة. ركبنا السيارة وشعرتُ بموجة إحراج تجتاحني، لم أستطع حتى النظر في عينيه، أما هو فقد كان هادئاً بشكل مستفز، وكأن شيئاً لم يكن.

سألتُه بضيق: "بماذا تفكر؟".

"اسمكِ الحقيقي لطيف جداً.. عكس شخصيتكِ تماماً!".

"آه فعلاً.. ولكن هل 'لوكاس براون' هو اسمك الحقيقي حقاً؟".

"أجل، لم أستطع الكذب على أمكِ.. ولكن لدي سؤال".

"ماذا؟".

"ألم تقولي إن أمكِ هجرتكِ منذ سنوات؟ مَن هذه الأم إذاً؟".

رددتُ ببرود وأنا أشغل المحرك: "لا شأن لك.. أو ربما ستعرف مع الأيام!".

دخلنا فإذ بكل ثنائي يجلسان معاً، ينكبّان على الخطة في أركان الحديقة حول طاولات متباعدة. أمرتُ الخدم بتجهيز طاولة لي ولوكا، ثم صعدتُ لإحضار حاسوبي وملفاتي، وفعل هو المثل. جلسنا وبدأنا العمل، وكلما تعمقنا أكثر وصلنا لمعلومة جديدة تنسينا ما قبلها، لكن تركيزي كان منعدماً تماماً؛ فكرِي كان شارداً فيما سيحدث الليلة. لقد دعته أمي للعشاء! يا لها من ورطة. كان يتحدث معي لكنني كنتُ غارقة في هواجسي، حتى أفقتُ على صوته يناديني بحدة: "ركزي معي! فيمَ تفكرين؟"

"هل ستذهب معي للمنزل الليلة حقاً؟"

"أجل طبعاً، لقد دعتني أمكِ، أنسيتِ ذلك؟"

أنزلتُ رأسي وقلتُ باستسلام: "حسناً، لدي طلب صغير؛ لا تذكر أمر المافيا أبداً، ولا أي شيء يخص طبيعة عملنا. كل ما في الأمر أننا نعمل في شركة.. شركة ماذا؟ شركة الكهرباء! حسناً؟"

"حسناً.. الآن أعيريني تركيزكِ وانصتي لما توصلتُ إليه."

كيف يستطيع أن يكون مركزاً هكذا؟ أما أنا فلم أستطع. القدر يضع لوكا دائماً في طريقي ليمثل دور شريك حياتي. بدأتُ أعرف عنه الكثير، وقد وعدني بزيارة منزله. اسمه الحقيقي "لوكاس".. اسم قوي وجميل، اسم على مسمى. اللعنة! هل أنا أمدحه الآن؟ لماذا؟ هل يعقل أنني أُعجبت به؟ لقد تغزل بي ذات مرة، لكنه قال إنني لستُ نوعه المفضل! لماذا أهتم أصلاً؟ أجل، لقد أُعجبت به.. اللعنة على قلبي الضعيف!
أفقتُ من شرودي وقررتُ التركيز على المهمة.

بدأت الشمس تميل للمغيب، وشرع الأعضاء يغادرون الحديقة واحداً تلو الآخر، حتى طقطقتُ رقبتي وأنا أفركها بتعب: "لقد تعبت، فلنكمل لاحقاً."

ترك ما بيده ونهض، دخلنا لنضع أدواتنا في غرفنا، ثم اجتمعنا جميعاً في غرفة الجلوس. قال جيوفاني: "إذاً يا شباب، كيف يسير العمل؟ أنتم تحرزون تقدماً، صحيح؟"

أومأنا له جميعاً، فقال: "هذا جيد، فلنأكل ونخلد للنوم، لقد تعبنا حقاً اليوم."

ناظرني لوكا وهمس: "يجب أن نذهب لمنزلكِ الآن، سنتأخر!"

ضربتُ كتفه وقلتُ بهمس: "لا يجب أن يعرف الأعضاء، وخاصة جيوفاني، أننا نتواعد!"

ناظرني باستغراب، فأضفتُ بتلعثم: "أقصد.. نمثل أننا نتواعد!"

أومأ لي ثم قال بصوت مسموع: "جيوفاني، لن أبقى معكم، لديّ ما أفعله."

فقلتُ بسرعة: "أنا أيضاً سآكل في منزلي، أنا ذاهبة."

بقي الأعضاء يراقبوننا باستغراب حتى قال رايدر: "عليكما ملاحظات!"

قلتُ بحدة: "اللعنة، أغلق فمك أنتَ!"

خرجنا، وركب كل منا سيارته لتضليل الأعضاء، ثم اتجهنا لمنزلي. فتحت لنا الخادمة فدخلنا، ووجدنا الأم إيفا جالسة مع مايا وكايلي. رحبت بنا، أما الفتاتان فبقيتا تهمسان باندهاش: "من هذا الوسيم؟ أحببته! سأتزوجه!" كانت أصواتهما مسموعة، فرمقتهما بنظرة حادة فسكتتا.

سألتُ: "أين ساندرا؟"

الأم: "تجهز نفسها، فحبيبها آتٍ أيضاً، أنسيتِ ذلك؟"

مايا بدهشة: "أيضاً؟ أيعني ذلك أن هذا الشاب هو حبيب يارا؟"

دققت النظر في لوكا ثم قالت: "أليس هو نفسه الذي كان معنا حين مات والدي؟ وأخذني لفيلا فيها رجال يرتدون الأسود و..."

أغلقتُ فمها بيدي وقلتُ: "كلا ليس هو!"، ثم همستُ في أذنها: "أغلقي لعنتكِ يا لعنة!"

بينما نحن كذلك، أقبلت ساندرا ورحبت بلوكا. جلسنا نناظر بعضنا بصمت، فسألتُ: "لماذا تأخر حبيبكِ؟"

قالت ساندرا وهي تغمز لي: "تعالي معي للمطبخ، سنتصل به!"

نهضتُ معها فوراً لأهرب من نظرات لوكا وأسئلة الأم المحرجة.

دخلنا المطبخ، فباغتتني ساندرا بسؤالها: "أيتها المجنونة! هو ليس حبيبكِ صحيح؟".

ضربتُ جبهتي بكفي وقلتُ بتوتر: "أنا في ورطة حقيقية! إنه أحد أعضاء المافيا.. حين رأته الأم لم أرد أن تأخذ عني فكرة سيئة، فتظاهرنا بأننا حبيبان، والآن أنا عالقة هنا معه!".

"ما هذه الورطة؟ هل هو شخص سيء؟".

"لا أعرف عنه شيئاً سوى أنه عضو في مافيتنا! أليس هذا كافياً؟!".

"أوه يارا، لقد أخفتِني حقاً.. كيف سأتصرف معه الآن؟".

"ماذا تقصدين بكيف ستتصرفين؟".

"أي أنني لن أستطيع التصرف على طبيعتي معه، فأنا خائفة منه الآن!".

"أوف.. ماذا سأفعل؟".

"حسناً اسمعي، فلتنتهي هذه المسرحية اليوم، ثم غيبي عن المنزل لفترة، وعندما تعودين أخبرينا أنكما انفصلتما.. سهلة، أليس كذلك؟".

"بالطبع سأفعل، ما من خيار آخر لديّ".

"ولكن عندي ملاحظة، ربما ستغضبين مني حين أخبركِ بها!".

"تكلمي!".

"إنه وسيم حقاً.. رجال مافيتكِ وسيمون بشكل مرهق!".

"ومن أين تعرفين البقية يا لعنة؟".

"حين زرتكِ في المقر، أتذكرين؟ رأيتُ اثنين منهم!".

"آه، تقصدين رايدر وجيوفاني؟ أجل، وسيمون.. لك جيوفاني ولوكا ، شخصياتهما أقوى، بخلاف رايدر اللعوب والمشاغب.. لكن لوكا يبدو أكثر جاذبية من جيوفاني، حتى هدوءه يعجبني.. اللعنة عليكِ يا ساندرا! ما الذي أهذي به؟".

"الظاهر أنكِ واقعة في الحب يا أختي.. استسلمي لمصيركِ!".

"حب ماذا؟ إنهم مافيا، ألا تفهمين؟ حتى لو أحببتُ أحداً منهم فلن يكون لي نصيب معه!".

"ولماذا؟".

"ببساطة لأن أعمارنا قصيرة، ونحن في خطر دائم، وفي أي لحظة قد نخسر بعضنا البعض".

"ليس بالضرورة أن تنتهي أعماركم بسرعة.. ثم إنني سمعتُ أن حب رجال المافيا هو الأصدق على الإطلاق، فهم لا يخونون أبداً!".

"ساندرا، كفي عن هذا الهراء.. إنها مجرد مسرحية!".

"اعترفي أنكِ أحببتِ لوكاس!".

"لستُ كذلك!".

"بلى، أنتِ تفعلين!".

قُطع حديثنا بطرقات على الباب، فعلمنا أن كريس قد وصل. خرجنا من المطبخ؛ توجهتُ أنا للجلوس حذو لوكا، بينما ذهبت ساندرا لاستقبال كريس. قدمته للأم إيفا قائلة: "أمي، هذا حبيبي كريس، الذي حكيتُ لكِ عنه".

ثم استدارت نحو لوكا وهي ترتجف من التوتر وقالت: "وهذا.. هذا حبيب يارا.. أنت تعرف يارا، صحيح؟ هذا حبيبها!".

ناظرني كريس وابتسم قائلاً: "وهل يخفى القمر؟ هههه".

ثم التفت نحو لوكا ومد يده ليصافحه، وفور أن تلاقت أعينهما، ساد صمت مطبق وصدمة زلزلت المكان. قال لوكا بنبرة حادة: "ماذا تفعل هنا؟".

رد كريس بصدمة مماثلة: "أنت! ما الذي تفعله هنا؟".

وقفتُ بينهما وقلتُ بذهول: "اللعنة! ما الذي يجري بينكما؟".

لوكا ببرود غريب: "إنه أخي الأصغر!".

ابتسم كريس بسخرية وقال: "آه أجل.. أخي الأكبر!".

لم يتبادلا العناق ولم تظهر على وجهيهما أي علامة ترحيب، بل جلس كل منهما حذو حبيبته، يتبادلان نظرات تحدٍّ صامتة. بدأت الأم إيفا نقاشاً مع كريس لتلطيف الجو، فهمستُ في أذن لوكا: "لماذا تناظره هكذا؟".

اقترب من أذني وهمس: "سأخبركِ لاحقاً".

أومأتُ له، وبقينا نستمع لنقاش كريس والأم إيفا. وبعد العشاء، جلسنا في الحديقة نتبادل أطراف الحديث، لكن التوتر الشديد كان بادياً بوضوح على وجه ساندرا التي وجدت نفسها فجأة بين شقيقين من عالمين متناقضين.

استأذن لوكا ليدخن سيجارة بعيداً عنا، وما هي إلا لحظات حتى لحق به كريس. بقينا أنا وساندرا مع الأم إيفا التي قالت بابتسامة صافية: "لماذا لا تبدوان سعيدتين؟ حبيباكما أخوان ولم تعرفا بذلك.. هذه مصادفة جميلة حقاً!".

علقت ساندرا وهي تحاول استيعاب الصدمة: "كم أنا غبية! حين عرّف لوكاس عن نفسه بلقب 'براون' لم أتخيل أبداً أنه شقيق كريس".

حاولتُ تهدئتها قائلة: "لا شيء يدعو للقلق، اعتبريه قدراً جميلاً". لكن الفضول كان يأكلني، فنهضتُ قائلة: "لقد تأخرا، سأذهب لأراهما".

تتبعتُ أثرهما حتى سمعتُ صوتهما خلف الأشجار، فوقفتُ في زاوية مظلمة أرصد حديثهما العاصف:

كريس: "أين كنت كل هذه السنوات؟".

لوكا بحدة: "لا دخل للعنتك بي، اهتم بشؤونك!".

كريس بسخرية: "أصبح لديك حبيبة؟ أنسيت كاميلا بهذه السرعة؟ كم أنت قذر!".

لوكا: "لا دخل لعائلتكم بحياتي، أنتم من طردتموني أنا ودانيال.. ثم ماذا عنك؟ نسيت ليليان بسرعة وصار لك حبيبة؟".

كريس بارتباك: "أغلق فمك، ستسمعك ساندرا!".

لوكا: "آه، لم تخبرها إذاً؟ سأفعل ذلك بنفسي!".

كريس متوسلاً: "أرجوك يا لوكاس، لا تفسد حياتي، أنا أحب ساندرا".

لوكا: "ألم تفسدوا حياتي من قبل؟ أليس عدلاً أن أرد المعروف؟".

كريس بلهجة جادة: "اسمع، لا تظهر أننا متخاصمان، ولا تذكر طبيعة عملك 'القذر' أبداً، ستخاف ساندرا.. نحن محاميان وأنت تشكل خطراً علينا!".

لوكا بضحكة ساخرة: "وماذا قلت لهم إنني أعمل؟".

كريس: "في شركة".

لوكا: "واضح أنك لا تعرف شيئاً.. يارا، أخت ساندرا، التي ستكون صهرها.. هي...".

هنا خرجتُ من مخبئي وقاطعتُ حديثه ببرود: "أكمل.. أنا ماذا؟".

ارتبك كريس، بينما سأل لوكا بتحدٍّ: "لماذا لم تخبري صهرك أنكِ معي في المافيا؟".

رددتُ عليه بحدة: "وكيف لي أن أعرف أنه أخوك يا متعجرف؟".

صُدم كريس وتراجع خطوة: "ماذا؟ أنتِ أيضاً في المافيا؟".

أجبتُه بصرامة: "أجل، هل يقلقك الأمر؟ ولماذا كذبت على ساندرا بخصوص عمل أخيك؟".

كريس: "ظننتها ستخاف منا.. لكن يبدو أن في عائلتها أيضاً عضوة مافيا!".

التفتُّ إليه وسألتُ: "ومن ليليان هذه؟ حبيبتك السابقة؟".

كريس: "أجل، لكنها غادرت البلاد ولن تعود".

قلتُ بلهجة وعيد: "لقد أخفيت الكثير عن ساندرا.. حذرتُها من الزواج منك لكنها أصرت، والآن تبين لي أن ما خفي أعظم! اسمعني جيداً يا كريس براون، وأقسم أمام أخيك.. لو فكرت يوماً في كسر قلب ساندرا أو إيذائها، ستكون تلك آخر مرة تفعل فيها شيئاً في حياتك، سأرسلك لعالم أفضل بكثير.. هل فهمت؟".

أومأ كريس وهو يرتجف: "أنا أحبها حقاً، لن أؤذيها".

عدنا للداخل ووجوهنا ترتدي أقنعة الابتسام. سألت الأم إيفا بفضول: "لماذا تأخرتم؟".

أجاب كريس بصوت مهتز: "آه.. كان أخي في رحلة عمل طويلة، وكنت أسأله عن أحواله".

ناظره لوكا بحدة، ثم سأل: "أين أختكِ الصغرى؟ لم أرها".

"مايا وكايلي في غرفتهما تلعبان".

الأم إيفا: "إذاً لوكاس.. ساندرا وكريس سيتزوجان بعد شهر، ماذا عنك وعن يارا؟".

فرك لوكا مؤخرة رقبته بتصنع الخجل: "لا أعلم، ابنتكِ ترفض الزواج حالياً، لكنني أحاول إقناعها.. ساعديني يا أمي فهي عنيدة كما تعلمين!".

"أوه يارا.. أريد رؤية أبنائكما قبل مماتي".

"بعد عمر طويل يا أمي.. سيحدث ذلك لا تقلقي".

انتهت السهرة وغادر كريس ولوكا، وبقيتُ مع ساندرا التي انفجرت بالبكاء ما إن اختلينا ببعضنا: "لوكاس مافيا! وكريس يخفي أشياءً! هل سيكون عم أبنائي مجرماً؟".

رددتُ بسخرية: "وخالتهم أيضاً مجرمة، لا تنسي ذلك!".

ساندرا: "اللعنة يارا.. أريد حياة عادية!".

"أغلقي فمكِ الآن! ألم أحذركِ؟ قلتُ لكِ تعرفي عليه أكثر، لكنكِ أصررتِ كأنه الرجل الوحيد في العالم! البشر لديهم جوانب مظلمة، وها أنتِ تكتشفين جانب كريس".

ساندرا بيأس: "ماذا أفعل الآن؟".

"ليس أمامكِ سوى الإكمال.. الانفصال الآن لن ينفعك أبدا. لا تقلقي، لوكاس لا علاقة له بعائلته وهو سيء مع أعدائه فقط، وكريس يحبكِ حقاً.. وأنا هنا لحمايتكِ".

مسحت دموعها وجلسنا نراقب النجوم في صمت ثقيل. كان ذهني يغلي بالأسئلة: مَن هي كاميلا؟ ومَن هو دانيال؟ ولماذا طُرد لوكا؟ لا أحد يملك الإجابة إلا هو. لقد وعدني بزيارة منزله، وسأستغل تلك الفرصة لأعرف كل شيء.

لماذا أشعر بهذا الفضول القاتل تجاه حياته؟ هل هي حماية لساندرا؟ كلا.. أنا أضلل نفسي. الحقيقة أنني بدأتُ أقع في شباك هذا الرجل، وكلمته اللعينة "لستِ نوعي المفضل" ترن في أذني كخنجر مسموم.

غفوتُ أنا وساندرا على الأريكة في الحديقة، ولم أستيقظ إلا على لمساتها وهي توقظني بصعوبة. فتحتُ عينيّ لأجد رأسي مثقلاً بصداعٍ حاد،

فسألتُها بنعاس: "ماذا هناك؟".

ردت ساندرا: "اصعدي لغرفتكِ ونامي هناك، لقد غفونا هنا طوال ليلة أمس".

بينما كنتُ أصعد الدرج نحو غرفتي، اخترق سكون الفجر رنين هاتفي؛ إنه ماركو اللعين! نظرتُ إلى الساعة، كانت الخامسة فجراً. أجبتُ ليأتيني صوته آمراً: "تعالي حالاً". غسلتُ وجهي على عجل، غيرتُ ملابسي وانطلقت.

وصلتُ أنا ولوكا إلى المقر في اللحظة ذاتها، ترجلنا من سيارتينا فقال لوكا بلهجة ساخرة: "لماذا يرميكِ القدر في طريقي دوماً؟ يبدو أنه مصرّ على صنع حبيبين حقيقيين!".

أطلقتُ زفرة استهجان (تشه) وقلتُ: "فلندخل فحسب".

دخلنا القبو فاستقبلنا جيوفاني ببرود: "لقد تأخرتما، هل أعاقبكما؟".

جلسنا صامتين، فتابع: "لدينا مهمة، لكن لن نشارك بها جميعاً؛ لقد انطلق باولو وفيليكس إلى فرنسا فجر اليوم لتنفيذ خطتهما، وحين يعودان، ستكون 'كورسيكا' قد انتهت. أما 'كوزا نوسترا'، فسنستخدم قائدهم (مورينيو) المحتجز لدينا كسلاح؛ لقد خطفنا عائلته، وسنطلق سراحه بشرط واحد: أن يدمر مافيته ويفككها ويسلمنا ثروته بالكامل مقابل سلامة أسرته، وإلا فالهجوم شامل وعائلته ستنتهي للأبد. المطلوب منكم الآن البقاء بالمقر لدعم باولو وفيليكس".

انتقلنا لغرفة الاستخبارات، وضعنا السماعات وأمامنا الشاشات التي ترصد تحركات باولو وفيليكس. كانت الخطة تمضي بدقة متناهية، نفذا كل ما هو مطلوب ثم استقلا الطائرة عائدين. وصلا في وقت متأخر فرحّبنا بهما بحرارة، وبقينا ننتظر النتيجة بفارغ الصبر، حتى رن هاتف جيوفاني؛ كان أحد رجالنا في فرنسا يقول: "ودّعوا عائلة كورسيكا، لم يعد لها أثر".

غمرت الفرحة المكان؛ لم يتبقَّ لنا سوى سبعة أعداء نقضي عليهم تباعاً. تعانق الشباب بحماس: باولو مع فيليكس، لوكا وجيوفاني، رايدر وبراين وماركو، أما أنا فوقفتُ أراقبهم من بعيد والسعادة تملأ قلبي لنجاح أول مهمة.

قال فيليكس: "جيوفاني، نحن مرهقون ونحتاج يوماً من الراحة، ما رأيك أن تمنحنا غداً إجازة بمناسبة هذا النجاح؟".

رد جيوفاني بتردد: "ولكن، أخذتم راحة قبل البارحة!".

نظرنا إليه جميعاً بنظرات استعطاف، فرقّ قلبه أخيراً وقال: "حسناً، لكن دون أن أضطر للاتصال بكم، أريدكم هنا في الخامسة فجراً بعد غد، مفهوم؟".

أومأنا له، وقبل أن نخرج قلتُ بصوتٍ عالٍ استوقف الجميع: "لا يخرج أحد، لدي موضوع يجب أن أخبركم به!". تسمّروا في أماكنهم باستغراب، فتابعتُ: "لدي وصية يجب أن أوصلها لكم، ترددتُ كثيراً لكن لا بد من قولها".

سأل جيوفاني بجدية: "تكلمي، ما الأمر؟".

"كارولين ترسل لكم سلامها.. لقد قالت لي بالحرف الواحد: 'أوصلي تحياتي لجيوفاني روسو، لوكا موريتي، براين سينزو، رايدر فالكون، باولو فيتال، وماركو بولو'.. فيليكس، هي لا تعرفك لذا لم تذكرك. وأيضاً قالت...".

قاطعني رايدر بذهول: "عن ماذا تهذين؟ هل كارولين على قيد الحياة؟ متى قابلتِها؟".

"كلا، هي متوفاة، لكنها تركت لي هذه الوصية!".

جيوفاني باستنكار: "ولكن متى؟ كنتِ بالسجن حين ماتت، فكيف تركتها لكِ؟".

"لقد بحثتُ في حادثة موتها وتوصلتُ لعدة أشياء، لكن دعوني أكمل يا شباب!".

"حسناً، أكملي".

"تريد إخباركم أنها لم تخنكم أبداً، فلا تظنوا بها سوءاً، بل وماتت في سبيل مافيتنا.. هذا كل شيء. وأنت يا باولو، لو كنت متفرغاً اليوم، هل يمكنك أخذي لقبر كارولين؟ أريد إخبارها بالكثير".

باولو: "تخبرينها؟ وهل ستسمعكِ؟".

"أأنت متفرغ أم لا؟".

"أجل أجل، فلنذهب اليوم".

تدخل لوكا متسائلاً: "ستذهبان بمفردكما؟". (هل يعقل أنه يغار عليّ أخيراً؟).

أومأتُ برأسي فأضاف لوكا: "أين دُفنت كارولين؟".

أجاب باولو: "المكان يبعد قرابة 150 كيلومتراً".

لوكا: "سأذهب معكما!".

باولو: "لا بأس، تعال".

ماركو: "هل لي أن آتي أيضاً؟ أريد رؤية القبر".

جيوفاني: "وأنا أيضاً سأذهب".

براين ورايدر: "ونحن أيضاً!".

فيليكس: "لا أعرف الفتاة، لكن سأذهب معكم، يبدو الأمر ممتعاً!".

قال جيوفاني مبتسماً: "ها قد حولناها لرحلة ترفيهية! قبر كارولين في الريف، سنزورها ثم نخيم في أحضان الطبيعة، ما رأيكم؟".

هتف الجميع: "فكرة رائعة حقاً، سنغير الجو قليلاً".

ابتسمتُ ثم صعدتُ لغرفتي أجمع أمتعتي؛ وضعتُ ملابس نوم، وسلاحاً لحالات الطوارئ، وعطراً، وملابس رياضية مريحة.

نزلنا جميعاً لتناول الفطور في جوٍ سادته الألفة، ثم انطلقنا حاملين ما لذ وطاب من المأكولات التي أعدها الخدم بعناية. استقللنا سيارتنا الفسيحة ذات الثمانية مقاعد؛ تولى ماركو القيادة وبجانبه فيليكس، بينما احتل الصف الثاني براين، باولو، ورايدر. أما في الخلف، فكنتُ حذو لوكا يليه جيوفاني، حيث جلستُ بمحاذاة النافذة.

طوال الطريق، تملكني ارتباكٌ طفيف؛ فالرجل الذي استوطن قلبي يجلس الآن بمحاذاتي تماماً. لطالما خفتُ من هذا الحب، لكنني اعترفتُ لنفسي أخيراً بصدق مشاعري تجاهه، ولم يعد يهمّني ما سيحدث مستقبلاً، فثقتي بحبي له باتت راسخة. شعرتُ بنعاسٍ مفاجئ فتثاءبت، وحينها التقت عيناي بعيني لوكا الصقراويتين، وقال بصوته الرخيم الذي أعشقه: "يمكنكِ الاتكاء على كتفي والنوم".

ابتسمتُ بخجل وقلت: "كلا، أنا بخير"، لكن وعورة الطريق الريفية جعلت رأسي يرتطم بزجاج النافذة بقوة، فما كان منه إلا أن أمسك رأسي برفق ووضعه على كتفه قائلاً: "كم أنتِ عنيدة!".

استسلمتُ أخيراً، وبينما كان رأسي يستند إلى كتفه، رفعتُ بصري خلسة لأتأمل ملامحه الجذابة، وفي كل مرة أتمعن فيها بجماله، أجدني أقع في حبه أعمق. كانت نظرات جيوفاني نحونا غامضة وغير مفهومة، لكنني آثرتُ تجاهلها تماماً.

كسر رايدر حاجز الصمت قائلاً بمرحه المعتاد: "كم أنتم مملون! فلنضع ألحاناً صاخبة ونرقص".

صرخ ماركو محذراً: "لا تفعلوا ذلك دوني، أنا أقود ولا يمكنني الرقص!".

لكن رايدر لم يكترث، وفتح أغنية صاخبة وبدأ يتمايل، وسرعان ما انضم إليه باولو وبراين، فتعالت ضحكاتنا وشاركنهم الغناء بقلوب مبتهجة. لأول مرة، تمنيتُ فعلاً أن يكون لي حبيب يشاركني هذه اللحظات، وتمنيتُ أن يكون هو "لوكاس براون".

وصلنا أخيراً، وترجلنا نتبع خطوات باولو، الوحيد الذي يحفظ مكان القبر. لم نسر طويلاً حتى أشار إلى قبرٍ متواضع بين الآلاف: "هذا هو.. هنا ترقد كارولين".

ناظرني الجميع بترقب، فقلتُ بحزم: "لن أتكلم بحضوركم، ارحلوا من هنا قليلاً".

ابتعدوا بضع خطوات، وحين تأكدتُ من انفرادي بها، همستُ والدموع تخنقني:
"كارولين.. هل أنتِ بخير هناك؟ أمكِ أخبرتني أنها سامحتكِ منذ اللحظة التي رحلتِ فيها. وتعلمين ماذا أيضاً؟ لقد انتقمتُ لكِ من 'أندرو' وتسببتُ بمقتله. ابنتكِ رائعة الجمال وتشبهكِ تماماً، هي وأمكِ تعيشان معي الآن في القصر. السيدة إيفا أصبحت أماً لي، وابنتكِ أختي الصغرى.. إنهما بخير، لا تقلقي. أوه، نسيتُ إخباركِ؛ لقد وقعتُ في الحب! لو كنتِ هنا لضحكتِ طويلاً، لكنكِ لن تحزري من هو.. ربما تظنينه جيوفاني؟ كلا، لقد كان مجرد إعجاب قديم ومحوتُه. إنه لوكا! بل 'لوكاس'.. لقد عرفتُ اسمه الحقيقي، وسيبقى سراً بيننا. وعرفتُ اسمكِ أيضاً: 'سوزان'.. هههه، كارولين أجمل بكثير. لقد حلّ مكانكِ عضو جديد يدعى فيليكس، لم أستطع تقبله بعد.. بقيتُ الأنثى الوحيدة بينهم. اشتقتُ إليكِ.. لماذا لا تجيبين؟ تحدثي معي!".

انهرتُ باكية وأنا أضرب تراب القبر بيديَّ وأصرخ بحرقة، فهرع الأعضاء نحوي: "لماذا لا تجيبينني؟ هيا انهضي! كتمتِ أسراركِ وعانيتِ وحدكِ، وهذا ما يجعلكِ تلتزمين الصمت اليوم أيضاً! اللعنة على تهوركِ!".

جذبني لوكا إلى حضنه محاولاً تهدئتي، فاستسلمتُ لدموعي الصامتة بين ذراعيه. دنا جيوفاني من القبر وقال بأسى: "لقد اشتقنا لكِ.. أنتِ من اخترتِ هذا الرحيل. لطالما أردتُ إبعادكم عن بعضكم لهذا السبب، لكنني نسيتُ أنني إنسان قد يشتاق أيضاً".

براين: "سيليست لم تخبرنا بحكايتكِ كاملة، لكنني أؤمن براءتكِ.. ارقدي بسلام".

رايدر: "تمنيتُ لو كنتِ بيننا الآن، وليس تحت هذا التراب".

باولو بنبرة نادمة: "ألوم نفسي كل ليلة؛ لو منعتُكِ لما غادرتِنا".

ماركو: "لا يسعنا الآن سوى الصلاة لها".

ختم جيوفاني الموقف قائلاً: "هيا بنا يا شباب، سنتأخر".

مكثتُ في حضن لوكا طوال تلك الدقائق، مستسلمةً للحنٍ فريد صنعته دقات قلبه المتسارعة، ومستنشقةً رائحته التي غدت إدماني الخاص؛ مزيجٌ من عطره الرجولي الفاخر ورائحة السجائر العالقة به. لو كان الأمر بيدي، لمكثتُ في هذا العناق أبد الدهر، لكن صوت جيوفاني "فلنذهب" قطع حبل أمنياتي. ابتعدتُ متظاهرةً بالتوتر، إلا أن لوكا، بحدسه الذي ظنني لستُ بخير، أبقى يده متشابكة مع يدي برقة حتى وصلنا السيارة، وساعدني في الصعود دون أن يفلتني.

بعد مسافة ليست بالقصيرة، وصلنا إلى موقع التخييم تزامناً مع استعداد الشمس للمغيب في مشهدٍ أرجواني ساحر. ترجلنا جميعاً؛ انهمك براين ورايدر في نصب الخيام، بينما انطلق ماركو وفيليكس لجمع الحطب، وتولى جيوفاني وباولو تمشيط المنطقة وتأمينها. بقينا أنا وهو، فنظر إليّ لوكا متسائلاً: "ماذا نفعل نحن؟".

أجبته بحيرة: "لا أدري، ماذا تقترح؟".

قال وعيناه تلاحقان الأفق: "فلنتجول في الغابة قليلاً، منظر الغروب هنا مثير وجذاب، فلنشاهده معاً".

تبعته حتى عثرنا على جذع شجرة ضخم، جلسنا عليه في صمتٍ مهيب قبل أن يكسره هو قائلاً: "أترين كيف يظلم العالم حالما تختفي الشمس؟ هكذا هم بعض البشر في حياتنا، حين يختفون تعم العتمة".

كان يتحدث بفلسفة هادئة، بينما كنتُ أنا غارقة في تفاصيل عينيه الجميلتين وفكه الحاد الذي يتحرك بجاذبية قاتلة مع كل كلمة. فجأة، التفت إليّ وضبطني متلبسة بتأمله، فقال بابتسامة غامضة: "لم تنتبهي للغروب، صحيح؟".

تلعثمتُ في دفاعي: "بلى.. أجل.. كلا، لقد شاهدته!".

ابتسم بسخرية وكأنه بدأ يدرك السر الذي يخفيه قلبي. هل سيقبل مشاعري حين أبوح بها؟ الأرجح أنه لا، لكنني لن أكرر خطئي السابق وأكتم حباً قد يقتلني صمته؛ سأخبره، لكن ليس الآن.

حلّ الظلام أخيراً فقررنا العودة. كنتُ أمشي خلفه، أتمعن في ظهره العريض المعضل وشعره الناعم الذي يداعب رقبته، شاردةً لدرجة أنني لم أرَ ما تحت قدمي. لم أشعر إلا وأنا أسقط أرضاً، وصرخة ألم مكتومة أفلتت مني حين شعرت بتمزق في كاحلي. عاد إليّ في لمح البصر، ونزل لمستواي والقلق يعبث بملامحه وهو يتفحص ساقي بتوتر: "ماذا بكِ؟ ما الذي أصابكِ؟".

أشرتُ إلى موضع الألم، فقال: "الظاهر أنكِ لويتِ كاحلكِ، حاولي النهوض".

أمسك بكتفي ورفعني، لكنني لم أستطع تحميل وزني على قدمي، فالألم كان يلسعني كالنار. وبخفة مذهلة، رفعني بين يديه؛ يدٌ تحت ظهري والأخرى تحت ساقي، وهو يقول بجديّة: "أظنها إصابة بليغة، أتمنى أن يكون باولو قد أحضر حقيبته الطبية".

تملكني خجلٌ عارم من تلك الوضعية؛ فالحرارة تنبعث من جسده، ووجهي بات قريباً جداً من وجهه، فلم أجد مهرباً سوى دفن وجهي في رقبته أستنشق عطره من جديد.

حين وصلنا للمخيم، هبّ الجميع في صدمة وحيرة، فأخبرهم لوكا بالواقعة. باشر باولو عمله على الفور، عقم الإصابة ولفها بالضمادات بمهارة، بينما كنتُ أراقب اهتمامهم بي.

تناولنا طعامنا في أجواء ريفية هادئة، ثم تحلقنا جميعاً حول النار المشتعلة، نراقب النجوم تارة ونشوي المارشميلو تارة أخرى، وكان لوكا قد اختار مكانه بجانبي تماماً، كأنه يعلن حمايته لي أمام الجميع.

كان خرير النهر ينساب في الخلفية، ممتزجاً بأصوات الغابة الليلية ليشكل مقطوعة من الهدوء المريح، حتى اخترق هذا التناغم صوت رايدر المزعج بمقترحه المعتاد: "فلنكسر هذا الملل بلعبة يا شباب!".

سأله ماركو وهو يفرك يديه أمام النار: "وماذا سنلعب؟".

أجاب رايدر بحماس: "حقيقة أم جرأة! الموافقون يرفعون أيديهم الآن".

تبادلنا النظرات، وبما أن الخيارات كانت معدومة في هذا الخلاء، رُفعت الأيدي بالموافقة. تناول رايدر زجاجة نبيذ فارغة وأدارها بمهارة، لتستقر فوهتها مشيرةً إلى جيوفاني، بينما كان "السائل" هو فيليكس.

سأل فيليكس بخبث: "حقيقة أم جرأة يا زعيم؟".

أجاب جيوفاني بثباته المعهود: "جرأة طبعاً!".

قال فيليكس وهو يبتسم: "إذن، انهض الآن.. غنِّ وارقص أمامنا!".

حاول جيوفاني الرفض في البداية، لكن هتافاتنا لم تترك له خياراً؛ فنهض وبدأ يتمايل ويغني في مشهدٍ سريالي طريف؛ القائد الصارم الذي يرتعد له الجميع، يرقص كالمجنون تحت ضوء النجوم. تعالت ضحكاتنا حتى دمعت عيوننا، ثم عاد لمكانه وأدار الزجاجة لتقع على رايدر وبراين.

رايدر: "حقيقة أم جرأة؟".

براين: "حقيقة".

رايدر متسائلاً بفضول: "هل أنت واقع في الحب؟".

أجاب براين بكلمة واحدة: "أجل".

انفجر المكان بالهتافات والصفير، فاحمرّ وجه براين خجلاً، ليلاحقه
رايدر بسؤالٍ آخر: "ومَن تكون؟ هل هي معنا الآن؟".

ضربتُ كتف رايدر لإيقافه، بينما تلعثم براين قائلاً: "لن أجيب.. لك الحق في سؤال واحد فقط!".

أُديرت الزجاجة مرة أخرى، وهذه المرة استقرت بين ماركو وبيني.

سألني ماركو بابتسامة: "حقيقة أم جرأة؟".

قلتُ وأنا أشير لكاحلي المضمّد: "بما أنني عاجزة عن الحركة، سأختار الحقيقة".

ماركو: "إذن يا آنسة سيليست.. هل وقعتِ في الحب من قبل؟".

ابتسمتُ بسخرية وألقيتُ بنظرةٍ عابرة نحو جيوفاني قبل أن أجيب: "من قبل؟ الحقيقة.. أجل".

بينما كان الجميع يضحكون، أضاف ماركو بذكاء: "وماذا عن الآن؟".

قلتُ بوقار: "لديك الحق في سؤال واحد فقط يا ماركو!".

لم تهدأ اللعبة، فأدار رايدر الزجاجة لتقع بين جيوفاني وبيني من جديد.

سألني القائد وعيناه تخترقان صمتي: "هل أنتِ واقعة في الحب الآن؟".

قلتُ بهدوءٍ مريب، بينما كانت عيناي تستقران على لوكا: "الآن؟.. أجل، أنا كذلك".

ساد صمتٌ مصدوم لدقائق قبل أن يكسره رايدر بتدوير الزجاجة لتستقر عند باولو، الذي سألني بفضول: "ما هو مفهومكِ للحب يا سيليست؟".

فكرتُ قليلاً وأنا أراقب ألسنة اللهب ثم قلت: "الحب شيءٌ رائع وسيء في آنٍ واحد؛ إنه أشبه بتجهيز وليمة فاخرة لضيوفٍ تنتظرهم بشوق، ثم فجأة.. لا يأتي أحد. تشعر حينها بخذلانٍ يمزق أحشاءك، وبينما أنت تنهار وسط التعب والأسى، يأتي ضيفٌ واحد منهم، يجلس معك ويشاركك طعامك، فيعيد الابتسامة لوجهك وينتشلك من حطام الخذلان الذي خلفه الآخرون".

علق رايدر بنبرة جادة: "وجهة نظر عميقة حقاً".

نحيتُ قطعة المارشميلو جانباً وحاولتُ الاقتراب من النار أكثر، فقد بدأ البرد يتسلل إلى عظامي. فجأة، نهض لوكا من جانبي بصمتٍ ودخل الخيمة. راقبناه باستغراب، فقال باولو: "ما باله؟ هل غضب لأن الزجاجة لم تختره؟".

بينما كنا نحلل تصرفه، خرج لوكا حاملاً غطاءً صوفياً دافئاً، وضعه على كتفيّ بعناية ثم عاد لجلسته بجانبي. شعرتُ بنظراتهم تخترقني، فأنزلتُ رأسي وهمستُ بامتنان: "شكراً لك".

قلّد رايدر صوتي بنبرة متهكمة: "شكراً لك!.. أنتما الاثنان تصرفاتكما تثير الريبة، احذرا مني فلدي ملاحظات كثيرة".

أجاب لوكا ببرود وهو يحرك المارشميلو فوق النار: "أغلق فمك، كل ما في الأمر أنها شعرت بالبرد فأحضرتُ ما يدفئها".

رايدر: "ولكنها ليست المرة الأولى التي أمسككما فيها بالجرم المشهود!".

رمقته بنظرة حادة جعلته يتراجع قائلاً: "لا تنظري لي هكذا، نظراتكِ تقتلني رعباً".

تكهرب الجو قليلاً، لكن باولو قفز فجأة متجهاً نحو السيارة. سخر رايدر: "سيحضر غطاءً لجيوفاني هو الآخر!".

ضحك الجميع إلا أنا ولوكا. عاد باولو حاملاً غيتاراً، وجلس ليبدأ بعزف لحنٍ رومانسي دافئ لأغنية " Bleeding ". انسجمنا جميعاً مع اللحن، وغنينا الكلمات بصوتٍ واحد في لحظةٍ حميمية نادرة.

في تلك اللحظة، داهمتني فكرة مرعبة: "هذه الشلة.. هل ستختفي يوماً كما اختفت كارولين؟ مَن سيكون التالي؟". نظرتُ لتعابير الفرح على وجوههم فازداد حزني خفية. كان لوكا آخر مَن نظرتُ إليه، بادلني بنظرة حنونة بينما لا يزال يغني معهم، ثم مد يده بقطعة مارشميلو مشوية ووضعها في فمي برفق لأن يداي كانتا تحت الغطاء. صدمتُ من جرأته أمامهم، وشعرتُ بالخجل يسيطر عليّ بينما بدأت وجنتاي تشتعلان حمرةً.

حين انتهى الغناء، داهمنا النعاس. تركنا النار مشتعلة وتوجهنا للخيام. كانت خيمتي تتوسط خيمة لوكا وخيمة جيوفاني، تماماً كما هو حال قلبي؛ جزءٌ منه لا يزال عالقاً بذكرى جيوفاني، والجزء الأكبر والأنبض قد استأثره لوكا تماماً.

استلقيتُ على اللحاف بعد أن استبدلتُ ثيابي بأخرى مريحة، لكن النوم جافاني تماماً؛ فشرائط الذكريات الرومانسية مع لوكا كانت تمر أمام عينيّ كفيلمٍ سينمائي ساحر.. رأسي المستند على كتفه في السيارة، عناقه الدافئ عند قبر كارولين، حمله لي بين ذراعيه في الغابة، ومراقبتنا لغروب الشمس في صمتٍ بليغ، وصولاً إلى إطعامه لي المارشميلو وتغطيته لي من البرد.

غطيتُ وجهي باللحاف والضحكة تملأ قلبي خجلاً، وتساءلتُ بذهول: "أين ذهبت يارا القوية، تلك التي لم تكن تحب إلا نفسها؟".

لقد حطّم لوكا تلك الأسوار وصنع مني فتاةً رقيقة، نابضة بالمشاعر كباقي الفتيات.

بينما كنتُ غارقة في أحلامي الوردية، اخترق مسامعي صوت غريب خارج الخيمة. ارتديتُ سترةً وخرجتُ لاستطلع الأمر، وفور أن أخرجتُ رأسي، وجدتُ لوكا يخرج رأسه من خيمته هو الآخر في اللحظة ذاتها! تبادلنا ابتسامةً غارقة بالارتباك، ثم تقدم نحوي وسأل بهدوء: "ما الأمر؟ لما أنتِ في الخارج؟".

"سمعتُ صوتاً غريباً وأردتُ أن أرى مصدره".

سألني بمكر: "ألا تخافين؟".

أجبته بثقة: "وممَّ أخاف؟ وأنا محاطة بسبعة رجال مافيا!".

ضحك بخفة وقال: "هذا صحيح.. لماذا لم تنامي؟ الوقت تأخر جداً".

"لم أستطع.. وأنت؟".

"أنا أيضاً لم أستطع".

تقدم وجلس في مكاننا المعتاد حول رماد النار المنطفئة، وبقيتُ أنا في مكاني مترددة، حتى حسم هو الأمر وناداني للجلوس معه. جلسنا في صمتٍ ثقيل، وبقي يطيل النظر إليّ حتى شعرتُ بالتوتر ينسلُّ إلى أعصابي، فسألتُه بمحاولةٍ لكسر الصمت: "إلى ماذا تنظر؟".

شاح ببصره بعيداً وقال بتلعثمٍ غير معتاد: "آه، عذراً.. لكن عيناكِ جذبتاني بقوة، حاولي ألا تغطيهما بشعركِ مجدداً".

تأثرتُ كثيراً بكلماته؛ فقد اعتدتُ أن أترك شعري منسدلاً على وجهي، لكنني اليوم كنتُ أربطه استعداداً للنوم، ويبدو أن عينيّ قد نالتا إعجابه حقاً.

نظر إلى كاحلي وسأل بقلق: "هل لا يزال يؤلمكِ؟".

نفيتُ برأسي: "كلا، أستطيع المشي الآن".

"هذا جيد.. لقد قلقتُ عليكِ كثيراً".

كان الجو يفيض بالرومانسية، وما زاده سحراً هو انطفاء بقايا النار تماماً. سألتُه: "هل أشعل ناراً جديدة؟".

أجاب وهو ينظر للسماء: "لا داعي.. فالقمر هنا، وهو يضيء الليلة بكل بهاء!".

ظننته يتحدث عني فخجلت بعض الشيء، لكنه أشار بيديه إلى القمر الحقيقي. بقينا نراقب النجوم في صمتٍ مهيب حتى قال: "انظري هناك.. هل ترين تلك النجمات الست؟ إنها تمثل الأعضاء النائمين، أما هاتان النجمتان اللامعتان والمتقاربتان، فهما أنا وأنتِ الآن!".

ابتسمتُ بصدق وقلت: "كلامك لطيف جداً.. أشكرك على مساعدتك واهتمامك بي طوال اليوم".

فرك مؤخرة رقبته بخجل وقال: "كلا، لا تشكريني، هذا واجبي".

همستُ في نفسي: "لكن ليس من واجبه إطعامي أو معانقتي!".

لم نشعر بالوقت يمر إلا حين بدأت خيوط الفجر الأولى تلوح في الأفق.

قال بدهشة: "يا للروعة! شهدنا معاً غياب الشمس والآن نشهد شروقها.. أليس هذا مميزاً؟".

أومأتُ برأسي: "الغريب أننا لم ننم ليلة كاملة، ومع ذلك لا أشعر بالتعب!".

"أنا أيضاً.. الجلوس معكِ يحسن مزاجي. فلنشهد بزوغ الشمس ثم نعود لخيامنا، فلا أريد أن يسجل 'الواشي' رايدر مزيداً من الملاحظات علينا".

ضحكتُ بخفة ووافقتُه الرأي. وبعد أن أشرقت الشمس وأنارت المكان، نهضنا لنعود. كانت نظراته نحوي تفيض بالإعجاب والتقدير. دخلتُ خيمتي واستلقيتُ، لكن دقات قلبي كانت كطبولٍ تقرع في صدري. "ما كل هذه الرومانسية؟" تساءلتُ بذهول، فقد غلبني الخجل والهدوء لدرجة أنني لم أستطع تركيب جملة مفيدة واحدة معه!

كنتُ غارقة في أفكاري حتى تناهى إلى مسمعي ضجيج الأعضاء وهم يستيقظون بنشاط. استبدلتُ ملابسي وخرجتُ إليهم، ألقيتُ تحية الصباح بابتسامةٍ حاولتُ أن تبدو طبيعية، وانضم إلينا لوكا الذي سرق لحظةً ليغمزني بمكرٍ دون أن يلحظنا أحد؛ لم أتمالك نفسي فابتسمتُ جانبياً وبادلته الغمزة بابتسامة.

تناولنا فطورنا في أجواءٍ تملؤها حيوية الريف، ثم حزمنا أمتعتنا واستقللنا السيارة في رحلة العودة إلى المقر.

في الطريق، استسلمتُ لنعاسٍ عميق، ولم أستيقظ إلا على صوت ماركو وهو يوقظنا بمرح؛ وجدتُ رأسي لا يزال مستقراً على كتف لوكا، بينما كان هو غارقاً في النوم ورأسه مسندٌ فوق رأسي في مشهدٍ لو رآه رايدر لما صمت للأبد.

دخلنا الفيلا، وسارعتُ بالصعود لغرفتي لأنال قسطاً من الراحة الحقيقية. استيقظتُ في التاسعة صباحاً، وبعد حمامٍ دافئ منعش، نزلتُ إلى قاعة الجلوس لأجد جيوفاني يشاهد التلفاز بتركيز، فجلستُ بجانبه. كانت ذكريات الليلة الماضية مع لوكا تمر ببالي كشريط سينمائي، وكلما تذكرتُ تفصيلاً، ارتسمت على وجهي ابتسامة لاإرادية.

لاحظ جيوفاني ذلك فقال ساخراً: "تبتسمين وحدكِ كالمجنونة! ما خطبكِ؟".

"كلا، لا شيء".

"آه نسيتُ أنكِ واقعة في الحب حاليا هههه.. اللعنة، أنتِ ضعيفة أمام الحب!".

"أجل، صحيح، أعترف بذلك".

في تلك اللحظة، نزل لوكا وانضم إلينا قائلاً بنبرة عمليّة: "سيليست، هل نذهب لإكمال مهمتنا؟".

أجبته بحماس: "طبعاً، هيا بنا!".

تدخل جيوفاني قائلاً: "سوف ننفذ اليوم ثلاث خطط دفعة واحدة، لذا سيكون المقر مكاناً صاخباً ومزعجاً لكما، ابحثا عن مكانٍ آخر لتعملا فيه بهدوء".

سأل لوكا باستغراب: "ألن نحضر خلال تنفيذكم للخطط؟".

"لن نحتاجكما حالياً، وإن استجد شيء فسنتصل بكما. لا تنسيا، مهمتكما هي الأصعب والأكثر تعقيداً، فاعملا بجد".

"حسناً، ما الخطط التي ستنفذونها اليوم؟".

اعتدل جيوفاني في جلسته وشرح ببرود: "أولاً، سنقضي على 'كوزا نوسترا' تماماً بمساعدة قائدهم مورينيو. ثانياً، استغللنا نشر 'كارتل سينالوا' لفيروسها في الصين وموت أعضاء من 'النمور الثلاثة'؛ سنخبر النمور بالحقيقة لنجعلهم يفتكون بالسينالوا. أما ثالثاً، فعصابة 'كوماندو فيرميلو' بالبرازيل تخطط لسرقة مجوهرات ألمانية اليوم، سنقوم بإفشاء الخطة لعصابة 'الضوء الأحمر' ليصطدما معاً. هكذا في يوم واحد، سندمر ثلاث قوى ونضعف اثنتين، ثم نتدخل نحن في الوقت المناسب لنجهز على البقية بطريقتنا".

أجاب لوكا بإعجاب: "حظاً موفقاً، اتصلوا بنا لو احتجتم شيئاً، رغم أنني واثق من نجاحكم الحتمي".

خرجنا بعد أن أحضرنا ملفاتنا، وركبنا سيارة لوكا بناءً على طلبه. وفي الطريق، تملكني الفضول فسألته: "إلى أين نحن ذاهبان؟".

رد بابتسامة غامضة: "أليست فرصة مناسبة لترَيْ منزلي؟".

قلتُ ضاحكة: "ههه، أوه أجل، بالتأكيد".

لم يكن منزله بعيداً، يقع تقريباً في قلب المدينة، لكنه لم يكن مجرد منزل؛ كان قصراً مهيباً يفوق قصري ضخامةً وفخامة. ترجلنا ودخلنا، فبهرني التنسيق الراقي للمكان. سألني: "ما رأيكِ؟ أنجلس في الحديقة أم في المكتب؟".

"الحديقة".

أمر خدمه بتجهيز الجلسة، وبسرعة البرق نفذوا أمره. جلسنا نرتشف القهوة، فقلتُ بإعجاب: "لديك ذوق رفيع حقاً!".

ضحك قائلاً: "لكنكِ لم ترَيْ باقي القصر بعد، هيا بنا في جولة".

نهضتُ خلفه، طفنا بالمطبخ، الحمامات، وغرفة الجلوس، حتى وصلنا أمام جناح نومه. وفجأة، اخترق السكون صوت طفل صغير من ورائنا ينادي: "بابا!".

التفتُّ بذهول، ورأيت طفلاً يركض نحو لوكا ويرتمي في أحضانه! تجمّدت مكاني؛ لوكا متزوج وله طفل؟ كان هذا آخر ما قد أتخيله في حياتي.

نظر إليّ لوكا بابتسامة هادئة وقال: "دانيال، قل مرحباً للآنسة يارا".

ابتسم الصغير بلطافة وقال: "مرحباً".

أنزله لوكا قائلاً: "الآن بابا لديه عمل يا صغيري، اذهب والعب قليلاً، وحين ننتهي سنخرج للتنزه معاً".

أومأ الطفل بابتسامة فرحة وغادر يركض.

كانت ملامح الصدمة لا تزال مرسومة على وجهي. لاحظ لوكا ذلك فابتسم وقال: "فلنعد للحديقة، سأحكي لكِ كل شيء".

عدنا وجلسنا، فسألني: "لماذا تبدين مصدومة هكذا؟".

"لم أكن أعلم أنك متزوج ولك طفل!".

ضحك بمرارة وقال: "اسمه دانيال، عمره أربع سنوات، لكنني لست متزوجاً.. لقد ماتت أمه وهي تلده".

قاطعته بسرعة: "اسمها كاميلا، صحيح؟".

نظر إليّ باستغراب: "أجل، من أين تعرفين؟".

"سمعتُ حديثك مع كريس في ذلك اليوم".

"ههه، إذن عرفتِ ما كان يشغل تفكيركِ!".

"ومن قال إنك تشغل تفكيري؟ لكن.. لماذا لا تبدو متأثراً برحيل زوجتك؟".

تنهد وقال: "لأنني لم أكن أحبها، بل لم أكن أعرفها أصلاً. حين بلغت الخامسة والعشرين، كنت في المافيا مع جيوفاني ولم أخبر عائلتي. ادّعيتُ أنني أعمل في شركة، ونظراً للدخل المرتفع، ظنت أمي أنني ضمنت مستقبلي فقررت تزويجي من فتاة لا أعرفها. وافقتُ فقط كي لا يكتشفوا أمري. تزوجنا وعلمتُ لاحقاً أنها حامل، وبحكم ظروف المافيا، لم أكن أبقى في المنزل كثيراً، لذا لم نتعرف حقاً. وعندما رزقتُ بدانيال ماتت كاميلا. كانت قبل موتها تشتكي لأمي غيابي، فوضعت أمي جاسوساً يراقبني، واكتشفت بعد سنتين حقيقتي. طردتني أنا ودانيال من المنزل لأنني كلفتها بتربيته. لم يكن لي خيار سوى العيش معه هنا، وظفتُ الخدم للاعتناء به، وأحطتُ القصر بالأمن والكاميرات لأضمن سلامته.. واليوم أنا في الثلاثين ودانيال في الرابعة. هذا كل شيء، أتريدين معرفة المزيد؟".

بقيتُ صامتة أحاول استيعاب قصته، حتى أضاف: "لقد عرفتِ حياتي، الآن جاء دورك.. من تكون تلك السيدة التي تنادينها 'أمي'؟".

"قصة طويلة، لو أخبرتك لن تصدقني".

"سأصدقكِ حتما، أخبريني".

"إنها أم كارولين، والطفلة كايلي هي ابنة كارولين. بعد موتها، اكتشفتُ أن وصيتها كانت الاعتناء بهما، فأخذتهما للعيش معي.. ولن تصدق من والِد الطفلة".

"من يكون؟".

"إنه أندرو إل دوتشي!".

صاح بذهول: "مستحيل! كيف؟".

"أندرو قتل كارولين لأنها رفضت الانضمام لمافيته، ونحن قتلناه انتقاماً لها. لذا أشعر بتأنيب الضمير تجاه كايلي ابنتهم".

"هذا صادم ومثير حقاً.. لاحظتُ كيف أن أم كارولين أحبّتكِ، وهذا شيء جيد".

"أجل، جيد جداً".

"لكنكِ حكيتِ لي عن كارولين، ماذا عن حياتكِ أنتِ؟".

ابتسمتُ بمرارة وقلت: "أنا ببساطة كنت مراهقة في السادسة عشرة حين قتلت والدتي والدي لتتزوج من عشيقها، وأنجبت منه مايا، أختي الصغيرة. حين ساءت الأمور بينهما، هجرت أمي المنزل وتركتني معه ومع ابنته وأنا في الثامنة عشرة. عذبني وعاملني كخادمة، فكنت أهرب للشارع لأنني كنت متمردة. هناك تعرفتُ على جيوفاني، وأدخلني المافيا حيث عرفتكم جميعاً. في

الثالثة والعشرين دخلت السجن، وبعد خروجي مات زوج أمي، فاضطررت لترك مايا مع ساندرا لتربيتها، والآن نعيش جميعاً كعائلة واحدة".

علق لوكا بجديّة: "حياتكِ مثيرة أيضاً. انضمامكِ للمافيا كان هروباً من طفولة قاسية، وهذا بديهي، فأغلبنا هنا إما مرضى نفسيون أو منتقمون من العالم".

"أجل، وما سبب انضمامك أنت؟".

"بالنسبة لي، تركتُ الدراسة مراهقاً ولم أجد من يعيلني، فعائلتي كانت قاسية جداً. كان جيوفاني حينها يبيع المخدرات أمام المعهد، صرنا مقربين وأخبرني برغبته في إنشاء مافيا خاصة، فدعمته وجمعنا الأعضاء وصرنا ما نحن عليه اليوم".

"قصة مؤثرة.. لكن لماذا كانت عائلتك قاسية معك؟".

"لا أدري، لكنهم السبب فيما أنا عليه الآن. في الحقيقة، أنا وأنتِ ضحايا لعائلاتنا".

"معك حق".

"ألا تعرفين أين أمكِ الحقيقية الآن؟".

"كلا، ولم أفكر في البحث عنها. ربما متزوجة ولديها أطفال وتعيش حياة عادية كأن لا ماضي لها معي ومع مايا، أو ربما ماتت.. لا يهمني".

"انشغلنا بالحديث ونسينا المهمة!".

"معك حق.. فلنبدأ العمل".

استمررنا في العمل حتى غلبتنا الساعة، ولم يقطع اندماجنا إلا دخول دانيال الصغير وهو يجر أذيال الخيبة قائلاً: "بابا، لم تأخذني للتنزه كما وعدت".

حمل لوكا ابنه بحنان وقال: "سنذهب الآن يا صغيري". ثم التفت إليّ بعينين يلتمعهما الرجاء: "ما رأيكِ؟ هل تذهبين معنا للملاهي؟ لقد أنجزنا الكثير وقاربنا على إنهاء المهمة، ونحتاج لبعض الترويح".

ترددتُ قليلاً وأنا أجيب: "أود ذلك حقاً، لكن عليّ زيارة عائلتي في المنزل".

فأصرّ قائلاً: "تعالي معنا وسنعود باكراً لأوصلكِ بنفسي، ما قولكِ؟".

ابتسمتُ وقلت: "حسناً، وافقت!".

ركبنا السيارة؛ أنا ولوكا في المقدمة ودانيال في الخلف يراقبنا بفضول طفولي، حتى سأل: "بابا، من هذه الآنسة؟ ولماذا ستذهب معنا؟".

ابتسم لوكا وردّ بهدوء: "إنها زميلة بابا في العمل، وستكون صديقتنا، حسناً؟".

ثم همس لي والابتسامة لا تفارق وجهه: "ليس معتاداً على رؤيتي مع نساء، لذا هو حائر تجاهكِ".

قلتُ بمداعبة: "أنت وفيّ إذن؟ هذا جيد!".

فأجاب بنبرة جادة: "وفيّ أجل.. لكن ليس لذكرى كاميلا، بل لدانيال، ولنفسي".

وصلنا الملاهي، ونزلنا وسط صخب الألعاب والأضواء. قال لوكا لدانيال: "هل تريد اللعب؟"، فقفز الصغير فرحاً. طلب مني لوكا الانتباه إليه ريثما يحضر التذاكر، فجلستُ بجانب الصغير الذي كان يعبث بأصابعه ويراقب الأطفال.

سألتُه لأكسر الجمود: "هل لديك أصدقاء؟"، فأومأ برأسه نفيا. سألتُه ثانية: "ألم تحبني؟".

صدمتني إجابته حين هزّ رأسه بالرفض! "ولماذا؟" سألتُه بذهول.

قال بصدق جارح: "لأنكِ ستأخذين بابا مني! ستتزوجان وتتركاني وحيداً".

شعرتُ برغبة في ضمه وقلتُ بحنان: "كلا، لن نتركك أبداً! اعتبرني (ماما)، حسناً؟".

اتسعت عيناه وقال: "لكن ليس لدي ماما!".

"أنا سأكون ماما خاصتك، وسأعاملكِ بلطف أكثر حتى من مربيتك".

قفز فرحاً وهو يهتف: "لدي ماما خاصتي!". أسرعتُ بإجلاسه حين رأيتُ لوكا قادماً وهمستُ له: "اجعل الأمر سراً بيننا ولا تخبر بابا".

فغمزني بخبث طفولي: "حسناً ماما خاصتي!".

لكن بمجرد وصول لوكا، فضحني اللعنة الصغير قائلاً: "بابا، لدي ماما خاصتي! إنها الآنسة يارا، أخبرتني أنها لن تتركني وحيداً حين تتزوجان".

شعرتُ حينها أن الأرض ستبتلعني من شدة الخجل، بينما ضحك لوكا وناظرني بنظرةٍ جعلت دمي يتجمد في عروقي.

أدخل ابنه لمنطقة الألعاب، وجلسنا على مقعد خشبي نراقبه. حاولتُ تبرير الموقف بتلعثم: "لا تفهمني خطأ، لقد كان الصغير يظن أننا سنتزوج لذا أخبرته...".

قاطعني لوكا بهدوء مباغت: "ألم تعجبكِ فكرة ابني؟ أنا أعجبتني!".

سألتُه بذهول: "أي فكرة؟".

قال بثبات: "زواجنا.. هو يريدكِ أماً له، وأنا أريدكِ زوجة لي".

توقف الزمن للحظة. هل عرض عليّ الزواج للتو بهذه البساطة؟

تدارك محاولاً تلطيف الصدمة: "أعلم أن الأمر مفاجئ، لكنني لستُ غبياً يا سيليست؛ أعلم أنكِ معجبة بي، وأنتِ تعلمين أنني أحبكِ. لا داعي للتلميحات".

قلتُ محاولةً استعادة توازني: "لكنك لم تعترف لي بحبك أصلاً، لقد قفزتَ مباشرةً لطلب الزواج!".

ضحك وقال: "أجل، أظنني تجاوزتُ مرحلة الاعتراف. اسمعي، أنا أحمق في هذه الأمور فلا تبالي".

"أنت أحمق حقاً! عجز عقلي عن التفكير من قوة الصدمة".

"هل يعني هذا أنكِ موافقة؟".

"ليس بعد.. انتظر حتى أفكر بالأمر!".

"لكن عقلكِ عالق!".

"إذن اصمت قليلاً حتى أستعيد تركيزي!".

الآن، انقلبت الطاولة تماماً وتحول "التمثيل" إلى "حقيقة" محتملة..

في تلك اللحظة، شعرتُ وكأن العالم قد كتم صوته فجأة، ولم يعد يتردد في مسمعي سوى الإيقاع المتسارع لدقات قلبي. أنهى دانيال لعبه، فذهب لوكا لإحضاره، وعاد محملاً بالمثلجات لنا جميعاً.

أخذتُ حصتي من يده، لكن الصدمة كانت قد شلّت تفكيري لدرجة أنني نسيتُ كيف تُفتح! تولى هو المهمة وفتحها لي، والآن... نسيتُ حتى كيف تُؤكل!

قطع لوكا شرودي قائلاً بنبرة مداعبة: "ألهذه الدرجة وقعتِ تحت تأثير الصدمة؟".

أجبته بهمس: "وهل تظن أن ما حدث أمر عادي يمر بسلام؟".

"الحقيقة، أجل.. فقد تدربتُ طويلاً في مخيلتي على هذا الموقف، لكنني لم أتوقع أبداً أن تكون ردة فعلكِ بهذا الذهول!".

وقف دانيال بيننا، ينظر إليّ بفضول طفولي: "بابا، لماذا (ماما خاصتي) مصدومة هكذا؟".

أجابه لوكا وهو يغمز لي: "أتريد أن تعرف لماذا؟ لأنها رأتك تلعب كالبطل المغوار، لقد صُدمت من مدى قوتك وشجاعتك يا بني!".

التفت إليّ الصغير وقال بزهو: "ماما خاصتي لا تنصدمي، لم تري شيئاً بعد.. مازال لدي الكثير من القدرات الخارقة التي سأريكِ إياها!".

انفجرنا ضحكاً على براءته، ثم باغت دانيال والده بسؤال: "بابا، متى ستتزوج من ماما خاصتي؟".

رد لوكا وهو يداعب شعره: "أنا أحاول إقناعها يا بني، هي مازالت تفكر في الأمر، ألا تساعدني في إقناعها؟".

نظر دانيال في عينيّ بتوسل وقال: "ماما خاصتي، لا تفكري كثيراً.. بابا رجل صالح جداً، هو يحبني ويعتني بي، كما أنه لم يحضر لي (ماما) أخرى من قبل.. وافقي أرجوكِ! هيا، أخبريني أنكِ موافقة!".

لم أستطع المقاومة أكثر، قرصتُ خده برقة وقلتُ بابتسامة غلبت خجلي: "ماذا عساي أفعل؟ سأوافق ما دام (صغيري الخاص) هو من طلب مني ذلك".

قفز دانيال فرحاً وهو يصفق بحماس: "ماما خاصتي ستتزوج بابا! ماما خاصتي ستتزوج بابا!.. ولكن متى؟".

أجلسه لوكا على فخذه وقال بهدوء: "أنت تتذكر عمك كريس، أليس كذلك؟".

أومأ الصغير، فأكمل لوكا: "عمك سيتزوج أخت (ماما خاصتك) الشهر المقبل، وبعد زفافهما مباشرة، سيكون زواجي من ماما، حسناً؟".

"حسناً.. هل لدى ماما أخت أخرى؟".

"أجل، لديها أخت صغرى".

هتف دانيال بذكاء طفولي: "رائع! إذن بعد زواجكما، سأتزوج أنا من أخت ماما الصغرى.. هذا ترتيب مناسب، أليس كذلك بابا؟".

ضحك لوكا قائلاً: "ههه، كلا يا بطل.. أخت ماما الصغرى أكبر منك، ستكون بمثابة أختك الكبرى، اتفقتما؟".

"حسناً.. إذن ستصبح لدي ماما وأخت أيضاً؟ هذا جميل جداً بابا".

ناظرني لوكا بعينين تلمعان بالظفر وقال: "لقد تحمس هذا المشاغب أكثر من اللازم، لذا لم يعد بإمكانكِ التراجع عن قرارِكِ الآن".

قلتُ بتمرد مصطنع: "لن أتراجع، لكن تذكر أنني وافقتُ لأجل دانيال فقط، وليس لأجلك!".

صاح لوكا بذهول مصطنع: "ماذا؟! هل هذا عدل؟ لقد سرق الصغير الأضواء مني! سيليست.. لا تجعليني أغار من ابني منذ الآن!".

تعالت ضحكاتنا في الأرجاء، ثم اتجهنا إلى السيارة والوقت يشير إلى الثامنة مساءً. أوصلني لوكا إلى باب منزلي، وقبل أن أنزل، ناداني دانيال: "ماما خاصتي، لقد استمتعتُ معكِ اليوم.. أريد قبلة!".

اقتربتُ منه وطبعتُ قبلة على خده فبادلني بمثلها، حينها تمتم لوكا بتذمر مضحك: "هذا الحقير الصغير قبّلها قبلي!".

ضحكتُ على غيرته وقلتُ: "تصبح على خير يا صغيري، وتصبح أنت على خير يا والد صغيري".

رد لوكا بابتسامة دافئة: "وأنتِ من أهل الخير يا أم صغيري".

نزلتُ من السيارة والبهجة تتراقص في قلبي، بينما انطلقا عائدين ودانيال لا يكف عن التلويح لي بيده الصغيرة عبر النافذة حتى اختفت السيارة عن الأنظار.

ما إن توارت السيارة عن ناظري، حتى طرقتُ الباب ودخلتُ والسرور يفيض من عينيّ. وجدتُ الأم إيفا وساندرا تجلسان في قاعة الجلوس، فألقيتُ عليهما التحية والابتسامة لا تفارق ثغري. انحنيتُ نحو الأم وقبّلتُ رأسها بحنان، ثم اتجهتُ نحو ساندرا وقبّلتها هي الأخرى، قبل أن أرتمي على الأريكة بجانبهما وأنا أضحكُ في صمتٍ غريب.

رمقتني الأم بنظرة فاحصة وقالت: "تبدين سعيدة للغاية اليوم، ما الذي يجري معكِ يا ابنتي؟".

علقت ساندرا بذهول: "إنها المرة الأولى التي أراها تضحك فيها بهذا الشكل.. أنتِ تخيفينني يا فتاة! لا تقولي لي أنكِ تعاطيتِ شيئاً مثل المخدرات؟".

أجبتها بحدة ممزوجة بالمرح: "أي مخدرات يا لعنة! اسكني ولا تعكري صفيّ مزاجي".

أصرّت الأم: "ولكن أخبرينا، ما سر هذه السعادة التي تنطق بها ملامحكِ؟".

تنهدتُ بعمق وقلت: "لقد عرض عليّ لوكاس الزواج.. وقد قبلت. سنتزوج فور انتهاء زفاف ساندرا وكريس مباشرة".

تهلل وجه الأم وقالت بفرح: "هذا رائع! أخيراً استطاع إقناعكِ؟".

قلتُ بابتسامة دافئة: "في الحقيقة، ليس هو من أقنعني.. بل ابنه!".

صاحتا بصوت واحد: "ماذا؟! ابنه؟".

تابعتُ بهدوء: "أجل، لوكاس كان متزوجاً من قبل ولديه طفل في الرابعة من عمره يدعى دانيال. قابلتُه اليوم، وقد وقعتُ في حبه كما أحبني هو، وهو من جعلني أوافق على الزواج من والده".

غمرت الأم السعادة وقالت: "هذا غاية في الروعة، أنا سعيدة لأجلكِ حقاً".

لكن ساندرا ظلت متسمرة في مكانها، والصدمة قد لجمت لسانها تماماً.

نهضت الأم قائلة بوقار: "يجب أن أنال قسطاً من الراحة الآن، تصبحان على خير".

ودعتها قائلة: "أحلاماً سعيدة يا أمي.. احلمي بي بملابس الزفاف بجانب لوكاس!".

ما إن أُغلق باب غرفتها حتى ضربتني ساندرا على ركبتي بقوة وصاحت: "ألم تقولي أنها مجرد مسرحية وسينتهي كل شيء بالانفصال؟ هل هذا الفصل الأخير من المسرحية؟".

رددتُ بصدقٍ نابع من أعماق قلبي: "كلا يا حبيبتي.. لقد أحببتُ لوكاس منذ مدة، لكنني كنتُ أكابر وأرفض الاعتراف خوفاً من أن يكسر الحب كبريائي ويجعلني ضعيفة، لكنني اكتشفت اليوم أن حبه هو مصدر قوتي لا ضعفي!".

سألتني بشك: "وهل هو يحبكِ حقاً؟".

"الظاهر أنه يفعل، وبصدق.. لقد طلب مني الزواج اليوم بجدية تامة".

"ولكن كيف حدث ذلك؟ فسري لي، أو بالأحرى احكي لي كل التفاصيل!".

شرعتُ أسرد لها كل تفاصيل اللحظات الرومانسية التي جمعتني بلوكاس؛ بدءاً من المهمة الأولى حين مثلنا دور الزوجين، ووصولاً إلى تلك اللحظة الساحرة في الملاهي حين أخبرني أن فكرة ابنه بزواجنا قد أعجبته تماماً.

قالت ساندرا بتأثر: "هذا جميل جداً.. كدتُ أبكي. لقد وصفتِهِ لي سابقاً بأنه شخص سيء، لكن يبدو أنني كنتُ مخطئة!".

"أجل، لقد أخبرتكِ أنني عرفتُ حقيقة حياته اليوم، وأدركتُ أنه لم يكن سيئاً قط".

تنهدت ساندرا قائلة: "أنتِ تجعلينني أبكي فعلاً".

أجبتها بزهو: "ابكي يا حبيبتي، فدموع الفرح تليق بهذه اللحظة. أنا اليوم أشعر بأنني أنثى بكل ما تحمله الكلمة من معنى. لقد وعدني ذات مرة بأنه سيكون أباً جيداً وسيثبت لي ذلك، واليوم أوفى بوعده. الغريب أنه قال لي يوماً إنني لستُ نوعه المفضل، واليوم يطلب يدي للزواج! كم هو رجل متناقض ومثير!".

نهضت ساندرا وربتت على رأسي بمداعبة: "أرأيتِ كم أن الحب جميل حين يطرق الباب الصحيح؟ هيا، الوقت تأخر، اذهبي للنوم!".

قلتُ وأنا أسند ظهري للأريكة: "لن أستطيع.. إنها ليلتي الثالثة التي يسرق فيها لوكا موريتي -أو لوكاس براون- النوم من عيني".

ضحكت ساندرا وصعدت إلى غرفتها، أما أنا، فبقيتُ وحيدة في الحديقة، أراقب النجوم بذهنٍ شارد، أرسم ملامح مستقبلي مع حبيبي وزوجي المنتظر.. لوكاس براون.

أفقتُ على خيوط الشمس وهي تداعب وجهي بإزعاج، يبدو أنني استسلمتُ للنوم في أحضان الحديقة تحت تأثير أحلامي الوردية. صعدتُ لغرفتي وتأملتُ انعكاسي في المرآة؛ شعري الذي اعتدتُ أن يُغطي ملامحي ينسدل كالعادة، فكرتُ في رفعه، فـ "حبيبي" يريد أن يرى عينيّ بوضوح، لكنني تراجعتُ بابتسامة: "سأترك هذه المفاجأة لليلة زفافنا".

تحممتُ وأسدلتُ شعري كستارٍ غامض ونزلتُ لمشاركتهم الإفطار. غادرت مايا وكايلي للمدرسة، ومرّ كريس ليأخذ ساندرا لعملها، وبقيتُ أنا أترقب يومي.

فجأة، اهتز هاتفي باتصال فيديو جماعي من "العصابة". رددتُ لأجد وجوه الأعضاء تشع بالانتصار وهم يتبادلون التهاني الصاخبة، فسألتُ بلهفة: "ماذا حدث؟".

هتف ماركو بحماس: "لقد سحقنا 'كوزا نوسترا' تماماً! ونحن الآن بانتظار النتائج النهائية لـ 'كوماندو فيرميلو' و'كارتل سينالوا'.. الخطة نُفذت ببراعة مذهلة".

قلتُ بفخر: "أحسنتم صنعاً يا شباب!".

كان لوكا ضمن الاتصال، فلم تستطع عيناي الإفلات من صورته؛ كان لا يزال بقميص النوم في غرفته التي رأيتها بالأمس، وشعره مبعثر بأسلوب جذاب. قال بصوتٍ رخيم يغلفه بحة النوم التي أعشق تفاصيلها: "أحسنتم يا رفاق، عمل جبار.. سأضطر للإغلاق الآن لأغير ثيابي وألحق بالعمل".

أغلقتُ الخط وأنا أتنهد: "أنا أيضاً سأغلق الآن، وافوني بكل جديد".

جلستُ على الأريكة بجانب الأم إيفا، وأمامنا التلفاز يبث أخباراً عاجلة كالنار في الهشيم: "انهيار كبرى المافيات العالمية خلال 48 ساعة فقط.. سقوط عائلة كورسيكا الفرنسية، كوزا نوسترا الأمريكية، كارتل سينالوا المكسيكية، وكوماندو فيرميلو البرازيلية". تملكني الحماس فقلتُ دون تفكير: "لقد تدمرت الأربع أخيراً!".

علقت الأم بدهشة: "كم كثرت هذه المافيات! يقولون إنها هي من تحرك خيوط العالم".

رددتُ بغرور: "أجل، لكنهم ليسوا بقوتنا.. والدليل أنهم يتساقطون الواحد تلو الآخر".

نظرت إليّ الأم بريبة: "من تقصدين بـ 'نحن'؟".

تداركتُ الموقف بسرعة: "أقصد المافيا الإسبانية! لابد أنها الأقوى وهي من تقضي عليهم".

"وكيف تعرفين كل هذه الأسرار عنهم؟".

"آه.. لأنني مثقفة يا أمي وأحب الاطلاع على هذه المواضيع".

قالت بحنان وقلق: "احذري يا ابنتي، الحديث عنهم خطر حتى داخل أسوار منازلنا".

طمأنتها بابتسامة: "لا تقلقي، كل شيء تحت السيطرة".

في تلك اللحظة، رنّ هاتفي.. إنه "حبيبي" في أول اتصال خاص منه. قفزتُ من مكاني وأجبتُ محاولةً تصنع الهدوء: "مرحباً".

أجاب بصوتٍ يذيب الجليد: "حبيبتي، هل أنتِ متفرغة اليوم؟".

"أجل".

"أنا قادم إليكِ.. جهزي نفسكِ".

انفجرتُ رقصاً في أرجاء الصالة أمام ذهول الأم إيفا التي صاحت: "ما بكِ؟! لقد أفزعتِني!".

"لوكاس سأتي ليأخذني الآن!".

"إلى أين؟".

"لا يهم المكان.. ما دمتُ معه، فالعالم كله لي".

صعدتُ غرفتي أركض، استبدلتُ ملابسي المنزلية بأخرى أكثر أناقة؛ قميص أسود وتنورة قصيرة أبرزت رشاقتي، مع حذاء رياضي عالي يمنحني شموخاً إضافياً. بقيتُ أنتظر خلف النافذة بقلبٍ يخفق كطبلٍ حربي، حتى وصلني منه إشعار: "أنا أمام الباب.. تعالي!".

فتحتُ الباب بهدوءٍ مصطنع، لكن دقات قلبي كانت صاخبة لدرجة أنني ظننتُه سيسمعها. ركبتُ السيارة وهمستُ: "صباح الخير".

ليرد بابتسامةٍ أذابتني من الداخل: "صباحكِ أجمل".

وفي خيالي كنتُ أرد: "طبعاً هو أجمل لأنك بجانبي".

سألتُه عن وجهتنا، فأخبرني أننا سنوصل دانيال إلى الروضة أولاً، ثم سنقضي وقتاً معاً قبل العودة لإنهاء المهمة. من المقعد الخلفي، أطلّ "دانيال" وهو يلوح بيده الصغيرة: "صباح الخير ماما خاصتي!".

فابتسمتُ له بحنان: "صباح النور يا صغيري". عند وصولنا، ودّعنا دانيال بشرطٍ بريء أن يجدني في المنزل عند عودته، فوعدتُه بمحاولة ذلك.

انطلقنا بمفردنا إلى مقهىً راقٍ يطل على البحر، حيث ساد الصمت لبرهة، قطعه لوكا بنبرةٍ جادة ومحملة بالصدق: "يارا، أشعر أنني ضغطتُ عليكِ لتقبلي بي.. إن كنتِ تشعرين بأي تردد، فقط أخبريني وسأتفهمكِ تماماً".

طأطأتُ رأسي لثوانٍ، ثم رفعتُ نظري إليه وقلتُ بحسم: "كلا، أنا موافقة تماماً".

اتسعت ابتسامته المثيرة، وأخذنا رشفة من القهوة قبل أن يعلق بمرح: "يبدو أن فتح المواضيع بيننا صعب، فأنا هادئ وأنتِ أكثر هدوءاً".

ضحكتُ بخفة وقلت: "اسألني عما تود معرفته، رغم أنني أشك أنك تعرف كل شيء عني".

سأل بفضول: "منذ متى أحببتِني؟".

فكرتُ قليلاً: "أعتقد منذ المهمة الإيطالية، حين مثّلنا دور الزوجين".

ضحك وقال: "واو، هذا جميل".

سألتُه بدوري: "وماذا عنك؟".

أجاب بعينين تشعان حباً: "منذ أول مرة زرتُ فيها منزلك، يوم وفاة زوج والدتك.. ومنذ ذلك الحين وأنا ألمح لكِ، ويبدو أن تلميحاتي نجحت في إيقاعكِ".

قلتُ بمداعبة: "وهل كان من ضمن تلك التلميحات إخباري بأنني لستُ نوعك المفضل؟".

ضحك معترفاً: "لقد كان ذلك مجرد تمويه لأنني شعرتُ أنكِ كشفتِ مشاعري، والحقيقة أنكِ نوعي المفضل تماماً".

سألتُه عن ليلة الشرفة وتغزله بي، فأكد لي أنه كان بكامل وعيه، لكنه تظاهر بالثمالة لينقذ الموقف حين لم يجد تفاعلاً مني. قلتُ له بابتسامة: "إذن أنت من أوقعني في شباكك".

ليرد بذكاء: "بل سحركِ هو من جذبني أولاً".

تملكني الخجل، فغيرتُ المجرى للحديث عن أخبار المافيات. أكد لي أن تدمير الرباعي (كورسيكا، كوزا نوسترا، كاوماندو فيرميلو، وسينالوا) هو إنجاز عظيم، لكنه حذر من أن المافيات الأربع المتبقية (النمور الثلاثة، الضوء الأحمر، سونبي، وسولنتسيفو) هي الأشرس، رغم الضعف الذي حل بها مؤخراً.

عدنا إلى منزله وانغمسنا في العمل داخل مكتبه الفسيح. وسط انشغالنا بالملفات، سألني فجأة: "هل ستعيشين معي هنا بعد زواجنا؟".

ارتبكتُ، فأنا لم أتخيل نفسي يوماً كزوجة، لكنه حسم الأمر بلهجةٍ واثقة: "ستعيشين معي بالتأكيد، لذا تفقدي القصر جيداً، فكل ما لا يعجبكِ سيتغير فوراً لأجلكِ".

قلتُ بإعجاب: "المكان رائع ولا يحتاج لتعديل".

حاولنا العودة للتركيز، لكنه همس بمشاكسة: "من الصعب أن أركز وحبيبتي تجلس قبالتي".

قلتُ والخجل يكسو وجهي: "لوكاس، اصمت قليلاً.. أنت تحرجني!".

ضحك وقال: "حسناً، سأسكت".

مضى الوقتُ سريعاً بينما كنا نستمتع بدفء اللحظات العائلية، حيث عاد دانيال من الروضة والبهجة تملأ محياه. جلسنا معه في الحديقة نلاعبه، وبدا الصغير في قمة سعادته، حتى أن لوكا التفت إليّ بينما كان دانيال يركض لإحضار كرته قائلاً بنبرةٍ مؤثرة: "هذه المرة الأولى التي أراه فيها بهذا الانطلاق! لقد أدخلتِ البهجة إلى حياتنا سيليست".

ابتسمتُ له بامتنان، وعاد دانيال ليبدأ جولةً من اللعب مع والده بينما كنتُ أقف مشجعةً لهما بهتافاتي. طلبا مني مشاركتهما، لكنني رفضتُ بلباقة خوفاً على أناقة ملابسي. استمرّا في اللعب حتى اتسخت ثيابهما تماماً بالأتربة، فدخلا لتغييرها وعادا للجلوس معي بهدوء.

حين وُضع العشاء، وبينما كنا نتناول طعامنا في أجواءٍ حميمية، وقع نظري على وشمٍ جديد يزين يد لوكا. يدُه كانت مغطاة بالوشوم بالفعل، لكن هذا الوشم بدا لي مختلفاً؛ كان عبارة عن حروفٍ منسقة بدقة. حاولتُ قراءة المكتوب، لكن حركته المستمرة أثناء الأكل جعلت الأمر صعباً، واستحييتُ أن أطلب منه صراحةً أن يريني يده.

لاحظ تركيزي الشديد، فسألني مستفسراً: "إلى ماذا تنظرين؟".

"إلى يدك!".

"ما بها؟".

"هذا الوشم الجديد يبدو مميزاً.. ما المكتوب فيه؟".

فجأة، بدا عليه الارتباك وحاول تغطية يده بكمّ قميصه قائلاً بتهرب: "ليس أمراً مهماً، لا تشغلي بالكِ به".

أثار رد فعله المريب فضولي؛ لماذا يخفي عني شيئاً وأنا سأكون زوجته عما قريب؟ لكنني آثرتُ الصمت ولم أضغط عليه.

بعد الانتهاء من العشاء، قلتُ بجدية: "يجب أن توصلني الآن، لقد تأخر الوقت".

هنا قاطعنا دانيال بفضول: "ماما خاصتي، هل ستعرفينني على أختي الجديدة؟".

أجبته بابتسامة: "في الحقيقة يا صغيري، هما أختان وليست واحدة؛ مايا وكايلي".

هتف بفرح: "هذا رائع! سألعب معهما، أليس كذلك؟".

قلتُ له مقترحة: "أجل، ما رأيك أن آتي غداً لأصطحبك من الروضة إلى منزلي لتتعرف عليهما؟".

التفت الصغير لوالده بلهفة: "بابا، هل أستطيع الذهاب؟".

أجابه لوكا بحنان: "بالطبع يا بني، ستأتي (ماما خاصتك) غداً لتأخذك، وفي المساء سأمرّ أنا لإحضارك. الآن اذهب للنوم فوراً، فأنا سأوصل ماما ويجب أن تنام أنت باكراً".

قبل أن يصعد، اقترب مني دانيال قائلاً بلطافة: "قبليني ماما خاصتي!". قبلتُ خده وأنا أضحك على شقاوته، فبادلني القبلة ثم ركض صاعداً لغرفته.

خرجتُ مع لوكا إلى السيارة، وطوال الطريق كنتُ أحاول خلسةً رؤية الوشم، لكن ظلام السيارة حال دون ذلك. حين وصلنا أمام منزلي، هممتُ بالنزول، لكنه استوقفني قائلاً: "لقد اشتريتُ لكِ هدية، أتمنى أن تعجبكِ".

قدم لي صندوقاً مزيناً بأناقة، وحين أردتُ فتحه، منعني بابتسامة قائلاً: "ليس الآن.. افتحيه حين تكونين بمفردكِ".

ابتسمتُ وقلت: "حسناً، تصبح على خير".

هنا قلد نبرة دانيال الطفولية بمزاح: "ألن تقبليني (ماما خاصتي) أنا أيضاً؟".

ضحكتُ وضربتُ كتفه بخفة، ثم لوحتُ له ودخلتُ المنزل والسرور يتراقص في قلبي.

صعدتُ إلى غرفتي والفضول يسبق خطواتي، جلستُ على طرف السرير وبيدين مرتجفتين فتحتُ الصندوق؛ لم يكن عقداً أو عطراً، بل كان مسدساً مطلياً بالذهب الخالص، قطعة فنية مبهرة تعكس تماماً شخصية من أهداها. وجدتهُ مرفقاً برسالةٍ قصيرة كُتب فيها بخطٍ واثق: "سوف يُستعمل هذا المسدس لإنقاذك يوما ما!".

ابتسمتُ بزهو، فقد أصاب ذوقي تماماً. خبأتُ الهدية الثمينة، وبعد أن استبدلتُ ثيابي، نزلتُ لأنضم إلى الأم إيفا وساندرا في قاعة الجلوس.

بادرتني ساندرا بتساؤل: "أين قضيتِ يومكِ الطويل؟".

أجبتها والرضا يغمرني: "كنتُ مع لوكاس!".

تابعت ساندرا بحماس: "لقد ذهبتُ مع كريس اليوم لمعاينة فساتين الزفاف، واشتريتُ واحداً مذهلاً، وهو الآن في غرفتي.. كما أنني أحضرتُ لكِ هدية!".

صعدتُ معها، وحين جلسنا على سريرها، أخرجت فستاناً أبيض ناصعاً قائلة بزهو: "ما رأيكِ؟ أليس فاتناً؟".

تمعنتُ في تفاصيله الرقيقة وقلت: "إنه لطيف حقاً، ارتديهِ الآن دعيني أراكِ به!".

ضحكت برفض: "كلا، سترينني به بعد أسبوع واحد فقط في الحفل".

تذمرتُ بمزاح: "اللعنة! أريد رؤيته الآن".

فردت: "ستفسدين عنصر المفاجأة.. والآن، إليكِ هديتكِ!".

استدارت نحو خزانتها وأخرجت فستاناً أبيض آخر، كان تصميمه يسحر الأنفاس، وقالت: "بمجرد أن وقعت عيناي عليه، علمتُ أنه صُمم ليكون تحفةً عليكِ.. أرجوكِ اقبليه ليكون فستان زفافكِ".

أخذتهُ منها أتفحص جودة قماشه وتصميمه الراقي، وقلتُ بتأثر: "إنه جميل جداً، هذا هو نوعي المفضل تماماً!".

أكدت عليّ قائلة: "عديني أن ترتديه يوم زفافكِ".

فأجبتها: "سأفعل، لا تقلقي".

نمتُ تلك الليلة ولأول مرة يزورني حلمُ الزفاف؛ رأيتُ نفسي عروساً، وشعرتُ للمرة الأولى بكياني كأنثى رقيقة.. تباً للوكا، لقد أطاح بكبريائي وصنع مني فتاةً أخرى تماماً.

استيقظتُ باكراً، وتناولتُ الإفطار مع الفتيات، وأخبرتُ مايا وكايلي أن ضيفاً مميزاً بانتظارهما بعد عودتهما من المدرسة. غادرت ساندرا لعملها، وانزوت الأم إيفا في الحديقة تغرق في قراءة كتابها، بينما بقيتُ أنا أصارع مللاً رهيباً لم يكسره سوى مراسلتي للرفاق، وبالتحديد لوكا.

أرسل لي متسائلاً: "ينتهي دانيال من الروضة في الخامسة، متى ستأخذينه؟"

أجبته: "سأذهب فور خروجه، لكنني نسيتُ مكان الروضة تماماً!".

ردّ بسرعة: "لا تذهبي أنتِ، سأحضره لكِ بنفسي وأغادر".

أرسلتُ له موافقة: "حسناً، أنا بانتظاركما".

كانت الساعة تشير إلى الرابعة مساء؛ أمام دانيال ساعة ليصل، ومايا وكايلي سيصلان في السادسة. انطلقتُ فوراً نحو الخدم وأمرتهم باستنفار طاقاتهم لتجهيز عشاء فاخر يليق بالمناسبة. حين عادت ساندرا، وجدت المنزل في حالة طوارئ وحركة لا تهدأ، فسألتني بدهشة: "ما الذي يجري هنا؟".

"ألم أخبركِ؟ لدينا ضيفٌ مهم اليوم".

"هل هو لوكاس؟".

"كلا، ستعرفين هويته حين يصل".

دخلت الأم إيفا من الحديقة، وجلسنا نحن الثلاث في قاعة الجلوس، نترقب وصول الصغير دانيال بلهفة تملأ المكان.

طُرِق البابُ بوقعٍ مألوف، فسارعتُ لفتحه بقلبٍ يخفقُ ترقباً؛ كان لوكا يقفُ هناك وبجانبه الصغير دانيال. ما إن رآني الصغير حتى ارتمى في أحضاني معانقاً، بينما اكتفى لوكا برمي غمزةٍ خاطفةٍ مليئة بالمعاني وهو يمدّ لي صندوقاً مزيناً بأناقة.

أخذتُه منه قائلةً بعتابٍ رقيق: "لم يكن عليك تكبّد عناء إحضار هدية!".

أجاب بابتسامة: "دانيال هو من اختارها، لستُ أنا".

ثم عاد إلى سيارته ليُخرج ثلاثة صناديق أخرى قدمها لابنه قائلاً: "وهذه هدايا الفتيات، لقد انتقى لكل منكنّ هديةً تعكس ذوقه الخاص".

ابتسمتُ بامتنان وقرصتُ وجنة الصغير بلطف، وهممنا بالدخول، لكن لوكا استأذن قائلاً: "سأغادر الآن، وسأعود لاصطحابه حين تتصلون بي". ثم انحنى لابنه وأردف: "استمتع بوقتك يا صديقي".

تعالى صوت الأم إيفا من الداخل: "مَن بالباب يا ابنتي؟".

نظرتُ إلى لوكا وقلتُ: "تعالَ ألقِ عليها التحية أولاً".

دخل معي فاستقبلتْه الأم بحفاوة، فقال وهو يهمّ بالمغادرة: "أحضرتُ لكم ضيفكم الصغير، وعليّ الذهاب الآن".

قالت الأم بكرمها المعهود: "كلا يا بني، لا تذهب، ابقَ وتناول العشاء معنا".

اعتذر لوكا بتهذيب: "أودّ ذلك حقاً، لكن لديّ عملٌ طارئ يحتاج حضوري فوراً".

"فلنعوضها في فرصة قريبة إذن!".

"اتفقنا!".

استقر دانيال بجانب الأم إيفا، وخرجتُ أنا لأودع لوكا عند الباب. سألتُه بفضول: "ما هذا العمل الطارئ الذي لا يحتمل التأجيل؟".

أجاب بنبرةٍ جادة: "الأعضاء يجهزون خطةً للقضاء على 'النمور الثلاثة' بعد أن وهنت قوتهم، وبما أنني المسؤول عن الاستراتيجيات، فهم بحاجةٍ لإشرافي لتعديل الخطة وإحكام ثغراتها، لذا سأتوجه للمقر".

"حسناً، ولكن متى سنخبر البقية بأننا...".

قاطعني فجأة بتوترٍ وارتباكٍ ملحوظ: "كلا! لن نخبرهم أبداً، جيوفاني لن يسره هذا الخبر!".

عقدتُ حاجبيّ باستغراب وقبل أن أكمل، قلت: "بالعكس، سيُسرّ كثيراً، لِمَ تظن خلاف ذلك؟".

ردّ بحدةٍ طفيفة: "وكيف سيسرّه وهو الذي يشدد دائماً على عدم تعلق الأعضاء ببعضهم ورغبته في تفريق أي روابط عاطفية؟".

ضحكتُ ملء قلبي وضربتُ جبهتي قائلة: "لوكا، عما تتحدث؟ أنا أتحدث عن خطتنا التقنية التي أنهيناها!".

ارتبكت ملامحه وضحك بخجلٍ ظاهر: "آه.. ظننتُ أنكِ تتحدثين عن علاقتنا!".

"هههه، إذن متى نعرض الخطة؟".

"هل أنتِ متفرغة الليلة؟ بعد أن يقضي دانيال وقته مع مايا وكايلي سآتي لأخذه، وحينها سترافقينني؛ نوصل الصغير للمنزل ثم نتوجه معاً للمقر، ما رأيكِ؟".

"يبدو مخططاً ممتازاً".

"أنا ذاهبٌ الآن".

"حسناً، رافقتك السلامة، سأتصل بك فور جهوزيتنا".

"لا تتأخري!".

"اذهب هيا!".

حاولتُ دفعه بلطف ليغادر، لكنه ظلّ متسمراً أمام الباب بجاذبيته الطاغية. فجأة، أمسك بيدي وسحبني نحو صدره في عناقٍ مباغت، وطبع قبلةً دافئة على خدي، ثم تراجع خطوة وهو يهمس بنبرةٍ أذابت ثباتي: "أنا ذاهبٌ الآن.. حبيبتي".

بقيتُ في مكاني متصلبة تحت تأثير صدمة مشاعري، حتى أغلق البابُ خلْفه. عُدتُ إلى الداخل حيث كان دانيال يتوسط الأم وساندرا.

ساد الصمتُ قليلاً بينما كانت ساندرا تتأمل وسامة الصغير، ثم قالت بمداعبة: "ابن لوكاس وسيمٌ بشكلٍ لا يُصدق! ما اسمك أيها البطل؟".

كان دانيال يعبث بأصابعه بوجنتين محمرتين من الخجل، فأجبتُ عنه: "إنه دانيال براون".

قالت ساندرا بخبث: "دانيال.. اسمٌ قوي يليق بك، هل تقبل الزواج بي؟".

اتسعت عيناه بصدمةٍ براء قائلاً: "ألن تتزوجي عمي كريس بعد شهر؟!"

انفجرنا ضحكاً، وقلتُ له: "إنها تمازحك، وبالفعل ستتزوج عمك كريس، لكن بعد أسبوع واحد فقط". صفق بيديه الصغيرتين فرحاً، ولم نتمالك أنفسنا أمام لطافته.

طُرِق البابُ مجدداً، وكانت مايا وكايلي هذه المرة. بمجرد دخولهما، قابلهما دانيال بابتسامةٍ عريضة، فانقضتا عليه تقرصان وجنتيه وتعبثان بشعره الحريري وتغمرانه بالقبلات.

أبعدتهما عنه بصعوبة قائلة: "كفى عبثاً بالصغير! هيا، اصعدا لتغيير ملابسكما واستعدا للعشاء".

اجتمعنا حول المائدة التي ازدانت بما لذّ وطاب، نظرت الأم إيفا إلى دانيال بحنانٍ وسألته: "والدك سيتزوج يارا يا صغيري، هل أنت موافقٌ على أن تصبح يارا والدتك؟".

أجاب دون تردد وبنبرةٍ واثقة: "بالطبع! أنا أحب 'ماما يارا خاصتي' كثيراً".

غمرتني مشاعرُ جياشة، فقبلتُ خده الطري قائلة: "وأنا أيضاً أحب 'دانيال الصغير خاصتي'"

بعد العشاء، انتقلنا إلى الحديقة؛ كان الأطفال الثلاثة يركضون ويمرحون أمامنا، بينما جلسنا نحن الثلاث نراقبهم بهدوء. قالت ساندرا بنبرةٍ يملؤها الغبطة: "أنتِ محظوظة حقاً يا سيليست؛ لديكِ الآن الزوج، الطفل، والفستان.. لقد أصبحتْ لديكِ عائلة متكاملة".

أضافت الأم إيفا بابتسامةٍ ذات مغزى: "ولكن وجود دانيال الجميل في حياتها لا يعني أبداً أنها لن تنجب أطفالاً آخرين يملؤون البيت ضجيجاً!"

سرحتُ بخيالي بعيداً، أحاول استيعاب فكرة أنني قد أرزق يوماً بأطفالٍ يحملون ملامحي وملامح ذلك الرجل القوي والبارد.. لوكا. تداركتُ الموقف بسرعة قائلة: "لا أريد مزيداً من الأطفال، دانيال يكفيني تماماً".

ردت الأم إيفا بنبرةٍ حكيمة: "هذا غير صائب يا ابنتي، فمهما بلغت محبتكِ له، يظلُّ الحنين لطفلٍ من أحشائكِ أمراً مختلفاً، لا تنسي ذلك".

أجبتها بمحاولة للتهرب: "لكنني لم أتزوج بعد يا أمي، ولم نحدد حتى موعد الزفاف، فلا تسبقي الأحداث رجاءً".

قالت وهي تبتسم: "عساه خيراً، لا تتفوهي بمثل هذه السخافات، فزواجكِ بات قريباً جداً".

حين تأخر الوقت، قلتُ بحسم: "سأتصل بلوكاس ليأتي ويأخذ ابنه، فغداً يومٌ دراسي للصغير".

ابتعدتُ قليلاً وطلبتُ رقمه، لكنه لم يجب في المرة الأولى ولا الثانية، فساورني القلق؛ هل انشغل مع بقية الأعضاء؟ وما هي إلا لحظات حتى عاود الاتصال بي.

"ماذا يا حبيبتي؟ هل انتهيتم؟".

"أجل، تعالَ الآن".

أغلقتُ الخط بسرعة؛ فكلمة "حبيبتي" منه لا تزال تفعل بي الأفاعيل، وتشعل في وجنتيّ نار الخجل حتى وأنا بمفردي. عدتُ للجلوس، فسألتني ساندرا بمكر: "هل تحبينه حقاً؟".

ضربتُ كتفها بخفة وقلت: "كُفي عن ذلك، أنتِ تعرفين الإجابة جيداً".

تابعت ساندرا بدهشة: "لا أصدق كيف تغيرتِ منذ أحببتِ لوكاس، لقد أصبحتِ فتاةً رقيقة أخيراً!".

قلتُ مداعبةً: "اهتمي بشؤونكِ مع صهري فحسب".

ضحكت وقالت: "أخُ صهرك هو صهري أيضاً!".

تنهدتُ قائلة: "أذكر كيف كان لوكا بارداً وقليل الكلام مع الجميع، لكنه صار لطيفاً معي، ولأجلي آمن بالحب، وأنا أيضاً تغيرتُ لأجله وآمنتُ بالحب أيضاً".

طُرق الباب، فقالت الأم إيفا ضاحكة: "المؤمن بالحب قد وصل، اذهبي إليه".

وقفتُ وناديتُ دانيال، وقبل خروجي أخبرتهما: "سأذهب مع لوكاس وسأتأخر قليلاً، لذا ناموا ولا تنتظروني".

ركبنا السيارة وانطلقنا نحو منزله، وفي الطريق سأل لوكا ابنه: "دانيال، هل استمتعت بوقتك؟".

أجاب الصغير بحماس: "أجل يا بابا كثيراً! أختاي مايا وكايلي لطيفتان جداً وقد أحببتاني".

ابتسمتُ وقلت: "مايا وكايلي لا تحبان سوى الأطفال اللطفاء والوسيمين، وأنت تملك الصفتين معاً، لذا كان من الطبيعي أن تقعا في حبك".

ناظرني لوكا بتلك الابتسامة المثيرة التي تفقدني ثباتي، فلم أحتمل نظراته وأدرتُ وجهي للجهة الأخرى متظاهرة بمراقبة الطريق. وصلنا القصر، فنزل لوكا وفتح الباب لابنه قائلاً: "أنا وماما يارا لدينا عملٌ هام، لذا اذهب أنت للنوم، لقد أوصيتُ المربية "روزا" بالاعتناء بك".

ودعنا الصغير وانطلقنا هذه المرة نحو "المقر". سألني لوكا ونحن في الطريق: "سوف نعرض خطتنا اليوم، هل أحضرتِ ملفاتكِ؟".
"إنها في المقر بالفعل، ولكن أخبرني، ماذا قررتم بشأن (النمور الثلاثة)؟".

"لقد وضعوا مسودة خطة جيدة، فقمتُ بتطويرها حتى أصبحت محكمة للغاية، وسيبدأون تنفيذها صباح الغد".

وصلنا إلى المقر، فاندفعتُ نحو غرفتي بخطىً حثيثة، استرجعتُ ملفاتي وهبطنا معاً إلى القبو الحصين حيث يعقد الأعضاء اجتماعاتهم المصيرية. ألقيتُ التحية وجلستُ في مكاني المعتاد، ليقطع جيوفاني الصمت بصوته الصارم: "الجميع هنا، لذا لنستعرض ما أنجزناه ونستأنف العمل. بفضل خططنا، دمرنا (كارتل سينالوا) عبر (النمور الثلاثة) التي تترنح الآن في أضعف حالاتها، وسحقنا (كوماندو فيرميلو) بمواجهتها مع (عصابة الضوء الأحمر) التي استُنزفت قواها هي الأخرى. كما أطحنا بـ (عائلة كورسيكا) بواسطة (كوزا نوسترا) قبل أن نجهز على الأخيرة تماماً. الخلاصة: أربع مافيات أبيدت، واثنتان في الرمق الأخير، وخطط القضاء على (الضوء الأحمر) و(النمور الثلاثة) جاهزة للتنفيذ غداً وبعد غد. والآن، ماذا بشأن (الأخوة سولنتسيفو) و(سونبي)؟ سيليست، لوكا.. ما هي خطتكما؟".

أجبته بثقة: "نحن هنا لنضع الخطة بين أيديكم".

"ابدآ إذن!".

التفتُّ نحو لوكا وسألته: "أبدأ أنا أم أنت؟".

أجاب برقيٍّ مفاجئ: "السيدات أولاً، تفضلي".

نهضتُ لأتقدم الجميع، لكن لم يفوت رايدر الفرصة ليعلق بسخرية: "واو! هذه المرة الأولى التي ينعتها أحدهم بـ (سيدة) دون أن تحطم وجهه! هل لأنكِ تقبّلتِ أخيراً أنكِ فتاة، أم لأن القائل هو لوكا فحسب؟".

رمقته بنظرة حارقة وقلت: "اللعنة عليك يا رايدر، أغلق فمك اللعين".

تدخل جيوفاني بحزم: "أغلق لعنتك فعلاً يا رايدر. ابدئي يا سيليست".

قلتُ وأنا أعرض الخرائط: "(الأخوة سولنتسيفو) و(سونبي) يعملان منذ عقدين على مشروع يسمى (التلاقح الثقافي) بين روسيا وكوريا. لقد حصلنا على ثماني تذاكر من مطعمهم في إسبانيا، لكننا لن نذهب بأنفسنا لئلا نقع في فخ؛ سنرسل ثمانية من أفضل رجالنا ليحلوا محلنا. وبالمناسبة، اكتشفنا أن مطعمهم في إسبانيا قانوني تماماً ولا تدعمه أي مافيا محلية، لذا لا يمكننا المساس به قانونياً. الموضوع الرئيسي هو أن (سونبي) و(سولنتسيفو) سيلتقيان بعد أسبوعين بالضبط في مقاطعة (إنتشون) بكوريا الجنوبية. سنكون هناك في الموعد، وحين يجتمع القادة، سننقضّ عليهم، نختطف الرؤوس الكبيرة وندمر المافيتين معاً".

سأل جيوفاني بتركيز: "متى اللقاء تحديداً؟".

"بعد أسبوعين من اليوم، أي يوم الخميس بعد القادم".

"حسناً، هل ساعدكِ لوكا في صياغة هذه الخطة؟".

"أجل، بالتأكيد".

"بما أنها تحمل بصمته، فهي لا تحتاج لتعديل. سننفذها بعد أسبوعين. أما أنا، فمهمتي تبدأ فجر الغد؛ سآخذ مجموعة كبيرة من الرجال، وأنتم ستنتظرون هنا بلاغ النصر. وبعد غد، يأتي دور ماركو. ثم نرتاح أسبوعين قبل أن نشد الرحال جميعاً إلى كوريا".

اعترض رايدر متذمراً: "لماذا ذهب كل منا بمفرده لتدمير هدفه، بينما سنذهب جميعاً مع لوكا وسيليست؟".

أجابه لوكا بهدوء: "لأن المافيات التي دمرتموها كانت منهكة ببعضها البعض؛ (الضوء الأحمر) و(النمور الثلاثة) يعانيان من نزيف حاد، أما (سونبي) و(الأخوة سولنتسيفو) فهما في كامل قوتهما، وفوق ذلك، تجمعهما صداقة متينة".

قال رايدر مقتنعاً: "منطقي جدًا، حظاً موفقاً يا رفاق".

ختم جيوفاني الجلسة بلهجة قاطعة: "الوقت متأخر، ستباتون جميعاً في المقر، ويُمنع الخروج لأي سبب!".

هتفتُ بتذمر: "ولكن يا جيوفاني، اللعنة! أريد العودة إلى منزلي!".

"لن تفعلي!".

كنتُ على وشك الانفجار بمزيد من التذمر، لكن غمزةً مباغتة ومريبة من لوكا أسكتتني. نظرتُ إليه باستغراب فابتسم بغموض، لم أفهم مقصده، لكنني صعدتُ إلى غرفتي والغضب يتطاير من عينيّ. ألقيتُ الملفات على المكتب بهمجية وارتميتُ على السرير بكآبة؛ كنتُ أتوق للنوم بجانب ساندرا والأم إيفا، وسئمتُ من جدران هذه الغرفة الكئيبة التي تشعرني بالوحدة.

بعد عدة دقائق، غطت السكينة أرجاء الفيلا وأُطفئت الأنوار، معلنةً استسلام الجميع للنوم. أما أنا، فكان الأرق رفيقي الوحيد.
شعرتُ بعدم الارتياح في ملابسي، فتوجهتُ نحو الخزانة بحثاً عن شيءٍ مريح، وهناك وقع نظري على بيجامة لم أتخيل يوماً أنني سأرتديها؛ قميص قصير وضيق يبرز تفاصيل جسدي ويكشف عن خصري بوضوح، مع سروال قصير وواسع ينسدل فوق فخذي برقة. وقفتُ أمام المرآة أتأمل انعكاسي بذهول؛ اكتشفتُ أنني أمتلك أنوثة طاغية كانت مخبأة تحت ثياب العمل الخشنة، وابتسمتُ بخبث حين تذكرتُ أن هذا الجسد سيكون ملكاً للوكا قريباً.

قطع حبل أفكاري رنين هاتفي.. إنه لوكا. أجبتُ بصوتٍ يحاول الثبات: "مرحباً".

قال بنبرةٍ دافئة: "حبيبتي، هل نِمتِ؟".

ارتبكتُ، ففكرة وجودنا في نفس المنزل تجعل الموقف مشحوناً، فأجبته: "أجل، لقد نمت بالفعل!".

ضحك بخفة وقال: "أنا أعلم أنكِ لا تزالين مستيقظة، فضوء غرفتكِ يفضحكِ".

سألتُه بدهشة: "ومن أين تراه؟ أين أنت الآن؟".

"في الحديقة، مقابل شرفتكِ تماماً.. تعالي، لنقضِ السهرة معاً".

"سأفكر في الأمر، لكنني متعبة وأظنني سأخلد للنوم".

"حسناً، اخرجي إلى الشرفة لأراكِ فقط".

تملكني الخجل فرفضتُ قائلة: "لن أخرج!".

"إن لم تفعلي، سآتي إلى غرفتكِ وأراكِ بنفسي، اخرجي طوعاً فذلك أفضل لكِ".

ضحكتُ بتحدٍ: "أنت لن تجرؤ على ذلك! فلتصبح على خير".

أجاب ببرودٍ مستفز قبل أن يغلق الخط: "بل سأفعل.. أنا قادم".

وضعتُ الهاتف جانباً بقلبٍ مضطرب، أحاول إقناع نفسي أنه يمزح، لكن خطواتٍ رصينة بدأت تصعد الدرج وتقترب من غرفتي حطمت كل شكوكي. ركضتُ فزعةً أبحث عن المفتاح لأغلق الباب لكنني لم أجده، فأطفأتُ الضوء ووقفتُ خلف الباب مباشرةً متحسبةً لكل حركة. اهتز مقبض الباب، وحين لم يُفتح ناديتُه بهمس: "لوكا.. هل هذا أنت؟".

أجاب بهدوءٍ قاتل: "افتحي يا حبيبتي، وإلا سأكسره".

"سآتيك إلى الحديقة، عد من حيث أتيت!".

"فات أوان هذا العرض، افتحي!".

تمسكتُ بالمقبض بكل قوتي، لكنه قال بحزم: "ابتعدي عن الباب، سأدفعه الآن".

تراجعتُ خطواتٍ للوراء ليفتح الباب بقوةٍ ويدخل مغلقاً إياه خلفه. كانت الغرفة غارقة في الظلام لولا ضوء القمر الذي تسلل عبر النافذة ليرسم ظلال جسدينا. كان يتقدم نحوي بثقة وأنا أتراجع حتى التصق ظهري بالحائط، فقلتُ محذرة: "أقسم أنني سأصرخ وأحضر الجميع إن اقتربت أكثر".

توقف وسألني بهدوء: "ألا تحبينني؟".

"ما الذي تفعله في غرفتي في هذا الوقت؟! اخرج اللعنة!".

"لن أخرج".

حاولتُ دفعه نحو الباب بكل ما أوتيتُ من قوة، لكنه كان كالجبل الراسخ. أمسك يداي بقوةٍ وقال: "لا تظني أن كونكِ فتاة مافيا يجعلكِ قادرة على تحريكي، أنا أقوى منكِ بمراحل".

شعرتُ بالألم في معصميّ فقلتُ بتأوه: "لوكا اترك يداي، أنت تؤلمني حقاً".

أرخى قبضته فوراً وبدت عليه ملامح الندم: "أنا آسف.. هل أضايقكِ؟".

أردتُ أن أقول نعم، لكن قلبي كان يريد العكس، فقلت: "تضايقني بوجودك هنا، لكنني ما زلتُ أريد السهر معك".

ابتسم وقال: "حسناً، سأخرج للحديقة بانتظارك".

قبل أن يخرج، كان ضوء القمر ساطعاً عليّ، كاشفاً تفاصيل ثيابي القصيرة ومفاتن جسدي بوضوح تام. لمحتُ في عينيه مزيجاً مربكاً من الصدمة والإعجاب لدرجة أنه كاد أن يتحدث، فقاطعتُه بحدة: "أقسم، لو نطقتَ بكلمة واحدة، سأنهي كل شيء بيننا!".

تراجع للوراء وهو يضحك بخفة، ثم انسحب من الغرفة تاركاً إياي في ذهولٍ من جرأته.

ارتديتُ وشاحاً طويلاً غطيتُ به جسدي، ولحقتُ به إلى الحديقة، حيث وجدتهُ جالساً على الأرجوحة يراقب السكون. جلستُ بجانبه، فكسر الصمت قائلاً: "القمر جميلٌ الليلة، أليس كذلك؟".

ابتسمتُ ابتسامةً جانبية وأردفتُ: "هذه أسطورة يابانية، أتعرف ذلك؟".

نقل بصره من القمر إليّ متسائلاً بفضول: "كلا، ماذا تقصدين؟".

"إنها طريقة يابانية كلاسيكية للاعتراف بالحب؛ فحين تقول (القمر جميل الليلة)، فأنت تعني ضمنياً (أحبك)".

ضحك بخفة وقال: "آه، أنا أعلم المعنى، لكنني لم أتوقع أنكِ ستفهمين الرمزية!".

"لا تنسَ أنني يابانية الأصل.. أبٌ ياباني وأمٌ إسبانية".

ارتسمت المفاجأة على وجهه: "لم أعلم ذلك قط! لماذا لم تخبريني؟".

"ببساطة.. لأنك لم تسأل".

"لقد فاجأتِني حقاً، ولكن هل عشتِ في اليابان؟".

"أجل، قرابة ست سنوات، قبل أن ننتقل لإسبانيا ويبدأ جحيمي الخاص. هناك تعلمتُ الكاراتيه وحصلتُ على الحزام البني، ولم أنل الأسود فقط لأنني لم أبلغ الرابعة عشرة حينها. أردتُ استكمال تدريبي هنا، لكن (المجرمة) أمي منعتني".

أمسك يدي بلطف وقال: "تنعتينها بالمجرمة لأنها قتلت والدك؟".

"أليس ذلك كافياً؟ لقد ارتكبت جريمتها الشنيعة أمام ناظريّ وأنا في السادسة عشرة.. كنتُ لا أزال طفلة".

هز رأسه متفهماً: "لهذا السبب كان الانضمام للمافيا ملاذكِ الوحيد". ثم تنهد وأردف: "ألاحظ أنكِ قوية للغاية، لم أركِ تبكين أبداً، حتى وأنتِ تستحضرين مآسيكِ".

"لقد استنزفتُ مخزون دموعي في الماضي، وما تبقى لي منها أحتفظ به للأمور التي تستحق حقاً".

وضع يده خلف رقبتي، فأملتُ رأسي وأسندتُه على كتفه في لحظة صفاء. سألتُه بفضول: "ماذا عنك؟ ما هو أصلك الحقيقي؟".

ابتسم وقال: "ألا تفضحني ملامحي؟ ألا أبدو لكِ آسيوياً شرقياً؟".

"تماماً، لكن شرق آسيا واسع..!".

" احزري انتِ."

بدأتُ بسرد الدول وهو ينفي برأسه: "الصين؟ سنغافورة؟ اليابان؟ أندونيسيا؟ الفلبين؟.. تايوان؟ كوريا؟".

أومأ أخيراً: "أنا كوري".

ضحكتُ بدهشة: "يا للعجب! أنت كوري، والمافيا التي نسعى لتدميرها كورية!".

"أجل، لكنها كورية جنوبية، أما أنا فمن كوريا الشمالية".

"فاجأتني! ظننتُ أن الخروج من هناك مستحيل بسبب النظام الصارم".

"خروجنا كان استثنائياً؛ والدي كان قائداً عسكرياً استُشهد في الحرب، ومن تكريم الرئيس لعائلات الشهداء تلبية مطالبهم، وكان مطلب أمي الوحيد هو مغادرة البلاد للأبد. تنقلنا كثيراً حتى انتهى بنا المطاف في إسبانيا، كنتُ في الثانية عشرة وكريس في التاسعة، وبسبب الاختلاط صار كريس يشبه الإسبان، بينما احتفظتُ أنا بملامحي وهويتي".

علقتُ بأسف: "نعرف بعضنا منذ عشر سنوات، ومع ذلك كنا نجهل كل هذه التفاصيل".

"هذا نهج جيوفاني، يبقي كل شيء سرياً، وأنا أوافقه... فلو كان بيننا جاسوس أو منشق، لن يلحق بعائلاتنا أذى لأنه يجهل حياتنا الشخصية".

قلتُ بمزاح: "الآن وقد عرفتَ عائلتي، سيسهل عليك التخلص مني لو كنت جاسوسا!".

ضحك وقال: "اللعنة على أفكاركِ الغريبة! لكن اعلمي حتى لو كنت جاسوسا... كنكنت سأقع بحبك ولن أتجرأ على أذيتك."

انتقلنا لتبادل الأسئلة فرارا من خجلي المتزايد، فسألتُه: "هل كنتَ أنت من طلب من ماركو أن نمثل دور الزوجين في أول مهمة؟".

"أقسم أنها كانت صدفة.. أجمل صدفة في حياتي، وأنتِ تعلمين أنني أكره الكذب".

"حسناً، وسؤالي الأخير: هل تعرف سر تلك الغرفة المغلقة التي أُضيفت للطابق العلوي في الفيلا أثناء غيابي؟".

ناظرني بجدية وقال: "أنتِ تعرفين رتبتي في المافيا، أنا العقل الاستراتيجي ونائب الزعيم، أما أنتِ فرتبتكِ هي (المتدخلة)، وهي رتبة فريدة تضعكِ بيني وبين جيوفاني، أي أنكِ أقرب عضو له. بما أنكِ لا تعرفين سر الغرفة، فهذا يعني أن الزعيم وحده من يملك المفتاح والسر".

"هل نسأله؟".

"لو أرادنا أن نعرف، لأخبرنا.. انسي أمرها".

سألني بدوره عن هوايتي في وقت الفراغ، فأجبتُه باختصار: "النوم!".

"لكنكِ تعانين من الأرق الشديد!".

"لهذا السبب هي هوايتي المفضلة التي لا أنالها.. أريد النوم بشدة".

قال بنبرة حانية: "نامي في حضني الآن".

رفعتُ رأسي عن كتفه وابتعدتُ قليلاً: "كلا، ماذا لو رآنا أحد الأعضاء؟".

"معكِ حق.. هل تشعرين بالنعاس الآن؟".

"أجل، قليلاً".

"هيا إذن، عودي لغرفتكِ ونامي".

وقبل أن أنهض، قلتُ له: "هل ستحضر زفاف ساندرا وكريس؟ يجب أن تضع حداً للخصام مع عائلتك وتقترب من والدتك".

ابتسم بحب وقال: "حسناً، سأمتثل لأوامر حبيبتي الصغيرة".

قلتُ بخجل: "توقف، هذا محرج!".

اقترب مني ببطءٍ أربك حواسي، فشعرتُ وكأنني قد شُللتُ تماماً أمام جاذبيته، غير قادرة على الحراك بينما كان إيقاع قلبي المتسارع يتردد صداه في أذني. طبع قبلةً رقيقة على جبهتي، وتسللت يده لتداعب خصلات شعري من الخلف بحنوّ، وحين حاول الاقتراب أكثر، استجمعتُ شتات نفسي ودفعتهُ برفق ثم وقفتُ قائلة وأنا أهرع نحو الباب: "تصبح على خير!".

تعالت ضحكاته الخافتة خلفي وهو يلوح لي بيده، بينما ركضتُ صاعدةً إلى غرفتي. وفي طريقي، لمحتُ ضوء غرفة ماركو لا يزال منبعثاً من تحت الباب، لكنني لم أعر الأمر اهتماماً ودلفتُ إلى غرفتي. بحثتُ عن المفتاح بجنون حتى وجدته وأوصدتُ الباب بإحكام، ثم خلعتُ وشاحي ووقفتُ أتأمل انعكاسي في المرآة بهمس: "أنا فاتنة حقاً!".

اندفعتُ نحو الشرفة لأختلس النظر إلى الأرجوحة؛ كان لوكاس، حبيبي، لا يزال جالساً هناك غارقاً في أفكاره. ألم ينل منه التعب بعد؟ أخرجتُ هاتفي وأرسلتُ له رسالة: "لماذا لم تنم حتى الآن؟".

رأيته يمسك هاتفه، وما إن قرأ الرسالة حتى أدار رأسه نحو شرفتي، فاختبأتُ خلف الستارة بسرعة. وصلني رده: "لم أستطع.. ماذا عنكِ؟".

"أنا أيضاً، الأرق يطاردني".

"سأتدبر أمرنا غداً".

"وكيف ذلك؟".

"ستعرفين، حاولي النوم الآن".

"سأفعل، طبتَ مساءً".

"بالمناسبة.. تبدين مثيرة جداً بتلك الملابس، لا تتجولي بها أمامي مجدداً وإلا...".

لم يكمل جملته واكتفى بوضع ثلاث نقاط تركت خلفها ألف معنى. تملكني الخجل لدرجة أنني لم أستطع الرد، فرميتُ الهاتف على المكتب وارتميتُ فوق السرير، أسترجع شريط أحداث اليوم بتفاصيله؛ أضحكُ تارةً للمواقف المرحة، وأغرقُ في التفكير تارةً

أخرى، حتى أشرقت الشمسُ معلنةً حلول السابعة صباحاً، ولم يزر النومُ عينيَّ قط. نهضتُ بجسدٍ منهك، استحممتُ وغيرتُ ثيابي ثم نزلتُ إلى قاعة الجلوس، حيث وجدتُ الجميعَ قد التأم شملهم كالعادة.

ألقيتُ التحية، فرفع ماركو رأسه ورمقني بنظرةٍ فاحصة قائلاً: "ماذا كنتِ تفعلين خارج غرفتكِ في ساعةٍ متأخرة من ليلة أمس؟".

تلعثمتُ قليلاً قبل أن أستعيد ثباتي وأجيبه بحدة: "وما شأنك أنت؟".

حوّل بصره نحو لوكا وأردف: "وأنت أيضاً.. لم تكن في غرفتك!".

أجاب لوكا بهدوءٍ وثبات: "أجل، أنا وسيليست نعاني أرقاً حاداً، هذا كل ما في الأمر".

تدخل باولو بنبرةٍ قلقة: "هذا ليس مؤشراً جيداً، منذ متى وهذا الحال يطاردكما؟".

أجبتُه: "بالنسبة لي، منذ أن غادرتُ السجن".

بينما أضاف لوكا: "وأنا منذ تدمير المافيا الإيطالية".

هنا قاطعنا جيوفاني بصوته الصارم: "اللعنة! خطتكما ستبدأ بعد أسبوعين، وهي الأصعب بيننا، يجب أن تنالا قسطاً وافراً من الراحة".

اقترح باولو: "هل أعطيكما بعض المنومات؟".

سألتُه باهتمام: "وكم ساعة سأقضيها نائمة؟".

"كل قرص يضمن لكِ يوماً كاملاً من السكون، سأعطيكما ما يكفي لأسبوع".

قلتُ بلهفة: "أنا موافقة، أعطني الآن، فلم تغمض لي جفن البارحة". وأيدني لوكا في ذلك.

ذهبنا معه للمختبر، أخذنا الأقراص وعدنا لغرفنا. وقبل أن أستسلم للنوم، أرسلتُ للوكا رسالة: "لا تبالغ في تناولها، فزفاف ساندرا وكريس بعد غد، ويجب أن نكون هناك".

ردَّ فوراً: "أعلم، كنتُ على وشك تذكيركِ بذلك أيضاً".

"إذن، هل نتناول قرصاً واحداً اليوم؟".

"أجل، وسنستيقظ غداً في مثل هذا الوقت".

أغلقتُ هاتفي وتناولتُ القرص؛ وما هي إلا دقيقتان حتى بدأ النعاس يغزو حواسي، فاستسلمتُ لظلامٍ دامس ونومٍ عميق. لم أشعر بالوقت إلا وأشعة الشمس تداعب وجهي مجدداً؛ كانت السابعة صباحاً من اليوم التالي. نزلتُ للطابقِ السفلي فوجدتُ باولو ورايدر وبراين، ألقيتُ التحية وسألت بفضول: "أين البقية؟".

أجاب رايدر: "خطة ماركو قيد التنفيذ اليوم، الجميع في غرفة العمليات يترقبون النتائج".

"هذا رائع، أتمنى له التوفيق، سينجح بالتأكيد".

سألتُ بتلقائية: "هل لوكا معهم؟".

غمز رايدر بخبث: "ولماذا تسألين عنه هو بالذات؟".

كانت نظراته مستفزة كالعادة، فأجبتُه بحدة: "اللعنة عليك! أسألُ لأنه من المفترض أن يكون نائماً الآن لينال راحته!".

تدخل براين موضحاً: "إنه معهم، اضطروا لإيقاظه ليحل ثغرة تقنية لم يلحظوها من قبل".

قلتُ بتذمر: "اللعنة، إنه بحاجة للراحة!".

علق رايدر ساخراً: "يبدو أنكِ تهتمين لأمره كثيراً".

"رايدر يا ملعون، إنه شريكي في الخطة القادمة، وهذا كل ما في الأمر!".

انصرفتُ عنهم، تناولتُ فطوري بشهية، ثم عدتُ لغرفتي وأرسلتُ للوكا رسالة رغم علمي بانشغاله:
"سآخذ قرصاً آخر لأنام حتى الغد.. اليوم الموعود لزفاف أخوينا. افعل مثلي، لنستيقظ في الصباح بكامل نشاطنا ونجهز أنفسنا للذهاب".

أغلقتُ هاتفي وغرقتُ في النوم مجدداً، ولم أستيقظ إلا مع شروق شمس اليوم التالي. نزلتُ كالعادة ولم أجد أحداً، فتفقدتُ هاتفي لأجد رسالة من لوكا كتبت قبل ساعات: "حسناً يا حبيبتي.. نوماً هنيئاً".

سألتُ الخدم بنبرة حازمة: "أين الأعضاء؟".

أخبروني أنهم في غرفة العمليات، فتوجهتُ إلى هناك على الفور. ما إن دلفتُ حتى استقبلني جوٌّ مشحون بالتوتر؛ كانت ملامح الجميع منقبضة وعيونهم معلقة بالشاشات. اقتربتُ من لوكا وهمستُ في أذنه: "ماذا يجري؟".

أشار بيده نحو الشاشة الكبيرة، حيث كان جيوفاني يقود جنودنا في ملحمة شرسة ضد بقايا عصابة "النمور الثلاثة". راقبتُ المشهد بتركيز؛ ورغم ضراوة القتال، إلا أن كفة النصر كانت تميل لصالحنا بوضوح بفضل تفوقنا العددي وتخطيطنا المحكم. لمحتُ ماركو يجلس في زاوية الغرفة بارتياح، فأدركتُ أن مهمته قد كُللت بالنجاح وأن عصابة "الضوء الأحمر" باتت أثراً بعد عين.
سألتُ لوكا بصوت خافت: "هل سقطت الضوء الأحمر؟".

اكتفى بإيماءة صامتة من رأسه، فعيناه لم تفارقا تحركات جيوفاني.
تملكني مللٌ مفاجئ، فانسحبتُ نحو المطبخ؛ أشعر بشراهة غير معهودة هذه الأيام، ربما هو ضريبة النوم الطويل الذي استهلك طاقتي. لم تمر دقائق حتى تعالت صيحات الابتهاج في الردهات، فعلمتُ أن جيوفاني قد حسم المعركة في الصين. كان خبراً يثلج الصدر؛ ذهبتُ إليهم ووجدتُهم يتبادلون العناق والتهاني والابتسامات تملأ الوجوه.

وسط هذه الجلبة، رمقتُ لوكا بنظرةٍ آمرة تعني "اتبعني"، وخرجتُ. لحق بي إلى الرواق وسأل: "ما الأمر؟".

قلتُ بجدية: "يجب أن نغادر الآن قبل عودة جيوفاني، وإلا فسيجد ألف سبب ليمنعنا من الذهاب".

مسح على شعري بحنان وقال: "أمركِ يا صغيرتي".

أبعدتُ يده محتجة: "لستُ صغيرة، والفارق العمري بيننا ليس شاسعاً!".

ابتسم وهو يمرر يده على وجهي برقة: "بل أنتِ كذلك في عيني".

عبستُ بتذمر، فاستدرك ضاحكاً: "حسناً، أحضري حقيبتكِ وستجدينني بانتظاركِ في السيارة".

أومأتُ له، وبعد دقائق كنتُ في المستودع حيث ينتظرني. انطلقنا نحو منزلي، وهناك وجدتُ القصر يعجُّ بالحركة والخدم في كل زاوية يضعون اللمسات الأخيرة. سارعتُ نحو الأم إيفا، قبلتها بلهفة وسألت عن ساندرا، فأخبرتني أنها في غرفتها. قلتُ للوكا: "انتظرني هنا بجانب الأم".

صعدتُ الدرج وطرقتُ باب غرفتها: "هذه أنا، هل يمكنني الدخول؟".

فتحت لي الباب، فتسمرتُ في مكاني؛ كانت ساندرا ترتدي فستانها الأبيض، تبدو كأنها ملاكٌ هبط من السماء بجمالٍ بريء وفاتن. تمنيتُ معانقتها بقوة، لكنني خشيتُ أن أفسد تصفيفة شعرها أو أُجعد ثوبها الأنيق. نظرنا إلى بعضنا بحبٍ فياض، وكانت عيناها تلمعان بدموعٍ تقاوم سقوطها خشية إفساد مكياجها.

قلتُ بذهول: "اللعنة.. تبدين فاتنة حقاً بهذا الفستان!".

ردت بمرحها المعتاد: "بل اللعنة عليكِ أنتِ! هل أنا جميلة حقاً؟".

"أجل، أنتِ جميلة دائماً، وهذا المكياج الرقيق زادكِ سحراً".

همست بتأثر: "أحبكِ يا يارا".

"حسناً، كفي عن العواطف الآن ودعيني أستعد!".

سألتني بفضول: "واو، هل سترتدين فستاناً أنتِ أيضاً؟".

أجبتُها بصرامة: "على جثتي! سأرتدي هذا".

أخرجتُ من حقيبتي زياً مكوناً من قميص وتنورة قصيرة بلون بني غامق مع إكسسوارات متناسقة. رمقت ساندرا ثيابي باشمئزاز وقالت: "اللعنة! هل ستلبسين هذا في عرس أختكِ؟ إنه قاتم جداً!".

قلتُ مداعبة: "عليكِ أن تشكريني لأنني لم أختر الأسود كالعادة، فقد اشتريتُ هذا اللون خصيصاً للمناسبة".

سألتني بخبث: "هل سترقصين؟".

"على جثتي أيضاً!".

"وماذا لو دعاكِ لوكاس؟ أراهن أنكِ لن ترفضي".

"بل سأفعل، ثقي بذلك".

في تلك اللحظة رنّ هاتفي، كان لوكا: "ما الأمر؟".

أجاب: "يجب أن أغير ملابسي أنا أيضاً، سأعود إلى منزلي، وحين تبدأ المراسيم الرسمية اتصلي بي".

"اتفقنا، إلى اللقاء".

أغلقتُ الهاتف والتفتُّ لساندرا التي بادرتني بعتاب: "ولكن لماذا تتحدثين معه بهذا البرود القاتل؟".

"هل تريدين مني أن أتصنع الدلال مثلكِ؟ أنا أتصرف بعفويتي!"

"على الأقل أشعريه ببعض الدفء كحبيب، لا تتعاملي معه وكأنه لا يزال مجرد زميل في المنظمة".

"اهتمي بشؤونكِ أيتها المزعجة! حتى في يوم زفافكِ تصرين على التدخل في حياتي؟"

حلَّ المساء، وارتج المكان بهدير محركات السيارات الفخمة؛ وصل كريس برفقة أصدقائه، وكذلك فعلت صديقات ساندرا، ليستعد الجميع للانطلاق نحو مكان الحفل الذي ظل سراً بالنسبة لي. كنتُ قد جهزتُ سيارتي وزينتها بالأشرطة الملونة، ركبت معي الأم إيفا التي كانت في أبهى حلة، ومايا وكايلي اللتان بدتا كفراشتين في فستانيهما البيضاوين. انطلق الموكب تتبع سيارة العروسين، وكنتُ أراقب الطريق بوجل، فلم ألمح سيارة لوكا أو أثراً له.

وصلنا أخيراً إلى وجهتنا؛ كانت حديقةً غناء تنبض بالحياة، تفوح منها رائحة الورود النادرة، وقد صُممت الطاولات والمقاعد حول منصة العروسين برقيٍّ ساحر.

ترجلت ساندرا وهي ممسكة بيد كريس، بينما اصطف الجميع على الجانبين يهتفون ويصفقون، ومايا وكايلي تتقدمانهما وتنثران أوراق الورد في طريقهما. تضاعف قلقي على لوكا، خاصة مع إصرار الأم إيفا على السؤال عنه، فأخرجتُ هاتفي واتصلتُ به فوراً: "أين أنت؟".

أجاب بنبرة هادئة هزت كياني: "استديري خلفكِ".

كان الهاتف لا يزال ملتصقاً بأذني حين استدرت، لتلجم الصدمة لساني؛ كان يتقدم نحوي بخطواتٍ تفيض رجولة وهيبة، يخطو بوقار كملكٍ يتبختر في مملكته. لم أعد أرى أحداً سواه، وكأن الزمان والمكان قد توقفا عند حضوره الطاغي. وصل إليّ، انحنى برقة وهمس: "لقد وصل أميركِ".

استجمعتُ شتات نفسي، رغم أن انبهاري ببدلته الرسمية التي بدت وكأنها صُممت خصيصاً لتنحني أمام وسامته لم يتلاشَ بعد. لاحظتُ حينها امرأةً تقف بجانبه، ممسكةً بيد دانيال الصغير الذي اندفع ليعانقني بلهفة، فبادلته العناق قبل أن أوجه نظرة تساؤل لتلك المرأة: "ومن تكون هذه الآنسة؟".

أجاب لوكا: "إنها روزان، مربية دانيال. روزان، هذه هي يارا، حبيبتي".

انحنت لي روزان بأدب: "تشرفتُ بلقائكِ سيدتي".

"وأنا كذلك".

اعتلى رجل الدين المنصة، وحانت اللحظة الحاسمة؛ اقتربنا من العروسين لنشهد مراسم عقد القران. تلا كلاهما عهود الوفاء والموافقة، وضجت الحديقة بالتصفيق والزغاريد. ثم انطلقت الموسيقى، وانقسم الحضور لثنائيات تتمايل بانسجام على أنغام اللحن.

فجأة، لاحظتُ أن لوكا يراقب امرأةً مسنة بوقار، أنيقة لدرجةٍ ملفتة، فسألته بهمس: "أهي والدتك؟".

أومأ برأسه في صمت، ثم قال بجدية: "تعالي، حان الوقت لأعرفكِ بها".

كنتُ أتوقع رد فعلها السلبي، لكنني لم أشأ كسر خاطره فوافقته. اتجهنا نحوها، وما إن رأت ابنها حتى أشاحت بوجهها متجاهلةً وجوده تماماً وحاولت تجاوزه، فأوقفها بيده برفق قائلاً: "أمي، هذه خطيبتي، وسنتزوج في الشهر المقبل".

رمقتني بنظرةٍ مسمومة مليئة بالاشمئزاز، ثم وجهت كلامها له: "كم أنك نذل!".

رد لوكا بثبات: "قولي ما تشائين، هي تعرف قصتي كاملة، لذا لا تحاولي تشويه الحقيقة".

ألقت عليّ نظرة احتقار أخيرة قبل أن تغادر المكان بخطىً متصلبة. نظرتُ إليه بأسى وقلت محاولةً التخفيف عنه: "لا بأس يا لوكا، غضبها مبرر.. ستتفهم الأمر يوماً ما".

عُدنا إلى طاولتنا حيث كانت الأم إيفا بانتظارنا، نراقب بصمتٍ محب شقاوة دانيال وهو يراقص مايا وكايلي، والضحكات تخرج منا بعفوية. كنتُ في مزاجٍ رائق تماماً حتى باغتتنا الأم باقتراحها: "لماذا لا تنضمان إليهم؟ هيا يا لوكاس، ادعُ عروسك لرقصة".

ارتبك لوكا قليلاً، ثم التفت إليّ بنظرةٍ تفيض رجاءً: "لستُ بارعاً في الرقص، لكن.. هل تمنحينني هذه الرقصة يا حبيبتي؟".

أمسكتُ يده ونهضتُ قائلة: "سأقبل، لكن بشرط ألا تلومني، فأنا أيضاً لا أجيدها".

اتخذنا مكاناً في قلب الساحة، تشابكت أيدينا ووضعتُ يدي على كتفه بينما استقرت يده بدفءٍ حول خصري. مِلنا مع الموسيقى ببطء، فاقترب من أذني وهمس بنبرةٍ أجفلت قلبي: "لقد فتنتِني اليوم".

ضغطتُ على يده محذرة: "ليس هنا، أرجوك".

"وماذا في ذلك؟ سأقول ما يحلو لي، أينما يحلو لي".

"حسناً، قلها مجدداً وسأصرخ بأعلى صوتي وأفسد الحفل، أقسم!".

ضحك بخفة وقال: "أعلم أنكِ مجنونة بما يكفي لتفعليها، لذا سأصمت.. لكن هذه المرة فقط".

قضينا نصف ساعة في دوامة من التناغم حتى نال منا التعب، فعدنا للجلوس في تلك الأجواء الشاعرية. وفجأة، حان الموعد المرتقب؛ لحظة "باقة العروس".

وقفت ساندرا تتهيأ لرمي الورود، وتجمهرت خلفها الفتيات بلهفة، أما أنا فبقيتُ مكاني حتى أجبرتني الأم إيفا على النهوض. وقفتُ بعيداً عن الجموع في زاويةٍ قصية، متيقنةً أن الباقة لن تصل إليّ أبداً، فأنا لا أؤمن بهذه الخرافات.

لكن ساندرا لم ترمِها؛ بل استدارت ببطء ومشيت نحوي بخطواتٍ واثقة، ثم وضعت الباقة بين يديّ قائلةً بابتسامةٍ عريضة: "العروس القادمة هي يارا!".

ضج المكان بالتصفيق، واتجهت أنظار الجميع نحوي. شعرتُ برهبةٍ غريبة؛ فهذا الحفل ممتد بالحضور من رجال دولة ومحامين مرموقين، صفقوا لي بحرارة وهم لا يدركون أن "العروس القادمة" هي متمردة في عالم المافيا.

نظرتُ إلى لوكا فابتسم، ثم تقدم نحوي بخطىً رصينة، وفجأة، جثا على ركبته وسط ذهول الحاضرين. أخرج صندوقاً مخملياً صغيراً وفتحه ليلمع خاتمٌ يسلب الألباب، وقال بصوتٍ سمعه الجميع: "تقبلين الزواج بي يا يارا؟".

حاولتُ كسر جلال الموقف وجفائي المعتاد فقلتُ بمداعبة: "أنت قديم جداً، هذه الحركات لم تعد (موضة) هذه الأيام!".

تعالت ضحكات الحضور، فنهض لوكا ضاحكاً وأمسك يدي ليُلبسني الخاتم الذي استقر في إصبعي كأنه جزءٌ مني. وفي تلك اللحظة، ارتفعت الهتافات من كل جانب: "قَبِّلها.. قَبِّلها!".

لم يتردد لوكا؛ اقترب مني وطبع قبلةً دافئة أمام الجميع، كانت قبلتي الأولى، القبلة التي سرقها "لوكاس براون" وأودعها في ذاكرتي للأبد. دمعت عيناي تأثراً، فمسحتُهما سريعاً وعدنا إلى طاولتنا يلفنا الحياء والسكينة.

ساد الصمتُ بيننا من هول الصدمة العاطفية، وبقينا هكذا حتى انتهى الحفل ثم أوصلنا كريس وساندرا إلى فندقهما. فور وصولي إلى القصر، صعدتُ لغرفتي مباشرة، ألقيتُ بجسدي على السرير وأنا أسترجع تفاصيل تلك اللحظات "اللعينة" والمحرجة والجميلة في آنٍ واحد. رفعتُ يدي أمام عينيّ أتأمل الخاتم؛ كان براقاً، جذاباً، ومحّملاً بوعودٍ لم أكن أحلم بها قط.

لقد أصبحتُ الآن "خطيبة لوكاس براون" رسمياً أمام العالم..

بدلتُ ثيابي واستلقيتُ على سريري أطالع الصور التي التقطتها في الحفل، أتأمل ملامح الفرح التي ارتسمت على الوجوه، حتى قطع شرودي اتصال من ذلك "المشاكس":

"ماذا تريد الآن؟".

"ولماذا تبدو نبرتكِ غاضبة؟".

"سألتك: ماذا تريد؟".

"أجيبي على سؤالي أولاً".

"غاضبة بسبب ما فعلته قبل قليل!".

"تقصدين طلبي ليدكِ أمام الجميع؟".

"كلا.. أقصد الفعلة التي تلتها!".

ضحك بنبرة منتصرة وقال: "آه، تقصدين القبلة؟ لا تعطي الأمر أكبر من حجمه، الجميع يعلم أننا سنصبح زوجين قريباً".

"اللعنة، لقد كان موقفاً محرجاً للغاية، كيف سأتمكن من النظر في وجوههم مجدداً؟".

"يا للعجب! قتلتِ أشخاصًا ودخلتِ السجن دون رمشة عين، وتخجلين من قبلة؟".

"لا تخلط الأمور ببعضها، فالمواقف لا تُقارن!".

"حسناً، اهدئي.. اتصلتُ لأطمئن عليكِ، ولأخبركِ أن جيوفاني عاد من الصين والرفاق يقيمون حفلاً لاستقباله، هل تأتين؟".

"أشعر بإرهاق شديد، لا أظن أنني قادرة على الحراك".

"لا بأس، سأذهب أنا، ابقي أنتِ وارتاحي والحقي بنا متى شئتِ".

"حسناً، إلى اللقاء".

"تصبحين على خير يا صغيرتي".

أغلقتُ الخط بوجهه؛ لا يملُّ أبداً من مناداتي بتلك الكلمة المستفزة. ولأن التعب كان قد تمكن مني، أرسلتُ رسالة بذيئة ومرحة لساندرا أتمنى لها وقتاً ممتعاً في شهر العسل، ثم تناولتُ قرصاً منوماً وغرقتُ في سبات عميق.

استيقظتُ مفزوعة إثر كابوس مزعج، فنزلتُ للطابق السفلي حيث الأم إيفا. قبلتُ رأسها وتناولنا الإفطار سوياً، لكنني كنتُ لا أزال أشعر بإعياء غريب يثقل جسدي. قررتُ أن أحسم أمري، فأرسلتُ رسالة للمجموعة: "يا شباب، أشعر بتعب لا يوصف، سأخذ هذا الأسبوع كفترة راحة لأستعيد نشاطي قبل مهمتنا المرتقبة، وتهانيَّ لكم جميعاً على نجاحكم".

قرأ جيوفاني الرسالة وعلق بصرامته المعهودة: "منذ متى تمنحين نفسكِ إجازات دون إذن؟".

تدخل باولو فوراً: "اسمح لها يا جيوفاني، راحتها ستصبُّ في مصلحة العمل".

رد جيوفاني: "حسناً، لا بأس.. لكن كوني في الموعد يوم الخميس".

أغلقتُ هاتفي وأخبرتُ الأم إيفا بوضوح: "سأدخل في نوبة نوم طويلة، أرجوكِ ألا يوقظني أحد".

تناولتُ ثلاثة أقراص دفعة واحدة، وهو ما يكفي ليدفعني في غيبوبة مؤقتة لثلاثة أيام متتالية.

لا بد أن الأيام الثلاثة قد انقضت حين استيقظتُ أخيراً، شعرتُ بدوار شديد يلف رأسي، وكأنني كنتُ في عالم آخر. فتحتُ عينيَّ بصعوبة ونزلتُ لقاعة الجلوس، لأجد ساندرا جالسة بجانب الأم إيفا. ما إن رأتني حتى أشرق وجهها قائلة: "أخيراً عُدتِ إلينا!".

نظرتُ إليها باشمئزاز مصطنع: "اللعنة، بوجودكِ هنا أعجز حتى عن الاشتياق لكِ!".

نهضت لتعانقني، ولم أمانع بل بادلتها الدفء، ثم تراجعتُ وسألتُها: "أين زوجكِ؟".

"في الحديقة مع زوجكِ!".

تسمرتُ في مكاني: "اللعنة، هل لوكاس هنا؟".

"أجل، ألم تكوني تعلمين؟".

"تباً! سأذهب لأجهز نفسي فوراً، لا يمكن أن يلمحني وأنا بهذه الحالة المزرية!".

انطلقتُ إلى غرفتي بخطىً حثيثة، استعدتُ نضارة وجهي، نسقتُ خصلات شعري بعناية، وتعطرتُ بشذايَ المفضل، ثم هبطتُ الدرج بثقة أكبر. هذه المرة، كان لوكاس وكريس قد انضما للجلسة، فبدت القاعة أكثر دفئاً وحيوية.

التفتُّ نحو كريس بابتسامةٍ مهنئة: "أهلاً بك أيها العريس! ها قد نلتَ مُرادك وتزوجت ابنتي المدللة، مباركٌ لكما".

رد كريس بامتنان: "لم يكن لهذا الزواج أن يتم لولا مباركتكِ ورضاكِ".

"ربما، من يدري؟".

ثم نقلتُ بصري إلى لوكا وسألتُه بمداعبة: "أما أنت، فما سرُّ وجودك هنا؟".

أجاب بنبرةٍ تفيض اشتياقاً: "أهكذا ترحبين بخطيبك؟ جئتُ مدفوعاً بالحنين لأطمئن على حالكِ فحسب".

ضحكتُ بخجل: "آه، ههههه، هذا لطفٌ منك.. أهلاً بك".

جلستُ بجانبه وسألتُ عن دانيال، فأخبرني أنه منشغلٌ بدراسته. تنهدتُ قائلة: "لقد اشتقتُ لذاك الصغير حقاً!".

هتف لوكا بتذمرٍ مفتعل: "تبا! لماذا تذهب كل كلمات الغزل والاشتياق لدانيال؟ أنا حبيبكِ وليس هو!".

"لوكاس، اصمت ولا تغار من ابنك!".

تعالت ضحكاتنا، لكن الأم إيفا قررت كسر هذه الأجواء بسؤالها المعتاد: "بما أن ساندرا وكريس قد دخلا القفص الذهبي، فمتى يحين دوركما يا عصافير الحب؟".

تبادلتُ النظرات مع لوكا قبل أن أجيب بحزم: "أمي، كفى إلحاحاً، سنعلمكم بالموعد فور تحديده، فلن نتزوج سرّاً كما تعلمين".

تدخل لوكا موضحاً: "ينتظرنا عملٌ هام الأسبوع المقبل يتطلب سفرنا خارج البلاد، وفور عودتنا سنتمم مراسم الزواج، أهذا يرضيكِ؟".

أجابت الأم برضا: "بالطبع، هذا عين العقل".

لاحظتُ ساندرا تضحك بصمتٍ على انفعالاتي، فسألتُها بحدةٍ طفيفة: "ما المضحك أيتها اللعنة؟".

هزت رأسها ولا تزال الضحكة ترتسم على وجهها: "لا شيء، فقط تصرفاتكِ تبدو لطيفة ومضحكة بشكلٍ غريب!".

"وهل أبدو لكِ كأنني مهرج؟".

"كلا، لا تغضبي، لكنكِ تتصرفين برقةٍ غير معهودة".

"حسناً، اسمعي.. ها قد حصلتِ على الشاب الذي أشغلتِنا به طويلاً، أين ستستقران؟".

أجاب كريس: "لديّ منزلي الخاص كما أخبرتُكِ سابقاً، سنقيم فيه مبدئياً".

"ماذا تعني بمبدئياً؟".

"المنزل لم ينل إعجاب ساندرا تماماً، لذا سنبقى فيه بشكلٍ مؤقت حتى تجد منزلاً يلائم ذوقها".

سألتُ ساندرا باهتمام: "وما هي مواصفات منزل أحلامكِ؟".

"أريده قريباً من هنا قدر الإمكان، لأتمكن من رعاية مايا وكايلي والأم إيفا، خاصةً مع طبيعة عملكِ التي تغيّبكِ طويلاً".

ابتسمتُ بامتنان: "لا تقلقي، الخدم هنا كُثر، والفتاتان كبرتا بما يكفي، ولكن..".

قاطعتني بإصرار: "لن تقنعينا، يجب أن أكون بالجوار لأعتني بالجميع".

"كما ترغبين".

التفت لوكا نحوي وسأل: "هل نذهب الآن؟".

فهمتُ قصده وسألتُه: "إلى أين؟".

"إلى العمل، الفريق بانتظارنا".

"حسناً، انتظرني حتى أحزم حقيبتي".

أضاف لوكا بجدية: "ودعي الجميع جيداً، لأننا سنبقى في المقر حتى موعد المهمة، ولن نلتقي بهم إلا بعد عودتنا".

صعدتُ لغرفتي، وبينما كنتُ أجمع أغراضي، انهمرت دموعي بلا استئذان. لا أدري لماذا أبكي؛ فليست هذه المرة الأولى التي أغادر فيها في مهمة، لكن هذه المرة الشعور مختلف؛ أشعر للمرة الأولى أن لي "وطناً" حقيقياً، عائلةً أحبها وتنتظر عودتي بلهفة.

دخلت ساندرا فجأة، فحاولتُ مسح دموعي بسرعة لكنها لمحت انكساري. لم تتكلم، بل شرعت في البكاء معي وهي تهمس: "تشعرين بانقباضٍ في صدركِ مثلي، أليس كذلك؟".

"وبماذا تشعرين أنتِ؟".

"شعورٌ مريب، غصةٌ لا أستطيع تفسيرها".

ضحكتُ وسط دموعي: "هذا طبيعي، أليس كذلك؟".

"ربما لأنها المرة الأولى التي تغادرين فيها وأنا زوجة!".

"الزواج ليس إنجازاً أسطورياً أيتها الحمقاء!".

"بل هو كذلك، واسمعوا مَن يتكلم! التي ستزف خلال شهر، هههه".

"حسناً، لا تذكريني الآن."

"هل لديكِ وصية أخيرة؟".

"كلا، فقط اهتمي بنفسكِ وبالفتيات والأم.. وآه، تذكرت؛ ممنوعٌ عليكِ الحمل في غيابي!".

هتفت بصدمة: "اللعنة! ولماذا؟".

"لأنني خالته، ويجب أن أحضر كل مراحل نموه، مفهوم؟".

"طبعاً، لكن لا تتأخري، فأنا أتطلع لإنجاب فتاة".

"لو حدث لي مكروه وحملتِ بفتاتكِ، أطلقي عليها اسم (سيليست)، وعد؟".

"هههه، اسمكِ الحركي في المنظمة؟".

"أجل، ولا تفشي السر لأحد".

"لن أفعل أبداً".

عانقتُها بقوة ودموعي تتساقط بصمت، ثم مسحتُها بشجاعة وعدنا للأسفل. ودعتُ الأم إيفا بحرارة: "أمي، اعتني بنفسكِ، لن أغيب طويلاً".

أما مايا وكايلي فقد غمرتُهما بوصاياي: "تصرّفا بعقلانية ولا ترهقا ساندرا، حسناً؟".

ثم وجهتُ نظرةً صارمة لكريس: "أما أنت، فمهمتك الكبرى هي حماية ساندرا، هل هذا واضح؟".

ابتسم بهدوء: "لا تقلقي، فقط عودا سالمين".

ودع لوكا شقيقه ولوحنا للجميع ثم انطلقنا نحو المقر. طوال الطريق لم أتوقف عن البكاء، حتى سألني لوكا بقلق: "هل هناك ما يحزنكِ حقاً؟".

"كلا، هي مجرد رغبة جامحة في البكاء، دعني أفرغ ما في صدري قبل أن نصل".

وصلنا إلى المقر، وبمجرد أن ترجلتُ من السيارة مسحتُ آخر أثار دموعي محاولةً استعادة قناعي الحديدي. دلفتُ إلى الداخل دون أن ألقي تحيةً على أحد، وصعدتُ مباشرةً إلى غرفتي هرباً من نظراتهم المتفحصة.

سمعتُ صوت ماركو يسأل لوكا بفضول: "ما خطبها؟"، فأجابه لوكا بنبرة هادئة: "إنها متعبة قليلاً، لا بأس".

ارتميتُ على سريري، وبحثتُ عن علبة المنوم لأتناول أربعة أقراص دفعة واحدة؛ جرعة كفيلة بأن تجعلني أغيب عن الوعي حتى عشية المهمة المرتقبة يوم الخميس. وبالفعل، لم تمر دقائق حتى غصتُ في ظلامٍ دامس، منفصلةً تماماً عن العالم وما يدور فيه.

لم أستيقظ إلا على وقع ضجيج رايدر المزعج وهو يحاول إيقاظي بطريقته السخيفة؛ كان يهز كتفيّ ويدغدغ قدميَّ بإصرار. قذفتُه بالوسادة بحدة قائلة: "اللعنة عليك يا ملعون! ألا تملك طريقة ألطف لإيقاظ البشر؟".

انفجر ضاحكاً وقال بابتسامه مستفزة: "غداً هو يوم المهمة، وبسببكِ سنشارك جميعاً في هذا العرض الكوري، لذا انهضي لنأكل سوياً".

سألتُه بنعاس وأنا أحاول استيعاب الوقت: "كم الساعة الآن؟".

"الثامنة مساءً".

"وهل نحن في يوم الأربعاء؟".

"تماماً".

فركتُ عينيّ بتعب وقلتُ له: "سأستحم، هل تنوي البقاء هنا طويلاً؟".

غمزني بخبث وقال: "هاها، هل تريدين أن يقتلني لوكا؟".

تجاهلتُ تلميحه وسألت ببرود: "وما دخل لوكا بالأمر؟".

"أنا أعلم بشأن علاقتكما يا عزيزتي.. لقد فشلتما تماماً في إخفاء الأمر عني".

اعتلت الصدمة وجهي: "اللعنة، عما تتحدث؟".

"أنا رايدر فالكون، خبير التحليل النفسي والاجتماعي في هذه المنظمة، لم يصعب عليّ كشفكما".

"حسناً يا عبقري، هل أخبرت أحداً؟".

"فكرتُ في ذلك، لكنني تذكرتُ أن جيوفاني قد لا يسعده الخبر، لذا سأحتفظ بسركما الصغير؛ فأنا، على عكس الزعيم، أؤمن بالحب".

قلتُ بتهكم: "أحسنت أيتها اللعنة، أخيراً اتخذت قراراً مفيداً في حياتك!".

"فقط من أجلكِ يا سيليست".

"حسناً، اخرج الآن!".

خرج ضاحكاً، وبعد حمامٍ سريع، ارتديتُ ملابسي السوداء المعتادة وخرجتُ إليهم. وجدتُهم في الحديقة يتحلقون حول المسبح في جلسةٍ يسودها الهدوء، أقدامهم تلامس الماء البارد. اتخذتُ مكاني المعتاد بين لوكا وجيوفاني، فرمقني الزعيم بنظرةٍ ساخرة: "ظننتُ أنكِ فارقتِ الحياة، لقد نمتِ لأربعة أيام متواصلة!".

ماركو بقلق: "ولكن ألن يؤثر ذلك على صحتها؟ لم تتناول ذرة طعام".

طمأنه باولو: "هذا المنوم مزود بمواد مغذية للجسم تُفرز تلقائياً، لذا فهي بخير تماماً".

سأل فيليكس بجدية: "هل أنتِ مستعدة للغد؟".

نظرتُ إليه باحتقار وقلتُ: "أجل، ولا تظن أنني صفحتُ عنك أو أصبحتُ أطيقك".

تنهد فيليكس بملل: "اللعنة، ألم تنسي الأمر بعد؟".

"أنا أُمهل ولا أُهمل، لا تنسَ ذلك أبداً".

قاطعنا رايدر بملاحظته الماكرة: "ألم تلاحظوا أن العنصر الأنثوي في مافيتنا يقع تحت سيطرة جيوفاني ولوكا؟".

استفهم براين: "كيف ذلك؟".

أيد ماركو الفكرة: "معه حق، إنها تجلس دائماً بينهما كأنها ملكية خاصة".

أجبتُهم بكل ثقة وغرور: "ربما لأنني العضو (المتدخل)، ورتبتي تقع تحديداً تحت جيوفاني وفوق لوكا".

زمجر فيليكس: "لا دخل للرتب بهذا التقارب!".

همستُ له بحدة: "لا دخل للعنتك أنت!".

التفت جيوفاني إليّ مستغرباً: "لم أذكر أنني كشفت ترتيب الرتب لأحد سوى لوكا.. هل هو من أخبركِ؟".

"ألم يكن يجدر به ذلك؟".

"ليس بالأمر المهم على أي حال".

هنا طالب رايدر بمعرفة ترتيبه، فأجاب جيوفاني ببرود: "أنت وبراين وفيليكس وباولو أعضاء رئيسيون، ماركو عضو مميز يسبقكم برتبة، ثم يأتي لوكا كنائب للزعيم، وأنا الزعيم، أما سيليست فهي المتدخلة ومكانها بيني وبين لوكا".

اشتكى براين: "اللعنة، بعد كل هذا الجهد أكتشف أنني في ذيل القائمة؟".

ضحك جيوفاني بجانبية وقال: "أنتم جميعاً متساوون بالنسبة لي، هذه الرتب ليست سوى قوانين سخيفة نتبعها في عالم المافيا".

في تلك اللحظة، ومع حديثه عن المساواة، قفزت صورة الغرفة المغلقة إلى مخيلتي، فقررتُ المجازفة بسؤاله: "زعيمي، هل لي بسؤال؟".

ناظرني لوكا بحدة وكأنه يحذرني، لكن جيوفاني قال بابتسامة: "اسألي يا فتاتي".

"بخصوص تلك الغرفة المغلقة في الطابق العلوي.. ما سرها؟ أشعر بفضول يكاد يقتلني".

اعترف رايدر أيضاً: "الحقيقة أنني لاحظتها، لكنني خشيتُ سؤالك".

انضم ماركو للفضوليين: "هل ستخبرنا؟ نريد أن نعرف".

اعتدل جيوفاني في جلسته وقال بغموض: "جيد، الجميع يريد المعرفة إذن؟ اتبعوني!".

نهضنا جميعاً خلفه، لكن قبل أن نتحرك، اندفعتُ بسرعة نحو فيليكس ودفعته بكل قوتي داخل المسبح. كان الماء بارداً للغاية والطقس قارساً، فنظر إليّ بغضب عارم وهو يحاول الخروج، فقلتُ بانتصار: "الآن تعادلنا، يمكنني الموت بسلام".

سحبني لوكا من ذراعي هامساً بحدة: "زعيمي! فتاتي! لم أنسَ هذه الكلمات.. ستعاقبين بشدة يا صغيرة، مفهوم؟".

نفضتُ يدي منه وقلتُ بتحدٍ: "تجرأ وافعلها ثانية وستندم بقية حياتك".

خرج جيوفاني من غرفته حاملاً مفتاحاً قديماً، وصعدنا خلفه إلى العلية. وقفنا جميعاً أمام الباب الموصد، وضع المفتاح في القفل وأداره ببطء وهو يتمتم: "تذكروا.. محتواها ليس لأصحاب القلوب الضعيفة".

الباب يُفتح الآن على مجهولٍ قد يغير نظرتكم لجيوفاني للأبد..

أضاء جيوفاني الغرفة وسبقنا إلى الداخل، لنتقدم خلفه واحداً تلو الآخر، وما إن وقعت أبصارنا على محتواها حتى لجمت الدهشة ألسنتنا؛ فآخر ما كنا نتوقعه من رجل بصلابة جيوفاني هو هذا الجانب العاطفي الخفي.

كانت الغرفة عبارة عن أرشيف حيّ لرحلتنا معاً؛ الجدران مغطاة بصور توثق أدق تفاصيلنا منذ اللحظة الأولى لانضمام كل منا للمنظمة. رأيت صوري منذ يومي الأول، بعضها كان بعلمي، وكثير منها كانت لقطات عفوية التُقطت لي دون أن أشعر بوجود الكاميرا.

تفرقنا في أرجاء الغرفة، كل منا يقف أمام صوره بصمت، وكأن تلك اللحظات المنسية قد بُعثت من جديد لتغمرنا بحنين دافئ. نظرتُ إلى جيوفاني بذهول وسألته: "ما كل هذا يا زعيم؟".

تنهد بعمق وأجاب: "هذه ذكرياتنا.. كوننا زملاء في عالم الجريمة لا ينفي حقيقة أننا كنا يوماً ما عائلة واحدة. لقد قضيت معكم أجمل سنوات عمري، ولو كُتبت لي حياة أخرى لتمنيت قضاءها بينكم ومع كارولين أيضاً".

ابتسمتُ قائلة: "من كان يظن أن هذا القناع القاسي والبارد يخفي خلفه كل هذا النبل والطيبة؟".

جلسنا على الأرائك الموزعة في الغرفة، نسترجع الحكايات الكامنة خلف كل صورة، ونتجاذب أطراف الحديث بحميمية غير مسبوقة، بينما ظل فيليكس يراقبنا بصمت مطبق.

قال رايدر وهو يتأمل إحدى الصور القديمة: "حين انضممت للمنظمة، لم يكن هناك سوى لوكا وماركو وجيوفاني".

استفسر براين: "هل يعني هذا أنني كنت التالي في الترتيب؟".

أوضح جيوفاني: "في البداية كنت أنا ولوكا، هو الوحيد الذي آمن برؤيتي ودعمني لنؤسس هذا الكيان، ثم تبعنا ماركو، فرايدر، فبراين، ثم سيليست، وباولو، وكارولين، وأخيراً فيليكس".

علق رايدر بإعجاب: "يا رجل، لقد حققنا نجاحات باهرة.. هذا التاريخ مثير للفخر".

قاطع جيوفاني حماسنا بنبرة تحذيرية: "لا تتعمقوا في ذكرياتكم القديمة، أخشى أن تكتشفوا جوانب من أنفسكم الحقيقية قد تضعفكم".

سأل باولو بفضول: "أعتقد أنك الوحيد هنا الذي يعرف هوياتنا وماضينا الحقيقي، أليس كذلك؟".

"بالتأكيد، لكن أسراركم ستموت معي".

سأل ماركو بنبرة تساؤل حذر: "جيوفاني، لنفترض أن أحداً فقد شغفه بهذا العمل وأراد الانسحاب، هل هذا متاح؟".

تبدلت نبرة جيوفاني إلى الصرامة المعهودة: "الإجابة هي لا؛ فإما أن تبقى معنا أو تغادر إلى خالقك. ولكن لو أردت أن تكون المتطوع الأول يا ماركو، فسيسرني أن أجعل منك عبرة للبقية".

ضحك ماركو بتوتر: "كلا يا زعيم، مجرد تساؤل عابر".

هنا تدخل رايدر بسؤال ملغوم: "وماذا لو وقع عضوان في حب بعضهما وتزوجا سراً دون علمك؟ كيف ستكون ردة فعلك؟".

أجابه جيوفاني ببرود وهو يهم بالخروج: "حين يحدث ذلك، لكل مقام مقال. والآن انصرفوا للنوم، فغداً تبدأ مهمتنا الكبرى".

افترقنا إلى غرفنا ولم نلتقِ إلا في الصباح الموالي أمام الطائرة الخاصة الجاهزة للإقلاع نحو مدينة "إنتشون" الكورية، حيث الموعد المرتقب بين "سونبي" و"الأخوة سولنتسيفو".

داخل الطائرة، اخترتُ الجلوس بجانب لوكا، بينما جلس جيوفاني ورايدر خلفنا، يليهما فيليكس وباولو، وفي المؤخرة براين وماركو. مال لوكا نحوي وهمس في أذني بصوت خفيض: "العيون تلاحقنا من كل جانب، لذا من الأفضل أن ننسى أمر علاقتنا مؤقتاً ونركز على المهمة".

أومأتُ برأسي موافقة، وكانت تلك آخر كلماته قبل أن يطبق الصمت على الجميع حتى لامست عجلات الطائرة أرض كوريا.

دخلنا الفندق الذي اخترناه بعناية، حيث استلم كل منا مفتاح غرفته الخاصة، موزعين في ممر واحد لضمان السيطرة الأمنية. كانت غرفتي تقع تماماً في مواجهة غرفة جيوفاني. وضعتُ حقيبتي جانباً، لكن حيرةً ما تملكتني بشأن توقيت التحرك التالي، فخرجتُ وطرقتُ باب غرفة الزعيم لاستيضاح الأمر.

فتح جيوفاني الباب، ووقف أمامي بصدرٍ عارٍ، متجاهلاً الرسميات. رغم أن هيئته القوية كانت كفيلة بإرباك أي شخص، إلا أنني حافظتُ على ثباتي وبرود نظراتي، مكتفيةً بالنظر إلى عينيه مباشرةً: "أريد استشارتك في أمر ما".

أومأ لي برأسه وعاد للداخل قائلاً: "ادخلي".

أجبته بصرامة: "لن أدخل، سأسألك هنا سريعاً".

ترددتُ لثوانٍ، لكنني في النهاية لحقتُ به مع حرصي على ترك الباب خلفي مفتوحاً على مصراعيه. وجدته قد استقر على أريكته يشعل سيجارته بهدوء، ثم سألني: "ما هو سؤالكِ؟".

"ما هي الخطوة التالية؟".

وقف واقترب مني بخطواتٍ واثقة: "الخطة خطتكِ أنتِ يا سيليست، أنتِ من يقرر".

"إذن يجب أن نتحرك فوراً. لقد أرسلتُ رجالنا للتمويه، ولا بد أنهم استقروا في مواقعهم الآن".

"حسناً، أبلغي بقية الأعضاء بذلك".

قلتُ معترضة: "جيوفاني، لا تتصرف وكأنني القائدة، أنت الزعيم هنا وعليك تولي زمام الأمور".

ابتسم بغموض وسأل: "ألا تطمحين لتكوني الزعيمة من بعدي؟".

"هذا المنصب من حق لوكا، هو الأجدر به".

"صحيح، لكن لو اخترتُكِ أنتِ قبل رحيلي، فستكون لكِ".

"حينها سأسلمها للوكا فوراً؛ فأنا أفضّل أن أظل عضوة ميدانية، لا زعيمة مقيدة بالقرارات والمسؤوليات".

"كما تشائين.. اذهبي وجهزي نفسكِ، سأقوم بإخطار الجميع وسننطلق حالاً".

عُدتُ إلى غرفتي، خلعتُ ملابسي العادية وارتديتُ زيَّ المافيا القتالي. بدأتُ بتوزيع ترسانتي الصغيرة بدقة؛ خناجر مخبأة بمهارة تحت الجوارب وفي الأكمام، مسدسات صغيرة في الجيوب الخلفية، وقنابل يدوية في الجيوب الأمامية. وضعتُ الكمامة السوداء وأسدلتُ شعري على وجهي لإخفاء ملامحي، ثم خرجتُ.

كان الجميع في الممر، متأهبين بكامل عتادهم. ركبنا السيارات وانطلقنا نحو نقطة التجمع بالقرب من "إنتشون"، ننتظر إشارة البدء من فريق التمويه. وفجأة، اهتز هاتفي برسالة من قائدهم:
"سيدتي، تم الاختراق بنجاح. سيطرنا على الموقع واحتجزنا قيادات (سولنتسيفو)، أما (سونبي) فلم يظهروا بعد".

سألتُه بتركيز: "هل من خسائر في صفوفكم؟".

"فقدنا عضوين في الاشتباك الأول".

"بقيتم خمسة إذن. حافظوا على الرهائن، وحين تصل (سونبي) طبقوا نفس الخطة بحذر مضاعف".

"عُلم وينفذ".

مرت ساعة من الانتظار المشحون بالتوتر داخل السيارات، حتى وصلت الرسالة المنتظرة:
"سيدتي، وصلت (سونبي). تمت تصفية العناصر العادية واحتجاز الرؤوس الكبيرة".

"أرسل لي صور الرهائن فوراً".

وصلت الصور تباعاً؛ الأخوة "سولنتسيفو" الأربعة مكبلين، وبجانبهم زعيم "سونبي" ونائبه.

"عمل جبار. كم تبقى منكم الآن؟".

"خمسة، ولا زلنا نسيطر".

"اثبتوا في مواقعكم، نحن في طريقنا إليكم".

التفتُّ نحو الأعضاء وأعطيتُ إشارة الانطلاق النهائية، لتهدر المحركات نحو ساحة الحسم.

قطعنا المسافة نحو المقر والتوتر ينهش أرواحنا، وما إن وصلنا حتى استقبلنا مشهدٌ يفوح برائحة الموت؛ الأبواب محطمة، والجثث ملقاة كأكياس مهملة، والدماء ترسم لوحاتٍ بشعة على الجدران.

علق رايدر بنبرة متهدجة: "يبدو أن فريقنا أبدع في هذه المهمة".

لكن الكلمات تجمدت في أذناي حين وقعت عيناي على أحد جنودنا ملقىً على وجهه. كلما توغلنا في ردهات ذلك القبو الموحش، كان عدد جثث رجالنا يزداد، حتى وجدتُ العضو الذي كان يراسلني غارقاً في بركةٍ من دمائه القانية. جثوتُ على ركبتيّ، تحسستُ رقبته الباردة وناديتُ باولو لتحديد زمن الوفاة، ليأتي الرد كالصاعقة: "لقد فارق الحياة منذ ثلاث ساعات".

لم أملك وقتاً لاستيعاب الصدمة، صرختُ بأعلى صوتي: "إنه فخ! احذروا!".

انفجر الجحيم في تلك اللحظة؛ انهمر الرصاص كالمطر من كل زاوية، فارتدّينا خلف الصناديق الخشبية وبدأنا رداً يائساً. كان الاشتباك ملحمياً وقاسياً، الرصاص يئز حول آذاننا محاولاً خطف أرواحنا. لمحتُ ظلاً يتحرك، فأصبتُ كتفه واندفعتُ للأمام أبحث عن زاوية أفضل، حيث كان رايدر يتبعني بظله وفجأة صرخ: "اخفضي رأسكِ اللعنة!".

مرت رصاصةٌ كادت أن تشطر رأسي، فتقدم بجسده ليغطيني، مطلقاً العنان لسلاحه. تراجعتُ محتميةً بعمودٍ خرساني، أحاول توزيع رصاصاتي بدقة لحماية رفاقي، وعيناي تبحثان بين الوجوه الملثمة عن القادة.

فجأة، رأيتُ فيليكس يترنح ثم يسقط أمام عينيّ بجسدٍ دمويّ مخترق. صرختُ فزعةً واندفعتُ نحوه وسط جحيم الإطلاق، سحبتهُ وراء حاجزٍ وسندتُ رأسه على فخذي، يداي ترتعشان وأنا أتفحص جراحه: "فيليكس! لا تمت الآن، افتح عينيك أرجوك!".

أشار بيده المرتجفة نحو كتفه، والأنفاس تخرج من صدره بصعوبة وهو يهمس: "إنها تحرق.. الجحيم ينتظرني".

أطبق جفنيه تماماً، فزلزلتُ المكان بصرختي: "كلا! افتح عينيك أيها الوغد، لا تجرؤ على الرحيل أنت أيضا!".

هرع باولو نحونا ليبدأ محاولاته المستميتة لإسعافه، بينما عدتُ أنا لساحة المعركة بقلبٍ مسعور. لمحتُ أحد الإخوة "سولنتسيفو"، فصوبتُ بكل غليلي نحو ركبته حتى سقط عاجزاً، وأشرتُ لماركو القناص بمكانه، ليحصد كل من حاول الاقتراب لنجدته. استمر النزيف البشري حتى نفدت ذخيرتي، فصرختُ بطلب الدعم. رآني لوكا في حالة من الهستيريا، فرمى لي مخزناً جديداً وهو يصرخ وسط ضجيج المدافع: "خذي! لا تتوقفي، إياكِ أن تتوقفي!".

كنتُ أحتمي بعمودٍ صخري حين لمحتُ زعيم "سونبي" يصوب فوهة سلاحه الغادر نحو ظهر جيوفاني الذي كان مشغولاً بصد هجومٍ آخر. صرختُ بكل ذرات كياني: "جيوفاني! خلفك!".

أطلقتُ رصاصة استقرت في صدر الزعيم الكوري، لكنه كان قد ضغط على الزناد بالفعل؛ رأيتُ جيوفاني ينهار كجبلٍ عظيم، والرصاص يخترق ظهره ليسقط غارقاً في دمه.

انهار عالمي في تلك اللحظة، ركضتُ نحوه تحت غطاءٍ ناري كثيف من براين، وبمساعدة ماركو سحبنا جسد الزعيم الخامد نحو باولو. كان الذهول والذعر يكسوان وجوهنا؛ فغياب جيوفاني يعني سقوط الروح القائدة، شعرتُ لأول مرة باليتم الحقيقي.

أخذتُ ذخيرة جيوفاني وعدتُ إلى جانب لوكا. تبادلنا نظرةً واحدة اخترقتها دمعةٌ حرّى على وجنتي، همستُ له: "فيليكس وجيوفاني سقطا".

اتسعت عيناه بصدمة، لكنه تمسك بسلاحه وقال بصوتٍ مكسور: "انتبهي لنفسكِ، لا أريدكِ أن..".

لم يكمل جملته؛ اخترقت رصاصةٌ طائشة جسده ليسقط أمامي جثةً هامدة في ثوانٍ. تيبست الدماء في عروقي، دارت الدنيا بي كإعصارٍ هائج. نظرتُ حولي بيأس؛ رايدر ملقىً بلا حراك، وبراين يصارع الموت وهو يقاوم بجسدٍ مزقه الرصاص.

صار نظري ضبابياً، والكون من حولي يغرق في سكونٍ مرعب. رفعتُ مسدسي بوهن، لكن رصاصةً غادرة اخترقت كتفي، فابتسمتُ استسلاماً لهذا القدر المحتوم. فقدتُ حاسة السمع فجأة، وصار العالم صامتاً كالقبر. يقولون إن الرصاصة التي تقتلك لن تسمع صوتها، لكنني سمعتُ صداها بوضوح. اخترقت الرصاصة الثانية كتفي الآخر، ثم ثالثة شلت قدمي، وأخيراً.. شعرتُ ببرودة الرصاصة الرابعة وهي تشق طريقها نحو قلبي.

سقطتُ بكل ثقلي فوق جسد لوكا، وعياني تلمحان وجهه للمرة الأخيرة، قبل أن يسدل الموت ستائره السوداء على كل شيء... وتلاشت الدنيا في غياهب العدم.

فتحتُ عينيَّ تدريجياً، وكأنني أسحبُ روحي من بئرٍ عميقة من العتمة. اجتاحني ألمٌ ممزق، نبضاتُ وجعٍ تنهش كل إنشٍ في جسدي المنهك. لم يكن الجسد سوى خريطة من الضمادات البيضاء التي بدأت بقع الدماء الحمراء تخترقها ببطء، وكنتُ مكبلةً إلى كرسيٍّ حديدي بارد، تضغط قيوده على معصميّ وتزيد من عذابي.

نظرتُ حولي برؤيةٍ مشوشة؛ كان المستودع قديماً، موحشاً، جدرانه تتنفس رطوبةً خانقة. لا شمس، لا هواء، فقط مصابيح هزيلة ترتجف إضاءتها فوق رؤوسنا، وكأنها هي الأخرى تنازع الموت. رأيتهم جميعاً.. رفاقي، إخوة الدم والمصير، مكبلين في وضعياتٍ ذليلة، والضمادات تكسوهم كأكفانٍ لم تكتمل. ساد صمتٌ جنائزي أرعبني؛ هل هم جثثٌ هامدة أم أن أرواحهم لا تزال عالقة هنا؟

حاولتُ الصراخ، لكن صوتي خرج مبحوحاً، ضعيفاً لا يجاوز حدود صدري. وبغريزة البقاء الأخيرة، بدأتُ أهزُّ الكرسي بكل ما تبقى لي من قوة، وأخبط بقدمي المصابة الأرض حتى أحدثتُ ضجيجاً كسر سكون القبر ذلك.

رفع ماركو رأسه ببطءٍ شديد، وعيناه المحاطتان بالهالات السوداء تحاولان استيعاب الكارثة، همس بصوتٍ مرتجف: "هل هم بخير؟ سيليست.. هل أنتِ على قيد الحياة حقاً؟".

"أنا هنا يا ماركو.. أنا بخير، ساعدني، أيقظهم.. لا تتركهم ينامون!".

بدأ ماركو ينادي بأسماء الرفاق واحداً تلو الآخر بنبرةٍ يملؤها اليأس، حتى بدأوا يستفيقون من غيبوبة الألم. تنفستُ الصعداء حين رأيتُهم يفتحون أعينهم؛ لقد نجونا من الموت في ساحة المعركة، لنواجهه هنا في هذا القفص الصدئ.

قال باولو، وصوته يقطر استسلاماً وهو ينظر إلى جروحنا المفتوحة: "لا تسعدوا كثيراً بظفركم بالحياة.. إذا بقينا هكذا لست عشرة ساعة أخرى، فسنكون جميعاً في عداد الموتى. نحن ننزف، وأجسادنا بدأت تنهار".

سكت الجميع، وغرقنا في تأمل مصيرنا المظلم. التقت عيناي بعينيّ لوكا؛ كان ينظر إليّ بنظرةٍ لم تخلُ من حبه الأبدي رغم الوجع، ابتسم لي ابتسامةً جانبية ذابلة وغمزني بعينه، وكأنه يخبرني أنه سيموت سعيداً طالما رآني أخيراً. ضحكتُ بمرارة رغم الدموع التي تحرق مقلتي، ورفعتُ حاجبي له بتحدٍ.

كسر فيليكس الصمت قائلاً بنبرةٍ خافتة: "شكراً لكِ سيليست.. لن أنسى أنكِ كنتِ أول من هرع نحوي في ذلك الجحيم".

"نحن عائلة واحدة يا فيليكس.. في الميدان تسقط كل الخلافات التافهة، لو كنتَ مكاني لفعلتَ المثل".

أومأ برأسه بصدق: "بالتأكيد.. كنتُ سأفعل".

تكلم جيوفاني، وكان منكسر الهيبة، وجهه شاحبٌ كالموتى: "لقد أنقذتني أيضاً.. شكراً لكِ يا فتاتي، وأعتذر لأنني كنتُ زعيماً ضعيفاً قادكم إلى هذا الفخ".

"لا تقل هذا يا زعيم.. لستَ ضعيفاً، نحن فقط واجهنا قدراً لعيناً لم يكن لنا يدٌ فيه".

براين همس بأسى: "رؤيتك تسقط يا جيوفاني جعلت قلبي يتوقف، فقدتُ السيطرة على كل شيء بعدها".

تنهد لوكا وسألني بقلقٍ مميت: "سيليست، جسدكِ مغطى بالكامل بالضمادات.. أين استقرت رصاصاتهم اللعينة؟".

"كتفيّ، صدري، وساقي.. لقد أخذتُ نصيبي العادل من الرصاص".

باولو ردَّ بذهول: "اللعنة.. جسدكِ محطم، إنها معجزة أن قلبكِ لا يزال ينبض".

صرخ رايدر فجأة، وصوته يرتجف خوفاً: "هل جننتم؟ تتحدثون عن جراحكم وكأننا في نزهة! نحن سنموت هنا! هل استسلمتم تماماً؟".

رد جيوفاني ببرود ساخر: "وماذا تريدنا أن نفعل؟ أن نرقص بالقيود؟ هاتِ ما عندك من حلول!".

رايدر بعجز: "لا أدري.. فكوا هذه السلاسل!".

لوكا سخر منه بمرارة: "لو كان الأمر بيدك لفككتها أنت أولاً.. توقف عن الصراخ، فبرودنا هو ما يبقينا صامدين الآن".

فجأة، اخترق صرير الأقدام الثقيلة هدوء المكان، خطواتٌ تتقدم نحو الباب المعدني ببطءٍ مرعب. همس براين وعيناه معلقتان بالمدخل: "ترقبوا.. لقد بدأ الفصل الأخير من هذا العذاب".

انفتح الباب المعدني بصريرٍ حادٍّ مزّق سكون المستودع، ليدلف منه الأخوة الثلاثة من "سولنتسيفو" يتقدمهم نائب زعيم "سونبي" كظلالِ شؤمٍ تقتحمُ قبراً. وقف الأربعةُ أمامنا بزهوِ المنتصرين، عيونهم تلمعُ بحقدٍ دفين وشماتةٍ مقززة.

خطا أكبر الإخوة "سولنتسيفو" خطواتٍ وئيدة نحو جيوفاني، حدّق في وجهه المثقل بالجراح وقال بنبرةٍ تفيضُ غطرسة: "جيوفاني روسو.. العظيم الذي ملأ الدنيا ضجيجاً. لم يسبق لنا اللقاء، لكنك استعجلتَ قدرك وحاولتَ التسلل إلى عريننا دون استئذان.. انظر إلى حالك الآن، كم تبدو مثيراً للشفقة وأنت عاجزٌ في قبضتي!".

رفع جيوفاني رأسه ببطء، والدماء تسيلُ من جبهته لتختلط بابتسامته الساخرة، وردَّ بصوتٍ هادئٍ كهدوء ما قبل العاصفة: "ربما أكون مشفقاً عليك، لكنني على الأقل لا زلتُ أحتفظ بإثارتي حتى وأنا بين يدي حثالةٍ مثلك".

انفجرنا ضحكاً رغم الألم، فقد كان كبرياء جيوفاني سلاحاً أمضى من الرصاص. استشاط الروسي غضباً وهوى بلكمةٍ غادرة على وجه جيوفاني، كانت قويةً لدرجة أنها أسقطته أرضاً وهو لا يزال مكبلاً بكرسيه.

اندفع الحراس ليرفعوه من جديد، فبصق جيوفاني الدماء من فمه وضحكته المريرة لم تفارقه: "يا لك من جبان.. هل تظن أن ضرب مقيدٍ يجعلك بطلاً؟ لو فككتَ هذه السلاسل لما تجرأتَ حتى على النظر في عيني!".

انهالت اللكمات على وجه الزعيم مرةً أخرى حتى هوى مجدداً، لكن روحه كانت عصيةً على الانكسار. صرخ جيوفاني وهو ملقىً على الأرض بكرامته التي تعانق السماء: "أمثالك من أشباه الرجال لوثوا شرف المهنة.. هل تظن أن ملامحك الشقراء هذه تجعل منك رجلاً؟ سؤالي لك بسيط: هل تملك ذرة رجولة حقيقية تحت هذا القناع؟".

كان برود جيوفاني يستفز الوحش الكامن في الخصم، وهذا هو الخطر بعينه. أعادوه إلى وضعه القائم، فاقترب الروسي من أذنه وهمس بنبرةٍ مسمومة: "إذا كنت تشك في رجولتي، فاسأل "أماندا".. ستخبرك بكل التفاصيل التي تود معرفتها. لا بد أنك تفتقدها بشدة، أليس كذلك؟".

في تلك اللحظة، تحول جيوفاني إلى إعصارٍ من الغضب؛ انتفض في كرسيه وصرخ صرخةً هزت جدران المستودع، صرخةً تحمل وجعاً دفيناً وماضياً لم يلتئم: "أيها الوغد! لو كنت تملك شرفاً لفككت وثاقي وواجهتني وجهاً لوجه كذكرٍ حقيقي، بدل أن تتحدث بلسان النسوة أيها الأشقر المائع!".

صفق "سولنتسيفو" بيديه وهو يضحك بهستيريا شيطانية: "رائع! ذكرُ (أماندا) وحده كفيلٌ بجعلك تفقد عقلك.. علمتُ أنك لا تزال جريحاً بسببها و...".

قاطع نشوة انتصاره رنينُ هاتفٍ مزعج. أجاب باختصار، وسرعان ما تبدلت ملامحه الغارقة في الغطرسة إلى ملامح قلقٍ وارتباك. نظر إلى رفاقه وقال بصوتٍ متوتر: "الزعيم الأكبر وصل.. هو هنا الآن!".

انسحب الأربعةُ على عجل، يجرون أذيال القلق خلفهم، وتركوا خلفهم صدى كلمات جيوفاني الحارقة ورائحة الموت التي بدأت تتسلل إلى صدورنا، بينما بقينا نحن في مواجهة المجهول، نتساءل: مَن يكون هذا "الزعيم الأكبر" الذي يرتعدُ منه هؤلاء القتلة؟

ساد صمتٌ ثقيل، لم يقطعه سوى أنين الجراح وصوت أنفاسنا المتهدجة، حتى همس ماركو بتوجس: "من عساه يكون زعيمهم الأكبر؟ من هذا الذي يرتعدون منه هكذا؟".

رد لوكا بنبرة مثقلة بالهزيمة: "هذا هو اللغز الذي لم نتمكن من فكه قط".

فجأة، انبعث صوت جيوفاني هادراً، صرخة مليئة بالمرارة والغضب وجهها إليّ وإلى لوكا: "اللعنة على كليكما! خطتكما كانت هشة، ناقصة، ومثيرة للسخرية! انظرا إلى أين قادتنا حماقتكما.. نحن هنا ننتظر رصاصة الرحمة بسببكما!".

طأطأت رأسي خجلاً وندماً، فكلماته كانت كالنصال تخترق صدري؛ لقد كان محقاً، استسلمنا لمشاعرنا ووقعنا في فخ الحب في توقيتٍ قاتل، أهملنا التفاصيل الدقيقة، والآن يدفع الجميع ثمن هذا الاستهتار دماءً وقيوداً.

حاول ماركو تلطيف الأجواء، فنظر إليّ وقال: "جيوفاني، أنت هائج الآن، اهدأ قليلاً.."، ثم التفت نحوي وأكمل: "ليس خطأكما وحدكما، الظروف كانت أقوى منّا جميعا".

قلتُ بصوتٍ مخنوق بالدموع: "بل هو خطئي.. لقد عمي بصري عن الثغرات، استخففتُ بالعدو وسقطتُ في الفخ، وأخذتكم معي إلى الهاوية".

تدخل براين بنبرة هادئة: "بل هو القدر يا سيليست، لا تلومي نفسكِ".

وأيده فيليكس قائلاً: "جميعنا يعلم أن هناك شيفرات ومعلومات يستحيل الوصول إليها، لو كان هناك خطأ فنحن جميعاً شركاء فيه، فلا تحمّلي قلبكِ ما لا يطيق".

عاد الصمت ليخيم علينا مجدداً، حتى سأل رايدر محاولاً استجماع شتات الخريطة: "من كانوا هؤلاء الأوغاد الذين زارونا قبل قليل؟".

أجاب لوكا: "ثلاثة منهم هم إخوة سولنتسيفو، والرابع هو نائب زعيم سونبي".

تساءل رايدر بدهشة: "وأين الزعيم والأخ الرابع إذن؟".

تذكرتُ تلك اللحظات الدامية في الاشتباك، فقلتُ بوهن: "لقد أصبتهما.. أطلقتُ عليهما النار قبل أن يسقط الجميع".

علق فيليكس بإعجاب رغم الألم: "عملٌ بطولي في تلك الفوضى!".

فجأة، تحولت نظرات جيوفاني من القسوة إلى انكسارٍ لم نعهده فيه أبداً. بدأت الدموع تنهمر على وجنتيه الجريحتين، وانتحب بصوتٍ مزق نياط قلوبنا. تسمرنا في أماكننا؛ الزعيم الصلب، الجبل الذي لا يهتز، ينهار أمامنا كطفلٍ يتيم.

سأله باولو بقلق: "جيوفاني.. هل أنت تودعنا؟ هل جراحك مميتة؟".

صرخ لوكا بهلع: "ما الذي يجري معك؟!".

رفع جيوفاني عينيه الغارقتين بالأسى نحوي، وقال بصوتٍ مرتجف: "اعتذر يا فتاتي.. ليس خطأكِ أبداً. أنا من تهورت، أنا من دفعتكم للمحرقة دون تخطيطٍ كافٍ. بمجرد أن أخبرتموني بجاهزية الخطة، أعمى الانتقام بصيرتي ولم أتحقق من شيء.. أردتُ فقط أن أراهم جثثاً تحت قدمي".

صمت قليلاً ثم تابع وشهقاته تزداد مرارة: "كل هذا بسبب ما قاله ذلك الوغد.. قبل خمس سنوات، اختطفوا أختي "أماندا". طالبوني بفدية تعجز الجبال عن حملها، ومافيتنا حينها لم تكن تملك شيئاً. حاولتُ إنقاذها بمفردي، كتمتُ وجعي عنكم جميعاً، حتى أرسل لي ذلك الشيطان فيديو... فيديو يوثق تعذيبها، وفي نهايته.. ذبحها أمام عيني بدمٍ بارد".

توقف ليمسح دموعاً لا تنتهي ثم أكمل: "في ذلك اليوم فقدتُ عقلي، خرجتُ للشوارع أصرخ كالمجاذيب، ثم عدتُ إليكم بقناع البرود وكأن شيئاً لم يكن. عاهدتُ نفسي على الثأر لأماندا مهما كلف الثمن، وعندما لاحت الفرصة، طغت مشاعري على عقلي ونسيتُ أنهم ذئابٌ لا تؤكل بسهولة".

استطرد وهو ينظر للفراغ بقلبٍ محطم: "لم يكن لي في الدنيا سواها، كانت في الخامسة عشرة، طفلة بروح محاربة، حصلت لتوها على الحزام الأسود في التايكواندو، كنت أحلم بضمها إلينا لتكون قوتي وسندي.. مات والدانا وهي في السادسة، فكنت لها الأب والأم والأمان، لكنني في النهاية... فشلتُ في حمايتها".

خيم وجومٌ ثقيل على المستودع، وامتزجت دموعنا بدموعه. لأول مرة، نرى الإنسان الكامن خلف لقب "الزعيم"، ولأول مرة نشعر أننا لا ننتمي لمافيا، بل لعائلة يجمعها الوجع قبل الدم.

تغيرت موازين القوى في قلوبنا، وصار الانتقام قضية الجميع لا قضية جيوفاني وحده..

مرت أكثر من ساعة أخرى ونحن نرزح تحت وطأة صمتٍ جنائزي، نتبادل نظراتٍ ذابلة يملؤها الأسى وتكسرها الخيبة. فجأة، شعرت ببرودةٍ غريبة تسري في عروقي، نبضات قلبي بدأت تتباطأ وكأنها آلة أوشكت على التوقف، وجسدي المنهك بدأ ينتفض بارتجافٍ هستيري لم أستطع كبحه. انتبه الجميع لحالتي فتعالت أصواتهم المذعورة تنادي باسمي، لكنني لم أملك قوةً للرد سوى بهمسٍ واهن: "أشعر بالبرد.. بردٌ شديد"، ثم أسدلت جفوني واستسلمت للظلام.

لم أستفق إلا وأنا جاثمة على ذلك الكرسي الملعون مرة أخرى. سألتهم بنبرة تائهة عما حدث، فأجابني لوكا وعيناه تفيضان بالخوف: "لقد تدهورت حالتكِ تماماً، أخذوكِ غصباً، ضمدوا جراحكِ وأسعفوكِ ثم أعادوكِ إلينا.. صغيرتي، هل أنتِ بخير الآن؟".

تمتمتُ بمرارة: "ليس كثيراً.. الوجع أكبر من الضمادات".

ضرب باولو رأسه بالحائط خلفه بزفرة يائسة: "ليتني أستطيع فك هذه الأصفاد اللعينة.. كنت لأعيدكِ للحياة بيديّ".

ابتسمتُ له بشحوب، وعيناي شبه منغلقين، وسألتهم: "وأنتم؟ ماذا حدث في غيابي؟".

رد براين بصوتٍ متهدج: "أتى أحد هؤلاء الأوغاد، حاول استعراض قوته علينا بمضايقاتٍ رخيصة ثم انصرف كالجرذ".

قلتُ بأسى: "إلى متى سنظل ننتظر موتنا هكذا؟".

أجاب رايدر والحزن يكسو ملامحه: "لقد مرّت ساعتان يا سيليست.. ساعتان وأنتِ في غيبوبتكِ ونحن هنا بلا زادٍ ولا ماء، نقتاتُ على ذكرياتنا فقط".

خيم الانكسار علينا، حتى قرر رايدر بجرأةٍ غريبة أن يكسر هذا اليأس: "ما رأيكم أن نغير هذا الجو الجنائزي؟".

زمجر جيوفاني بغضب: "هل يمكنك إغلاق فمك اللعين؟".

لكن رايدر أصرّ بنبرةٍ جادة: "أنا لا أمزح! سنموت لو استسلمنا لهذا الضعف.. يجب أن نبقى متصلين بالواقع. فلنسأل بعضنا أسئلة لم نجرؤ على طرحها أبداً".

بدت الفكرة جنونية، لكن جيوفاني فاجأنا حين وافق، وبدأ بسؤالٍ هو الأكثر حرمةً في قانون مافيتنا: "سأبدأ أنا.. رايدر، ما هو أصلك واسمك الحقيقي؟".

تجمدنا جميعاً.. هذا السؤال كفيلٌ بالقتل في ظروفٍ أخرى. تردد رايدر، لكنه استجمع شتاته وقال: "أنا كوري جنوبي.. اسمي الحقيقي (جونغ كيم جاي)".
توالت الاعترافات كأنها وصايا أخيرة؛ براين كشف عن هويته الروسية واسمه (ماكسيموس فيتو)، وماركو الإيطالي الذي يُدعى (أوريون ديل راي)، وباولو التركي (أولغاز ريتشل)، وفيليكس الأوكراني (آيدين كرايمن).

ثم التفت جيوفاني للوكا: "وأنت؟".

"كوري شمالي بإرثٍ إسباني.. اسمي (لوكاس براون)".

ثم جاء دوري، فقلتُ بصوتٍ خافت: "اسمي (يارا سالفاتوري).. يابانية الأصل".

وأخيراً، قال جيوفاني بضحكةٍ تشبه البكاء: "أما أنا، فإسباني لعين.. اسمي (ألفرونزو ريبالو)".

بدا جيوفاني كالمجنون وهو يهدم الجدران التي بناها لسنوات. قلتُ له بخوف: "جيوفاني، أنت لست بخير، يجب أن ترتاح".

رد بسخريةٍ لاذعة: "أرتاح؟ أين؟ على هذا العرش الحديدي؟".

ساد الصمت لبرهة، ثم فتح فيليكس قلبه في مشهدٍ مزق نياط القلوب: "أنا أبٌ لطفلين.. كل ما أريده هو العودة إليهما. عيد ميلاد ابنتي (ميلا) اقترب، ستتم عامها السابع. وابني (روميو) لا يزال في الرابعة.. أحب زوجتي، ولا زلت أريد أن أشيب بجانبها".

وكأن سدّاً قد انفجر، بدأ الجميع يبوحون بآمالهم المصلوبة؛ لوكا تحدث عن ابنه (دانيال) وعن حلمه بالزواج من حبيبته، ورايدر عن خوفه على أمه المسنّة، وبراين عن حبيبته الرقيقة التي تنتظر عودته.

أما باولو، فقد قال بابتسامةٍ حزينة: "لديّ توأم في الثانية عشرة.. يعتقدان أن والدهما بطلٌ في الشرطة، ويريدان السير على خطاي. يقتلني التفكير بأنه قد يتم القبض عليّ يوماً على يد أحد أبنائي.. تخيلوا المفارقة!".

ضحك باولو بمرارة، وضج المستودع بقصصنا الإنسانية التي دُفنت طويلاً تحت ركام الإجرام، لنكتشف أننا لسنا مجرد قتلة، بل آباء وعشاق وأبناء، يحلمون بالنجاة لا من أجل أنفسهم، بل من أجل عيونٍ تنتظرهم في الضفة الأخرى من الحياة.

تلك اللحظات كانت أطهر ما عاشته هذه العصابة، لكن الواقع لا يزال يكبل معاصمنا..

خفتت الضحكات تدريجياً، وعاد السكون ليفيد هيبته، حتى اخترق جيوفاني الصمت بنظرة ثاقبة استقرت في عينيّ، ثم قال بصوتٍ أجش: "ماذا عنكِ أنتِ يا يارا؟".

لم أتردد، فقد أصبحت أرواحنا عارية في هذا المستودع: "أنا لديّ ثلاث شقيقات وأم، هنّ كل عالمي وأحبهن فوق الوصف.. ولديّ حبيبٌ أيضاً، وهذا يكفيني".

ساد صمتٌ قصير قبل أن يلقي جيوفاني قنبلته التي زلزلت كياني: "أما أنا، فليس لي في هذا الوجود سواكم.. لكنني مدينٌ لكِ باعتراف..."

سكت قليلا كأنما هو ينظّم أفكاره ثم واصل: "علمتُ منذ وقتٍ طويل أنكِ، كنتِ واقعة في حبي.. وأعتذر بشدة لأنني تعمدتُ تجاهل مشاعركِ، لكن كان لي سببي القاهر".

تسمرتُ مكاني، وتلاشت ملامحي خلف ابتسامة ذهول باهتة: "هذا.. هذا ليس صحيحاً!".

رد بجدية لم أعهدها: "بلى، هو الحقيقة. الآن أصبح لكِ حبيب، وأنا أبارك لكِ ذلك، لكنني كنتُ أعلم بكل نبضة كان يكنّها قلبكِ لي. لم أستطع البوح لكِ يوماً لمصلحتكِ؛ فقد فشلتُ في حماية أختي، وتملكني رعبٌ مزمن من أن أفشل في حمايتكِ أنتِ أيضاً إذا اقتربتِ مني أكثر.. نعم يا سيليست، لقد أحببتكِ، ولا زلت، لكنني سأواري هذا الحب خلف قضبان صدري من الآن فصاعداً.. فمن يدري؟ ربما يكون حبيبكِ جالساً بيننا الآن!".

ابتسمتُ بمرارة والتفتُّ نحو لوكا، الذي لم يستطع الصمت أكثر فقال بنبرة تملك واضحة: "تخمينك في محله، حبيبها بيننا فعلاً، لذا الزم حدودك قليلاً يا زعيم".

نظرتُ إليهما، إلى الماضي والحاضر اللذين اجتمعا في غرفة واحدة، وقلت بصوت يرتجف صدقاً: "كان حبي لك شديداً يا جيوفاني، كنت أرى فيك ملاذي الآمن وسندي الذي لا يميل. لن أكذب عليك، لكن تلك المشاعر جفت وانتهت، فقلبي اليوم ملكٌ للوكا وحده. هو حبيبي، وسنكمل حياتنا معاً فور خروجنا من هذا الجحيم.. أتعلم؟ أختي وشقيقه متزوجان، وفستاني الأبيض ينتظرني خلف أبواب ذاك القصر، حتى تفاصيل شعري قررتها في مخيلتي.. لذا، احتفظ بمشاعرك لنفسك كما فعلت لسنوات، فقد ذرفتُ من الدموع خلف تجاهلك ما يكفي ليغرق هذا المستودع، ولأكن صادقة معك، لست مستعدة لأن أفسد حياتي مجددا لأجلك".

ابتسم قائدي بأسى وأردف:" لم أعترف لكِ اليوم لأنني أنوي إفساد حياتك، ولا لأطلب منك أن تحبيني مجددا، فقط راودتني الفكرة لسنوات لذا أردت فقط البوح بمشاعري التي كبتتها الظروف."

ابتسمت بأسى أكبر، وكأننا في مسابقة من كان الأيأس وقلت:" هل تعلم لماذا تعاطيت تلك الكمية من المخدرات ذاك اليوم الذي دخلت فيه السجن طعنت ذاك الشرطي البريئ؟"

صمتوا جميعا ينتظرون بلهفة أن أكمل ففعلت:" يومها كنت أستعد للبوح لك بمشاعري، رغم يقيني أنك سترفضني رفضا فظيعا، لكنني آثرت كرامتي وتراجعت لأكتم تلك المشاعر اللعينة، حينها من شدة الأسى استهلكت من المخدرات ماهو كاف لقتلي، ثم بدأت أتجول في الشوارع كالمجنونة، استوقفني الشرطي وشرع يلقي علي أوامره، بمفعول المخدر تةسدت صورتك في جسده، صرت أراك فيه... فطعنته دون أن يرف لي جفن. "

ابتسم جانبيا بمرارة وقليل من السخرية:" يعني لو كنت أمامك حينها... كنت لتطعنينني صحيح؟"

" لا أعلم، لكن كل ما أعرفه الآن أن قلبي ينبض فقط باسم لوكا موريتي. "

خيم وجومٌ ثقيل، قطعه رايدر بهمس: "كنتُ أعلم بالقصة من بدايتها، لكنني لم أتوقع أبداً أن تُقال هذه الحقائق الجارحة أمام الجميع".

تنهد جيوفاني بعمق، وكأن جبلاً قد انزاح عن صدره: "هنيئاً لكما.. ستدعواننا لحفل الزفاف، أليس كذلك؟".

أجاب لوكا بصرامة: "فلنخرج من هنا أولا، وسنرى".

ثم التفت إليّ لوكا، وعيناه تشتعلان بغيرةٍ مكتومة: "لماذا لم أكن أعلم شيئاً عن هذا الحب القديم لجيوفاني؟".

طأطأتُ رأسي بأسف، ثم رفعت عينيّ نحوه بصدقٍ تام: "لأنه من الماضي الذي طواه النسيان.. أما حاضري ومستقبلي وكل أنفاسي، فهي لك وحدك".

تدخل رايدر محاولاً تخفيف حدة الموقف: "أوه.. كفاكما دراما! أنتما تجعلانني أشعر بالخجل والارتباك وسط هذه القيود!".

نظرنا إليه لثوانٍ، ثم انفجرنا جميعاً في ضحكٍ مرير، ضحكٌ يمتزج برائحة الموت والدم، وكأننا نودع حياتنا بذكرياتٍ كانت مدفونة تحت ركام الصمت.

مرّت عدة ساعات أخرى، ونحن نرزح تحت وطأة العجز، وجراحنا التي أُهملت بدأت تعلن عصيانها وتتآكل بفعل التعفن والألم. فجأة، اهتزت الأبواب ودخل الأخوة الأربعة من "سولنتسيفو" يتقدمهم ذاك العضو الذي أصبته بجرحٍ غائر، يرافقهم زعيم "سونبي" ونائبه بوجوهٍ تقطر شراً.

اقترب زعيم "سونبي" منا بخطواتٍ واثقة، وعيناه تلمعان بنشوة الانتقام. توقف أمامي مباشرة، وأمسك بشعري بقوةٍ وحشية رافعاً رأسي لتصطدم عيناي بعينيه، وقال بصوتٍ فحيح: "أخيراً.. التقينا وجهاً لوجه. هل تصدقون أن هذه العاهرة هي من تجرأت على إصابتي؟".

رغم الألم الذي كاد يقتلع فروة رأسي، رسمتُ ابتسامة ساخرة على شفتيَّ الداميتين وقلت: "أوه.. هل آلمك ذلك حقاً؟ إذن اشرب نخب جرحك يا صاح، فقد أصابتك الرصاصة في مقتل كبريائك!".

شد قبضته على شعري أكثر حتى شعرتُ بجمجمتي تتمزق، فصرختُ رغماً عني، ليهتز المكان بصوت لوكا الهادر: "اتركها أيها المخنث الجبان! أتستقوي على فتاة مكبلة؟ تعال وواجه الرجال إن كنت تدعي الرجولة، أم أنك لا تجرؤ إلا على من لا يملك سلاحاً؟".

التفت إليه الزعيم الكوري ببرودٍ قاتل وقال: "هل يزعجك هذا يا لوكاس؟ حسناً، سنرى كم من الرجولة تملك أنت".

ثم أشار للحرس بنبرةٍ آمرة: "خذوه.. علموه معنى الرجولة بطريقتنا الخاصة".

سحبوه بكرسيه بعنف، فصرختُ بهستيريا: "خذوني بدلاً منه أيها الحثالة! اللعنة عليكم!".

نظرتُ لرفاقي بقلبٍ ممزق: "افعلوا شيئاً! لا تتركوهم ينفردون به!". لكن الزعيم الكوري رمقني بنظرةٍ أخيرة وقال: "لا تقلقي يا حلوة، سيأتي دوركِ قريباً، فأنتِ الجائزة الكبرى والحدث الأهم في هذا المساء".

قبل أن يخرجوا، مال أحد الإخوة الروس نحوي وهمس: "الزعيم الأكبر يريد لقاءكِ بصفة شخصية، جهزي نفسكِ، فالمساء سيكشف الكثير".

بعد خروجهم، ساد الصمت المشوب بالرعب، فسألتُ بنحيب: "ماذا يقصدون؟ وماذا سيفعلون بلوكا؟ هل سيقتلوه؟".

رد جيوفاني بمحاولة يائسة للطمأنة: "مستحيل.. يعلمون قيمته كنائب للزعيم، لن يقتلوه الآن".

مرت ساعة من القلق الذي ينهش الصدور، حتى أعادوا لوكا.. كان منظره يفوق القدرة على الاحتمال. ملامحه التي لطالما أحببتها غابت تحت طبقات من الجروح والتشوهات، وجسده كان خريطةً من الدم والوجع. ما إن التقت أعيننا حتى رسم ابتسامةً ذابلة، وسألني بصوتٍ متقطع: "هل أنتِ بخير.. صغيرتي؟".

أجهشتُ بالبكاء وصرخت: "اللعنة على هذا العالم! ماذا فعلوا بك؟ وجهك.. جسدك.. هل أنت بخير؟ أرجوك أخبرني!".

أجابني بحنانٍ هزَّ كياني: "صدقيني.. لم أشعر بشيء مما فعلوه، لأن طيفكِ لم يفارق مخيلتي. أنا بخير طالما أنتِ بخير حلوتي".

رغم مرارة الموقف، حاول رايدر كسر حدة الحزن بمزاحه المعهود: "يا إلهي.. أشعر وكأننا اقتحمنا غرفة نومكما! خففا من هذه الرومانسية قليلاً".

ابتسم لوكا رغم ألمه وقال: "تمنيتُ أن أنام بجانبها ولو لمرة واحدة.. أعدكِ أننا سنفعل ذلك حين نخرج".

قلتُ بخجلٍ ممزوج بالدموع: "لقد نمنا معاً مرة بالفعل، ألا تتذكر؟".

رد بدهشة: "أعلم أننا كنا في نفس الغرفة، لكنني قصدتُ أن تغفي على صدري وأعانقكِ بقوة لأحميكِ من هذا العالم".

ترددتُ ثم قلت: "لقد حدث ذلك فعلاً.. كان رأسي على صدرك ويدك تطوقني".

شهق بصدمة: "ماذا؟ متى؟ ولماذا لا أتذكر تلك اللحظة المقدسة؟".

"لأنك كنت غارقاً في نومك الثقيل، وحين استيقظتُ ورأيتُ نفسي بين أحضانك، أصبتُ بالذعر ودفعتك من السرير حتى سقطت أرضاً!".

"اللعنة على نومي! كيف أفوت لحظة كهذه؟ لكنكِ أخبرتني حينها أنكِ نمتِ على الأريكة!".

"الأريكة كانت قاسية، فتسللتُ بجانبك، وعندما استيقظتُ وجدتُ نفسي في حضنك فكانت ردة فعلي عنيفة بعض الشيء".

ضحك ماركو بمرارة: "لم يفتك شيء يا صديقي، الفتاة لك.. والوقت أمامكما فور خروجنا".

لكنني أجهشتُ بالبكاء فجأة وقلتُ بصوتٍ مكسور: "هذا إن خرجنا أحياء.. وإن لم نفعل، فستكون مقاعدنا في الجحيم متجاورة".

نظر إليَّ الجميع بنظرات استسلامٍ لم أرها من قبل. وجوهٌ تعبة، وأرواحٌ منطفئة. قال جيوفاني بصوتٍ منخفض: "أشعر بضعفٍ قاتل.. لم أستطع حماية أيٍّ عزيز عليّ طيلة حياتي".

رد باولو بحزم: "أغلق لعنة فمك يا جيوفاني! إذا انهرتَ أنت، انهرنا جميعاً. تماسك، كُن القائد الذي عهدناه حتى في أحلك الظروف".

سندتُ رأسي للخلف بتعب، وقلتُ بشرود: "لماذا يريدني زعيمهم الأكبر؟".

أجاب لوكا بإصرار: "مهما كان ما يريده، لن أسمح لهم بلمس شعرة منكِ".

بدأتُ أستحضر وجوه أحبائنا البعيدين: "ترى.. كيف حال ساندرا والفتيات والأم إيفا؟ لا بد أن ساندرا وكريس في عالم آخر الآن، والأم إيفا تخيط ثياباً لصغير ساندرا القادم، رغم أنها وعدتني ألا تحمل في غيابي".

ضحك الجميع بضعف، فأضفتُ بهمس: "أريد طفلاً أيضاً.. يشبه دانيال في كل شيء".

نظر إليَّ لوكا بعينين تلمعان بالأمل وغمز بخبث: "سنخرج من هنا، وسأحقق لكِ تلك الأمنية.. طفلٌ يشبه دانيال تماماً".

أغمضتُ عيني خجلاً وقلت: "اصمت أيها المنحرف.. لكنني سأنتظرك".

تعالت ضحكاتهم الضعيفة لترمم شروخ أرواحنا، قبل أن يقطع رايدر اللحظة بملاحظته الثاقبة: "ألا تلاحظون كيف تبدلت سيليست؟ لقد انقشع غلاف الجليد عنها.. أصبحت تخجل، تبكي، تشعر، وتحب.. لقد استعادت أنوثتها التي وأدتها المعارك".

عقّب براين على كلماته بنبرة يملؤها الشجن: "إنه سحر الحب يا رفيقي.. هي في النهاية أنثى وجدت قلباً يحتويها ويبادلها صدق الشعور، لذا كان التغيير من أجله هو ثورتها الرقيقة".

التفتُّ نحو لوكا، والابتسامة ترتسم على وجهي رغم شحوبه، وقلتُ بهمس: "أنا أيضاً أدركت هذا التحول في أعماقي.. صرتُ أتقبل فكرة الاستقرار، وأحنُّ لمداعبة الأطفال، وأهتمُّ بعطري وفستاني.. حتى السجائر التي كانت رفيقتي في الليالي المظلمة، هجرتُها منذ مدة. كل هذا بفضل لوكاس.. بفضل الحب الذي أعاد صياغتي".

تدخل لوكا بنبرةٍ فخورة رغم ألمه: "وأنا أيضاً.. ألم تلمسوا التغيير الذي طرأ عليّ؟".

أجابه رايدر ضاحكاً بمرارة: "بالتأكيد! لم تعد ذاك المدمن الهائم بين الدخان والكحول، لم تعد كتمثالٍ من ثلج.. والأهم من ذلك، أنك أخيراً فككت عقدة لسانك! فبعد أن كنت تنطق بكلمتين في العام، أصبحت اليوم تنسج قصائد الغزل لحبيبتك!".

تنهدنا جميعاً، وفي أعيننا دموعٌ مكبوتة تأبى الانكسار؛ الآن فقط، في هذه الزنزانة الموحشة، أدركنا القيمة الحقيقية للحياة.. صرنا نخشى فقدانها لا خوفاً من الموت، بل حباً فيمن ينتظروننا على ضفة النجاة.

قلتُ بنبرةٍ حاولَتْ الصمود مع اقتراب موعد اللقاء المشؤوم: "ها قد زحف المساء.. وزعيمهم الأكبر سيأتي للقائي بعد قليل".

شد لوكا بكلماته: "لا تخافي.. نحن هنا خلفكِ، ولن نتخلى عنكِ".

ضحكتُ بمرارة رغم الموقف: "أهذا حقاً ما تقوله؟ أخاف؟ هل أنساك الوجعُ مَن هي سيليست؟ أنا لا أخاف أحداً.. ولن أفعل".

هزَّ باولو رأسه بذهول وهو يراقبنا: "أقسم أنكم فقدتم عقولكم جميعاً! البقاء في هذا المكان الملعون وأنتم تنزفون جعلكم تبدون كغرباءٍ لا أعرفهم.. عاطفيون لدرجة مرعبة!".

ارتجف المستودع فجأة تحت وطأة وقع أقدامٍ ثقيلة، ومع صرير الباب الذي انفتح ببطء، لم يقتحم الضوء المكان، بل دخلت العتمة مجسدة في هيئة امرأة. تسمر بؤبؤ عيني، وشعرت ببرودةٍ تفوق برودة الموت تغزو عروقي. ليتني عميت، ليت الأرض انشقت وابتلعتني قبل أن يقع بصري على ذلك الوجه الذي ظننته دُفن في مقابر الذاكرة.

"إيزابيلا مارتيلو..؟!" خرج صوتي مشروخاً، كأنه استغاثة من قعر الجحيم.

تقدمت بخطىً ملكية، ونظراتها الباردة تمسح جراحي بلامبالاة مقززة، وقالت بنبرةٍ تقطر سماً: "سيليست كاروسو.. أو يارا سالفاتوري كما يحلو لكِ. لقد كبرتِ يا ابنتي، لكنكِ خذلتِ جيناتي. انضممتِ لعصابة (إمبيريو دي لانوتشي)؟ يا لسوء اختياركِ، أنتِ تفتقرين لذكاء والدتك. انظري إليّ، حين قررتُ السيطرة، تحالفتُ مع الأقوى، جمعتُ (سولنتسيفو) و(سونبي) تحت إمرتي، أما أنتِ.. فمجرد بقايا مقاتلة خاسرة".

استجمعتُ ما تبقى من كرامتي في حنجرتي وقلت: "أمٌ لعنتي! لستِ أمي، أنتِ مسخ.. لا تقولي إنكِ أنتِ الزعيم الأكبر الذي يرتعدون منه؟".

أومأت لي بابتسامةٍ شيطانية، فانفجرتُ بضحكٍ هستيري يمتزج بالبكاء: "لا أصدق ما تراه عيناي! أنتِ معتوهة، مريضة، ومختلة عقلية!".

اقتربت مني حتى اختلطت أنفاسها برائحة دمائي، فهوى وجهها أمام وجهي مباشرة. لم أتردد؛ جمعت كل غليلي وبصقتُ في وجهها. في لحظة خاطفة، هوت بصفعةٍ عنيفة على وجهي جعلتني أترنح بكرسيّ حتى سقطتُ أرضاً بجسدي المحطم. صرختُ من على الأرض والدم يملأ فمي: "فكي قيودي وواجهيني بعدل أيتها المجرمة الجبانة!".

انحنت فوقي كأفعى وقالت بهمسٍ مرعب: "تتحدثين عن العدل؟ والجبن؟ يا لكِ من ساذجة. تعلمين لماذا قتلتُ والدكِ الجبان بنيتي؟.. لماذا وضعتُ الرصاصة في رأس ذاك الرجل الضعيف؟ لأنه أراد أن يمنعني من بناء إمبراطوريتي. نعم، دماء أبيكِ لا تزال على يديّ، ولم أشعر يوماً بالندم".

توقفت أنفاسي، شعرتُ بخنجرٍ يغرس في قلبي، فقد تذكرت ذلك المشهد الدمو الأول الذي شهدته بحياتي، والدتي تصب رصاصها في رأس والدي.

لكنها لم تكتفِ. أشارت ببدها إلى أحد الإخوة "سولنتسيفو" الملثمين وقالت ببرود يقشعر له البدن: "أوه، ألم تتعرفي على أخيكِ بعد؟ هذا الشاب الذي يذيق رفاقكِ الويلات هو ابن أمّك، ابني أنا من رجلٍ آخر.. أخوكِ الذي ربيته كما يحلو لي تربيته، وهاهي ذي ثمرتي التي زرعت".

انهار العالم حولي. صرختُ بآهةٍ شقت سكون الليل: "أنتِ لعنة! أنتِ من جعلتني هكذا! قتلتِ أبي، وفرقتِ دمي، وحولتني لقاتلة! رميتني بكل قوتك خلفك وغادرت، هربت وتركتني أعاني تعذيب زوجك الملعون، لماذا أنجبتني للحياة لو كنت تكرهينني لهذه الدرجة؟".

فركت ذقنها متظاهرك التفكير ثم أردفت: " أنت خطئي الأول يارا، ومايا خطئي الثاني، لكنني اكتفيت من الأخطاء هناك، لذا أتيت هنا أصححها."

أنزلت رأسي بوهن، رغم محاولاتي اليائسة في كبح دموعي إلا أنها غلبتني حارقة جروح وجهي.

اعتدلت في وقفتها وقالت بملل: "اكتفيتُ من دراما العائلة. كنتُ أريد الاستمتاع بتعذيبكِ أكثر، لكن جروحكِ المتعفنة تسبقني إليكِ. ستموتين قريباً على أي حال، لذا سنلعب لعبة واحدة أخيرة غداً.. جهزوا أنفسكم جميعاً، فالموت سيكون جائزة الرابح".

خرجت مع زبانيتها، وتركتني حطاماً بشرياً. أنزلتُ رأسي أبكي بحرقة، صرخات مكتومة تخرج من أعماقي: "اللعينة.. كم أكرهها.. يا وجع قلبي يا أبي".

خيم الصمت المذهول على رفاقي. همس جيوفاني بصدمة: "والدتكِ هي الشيطان بذاته؟".

رددتُ بصوت غارق في النحيب: "لو كنتُ أعلم أن هذا الكابوس حقيقة.. لما جررتكم خلفي إلى هذا القبر، لكنها أقوى مني بكثير".

سأل رايدر بصوتٍ مرتعش: "هل سنموت غداً؟".

تمتم براين بيأس: "قالت إنها لعبة.. ربما هناك أمل".

لكنني كنتُ أشعر ببرودةٍ غريبة تسكن أطرافي، انتفض جسدي بقوة وقلت: "أشعر ببردٍ لا يُحتمل.. ما الذي يحدث للعنة جسدي؟".

نظر إليّ باولو بعينين دامعتين وقال بصوتٍ مكسور: "لا أريد إخافتكِ.. لكن جسدكِ بدأ ينسحب. هذه علامات النهاية".

انفجرتُ بالبكاء مجدداً، لكن هذه المرة كان بكاءً على حياةٍ لم أعشها: "لا أريد الموت الآن.. ليس هكذا! من قبل كنتُ أنتظر الموت كخلاص، لكنني الآن أملك سبباً للعيش.. أريد أن أحب، أن أتزوج، أن أرى أخواتي.. أريد أن أعيش!".

لم ينم أحدٌ منا تلك الليلة. بقينا نحدق في الفراغ، نتبادل ابتسامات الوداع الصامتة. كلما نظرتُ إلى لوكا، رأيتُ في عينيه انكسار الرجل الذي عجز عن حماية حبيبته من أمها، وكلما نظرتُ لجيوفاني، رأيتُ الزعيم الذي فقد عائلته مرتين.

تسلل خيطٌ نحيل من الضوء عبر ثقوب الباب الخشبي، ليعلن عن صباحٍ لم يحمل معه أملاً، بل كان نذيراً ليوم القيامة الصغير. لم يطل انتظارنا، فقد اقتحموا المكان بحشودهم، وأحاطوا بنا في حلقةٍ بشرية باردة كأنها طقسٌ وثنيّ لإراقة الدماء.

وقفت إيزابيلا في المركز، بملامحها الرخامية وصوتها الذي يخرج من جوف شيطان: "اللعبة بسيطة كالموت.. سأختار اثنين منكم، وأضع مسدساً واحداً في الوسط. إذا قتل أحدكما الآخر، سأطلق سراح البقية؛ فجثثكم المتعفنة هنا لم تعد تمنحني لذة النصر."

أشارت بحركةٍ من يدها، ففكوا قيودي وقيود لوكا، ودفعونا دفعاً إلى وسط الدائرة. وُضعت طاولةٌ متهالكة بيننا، وفوقها استقر المسدس.

تسمرت عيناي فوقه وجفَّ الدم في عروقي؛ إنه المسدس ذاته الذي أهداني إياه لوكا يوماً ليكون وسيلة حمايتي. من أين حصلت عليه؟ وهل ساندرا لا تزال على قيد الحياة أم أن الخيانة طالت الجميع؟ فقد تركته في القصر آنذاك.

ارتفع صوت جيوفاني المبحوح محاولاً التمسك بقشةٍ من منطق: "ومن يضمن لنا أنكِ ستفين بوعدكِ وتطلقين سراحنا بعد أن يسقط أحدهما؟"

ردت بضحكةٍ خاوية: "لو أردتُ حصد رؤوسكم لفعلتُ منذ زمن، لكنني أهوى التلاعب بالأرواح.. وليس أمامكم خيارٌ آخر سوى المقامرة."

كان لوكا يقف قبالتي، مكسوراً، ضائعاً، وكأن روحه قد غادرته قبل جسده.

بدأت عدها التنازلي الذي أعلنت أنه سينتهي عند الرقم ثمانية، رقمي الملعون..

1

2

3

4

5

6

7

.وفجأة، وبحركةٍ مباغتة وصادمة، مد يده، قبض على المسدس بصرامة، وصوبه نحو رأسي مباشرة

توقف العالم. شعرتُ بصوت انكسارٍ في صدري فاق ضجيج الرصاص.

وقع نظري على الوشم الذي يزين يده وهي تقبض على سلاح موتي؛ اسمي "سيليست كاروسو" محفورٌ هناك بخطٍ أنيق، كأنه نقشٌ على قبر.

ابتسمتُ بمرارة، ونظرة الضياع تسكن عينيّ؛ أيقنتُ أن الحياة تقذف لي بآخر دروسها، وأنا التي كنتُ دوماً أفشل تلاميذها.

نطقتُ أخيراً، بصوتٍ واهن لكنه حاد كالنصل: "أنت تضع المسدس في المكان الخاطئ لوكا موريتي.. عقلي لم يحبك يوماً، كان يعلم أننا نسير نحو الهاوية. ضعه هنا.. في الجهة اليسرى فوق قلبي تماماً؛ فهو أكثر من يستحق الموت لأنه تجرأ وأحبك."

مسح دمعةً متمردة شقت طريقها عبر ملامحه المعذبة وهس بوجع: "حين قابلتُكِ لم أكن أبحث عن حب، لكن القدر قرر أن أخسركِ في اللحظة التي صرتِ فيها كل ما أملك."

صرختُ بهستيريا هزت أركان المستودع: "لماذا يجب أن تكون نهايتي على يدك التي نقشت عليها اسمي؟ لماذا بالمسدس الذي أهديتني إياه؟ ألم تقل أنه سيكون ذات يوم وسيلة لحمايتي؟ أهذا معنى الحماية الذي تقصده؟ لا أريد أن أموت هكذا... ليس الآن ...ليس منك!"

استعاد فجأة بروده القاتل، وبريقه الذي يشبه بريق الفولاذ: "يجب أن يموت أحدنا ليعيش البقية.. هذا هو قدرنا."

علا صوت جيوفاني، القائد الذي كان يوماً ملاذي، ليحثه بلهجةٍ لا تحتمل التأويل: "أسرع يا لوكا! افعلها وانتهِ!"

نظرتُ إلى جيوفاني بحسرةٍ قطعت أحشائي، ثم ابتسمتُ ابتسامةً مسمومة: "ماذا كنتُ أنتظر منكم؟ أنا الخسارة الوحيدة في هذه اللعبة القذرة. كنتُ أتوقع الغدر من أمي، بينما أنتم.. رفاق دربي، عائلتي التي اخترتها.. تخليتم عني في أول مفترق للموت."

كانت يد لوكا ترتجف، وجسده ينتفض كعصفورٍ في إعصار، لكنه ظل متمسكاً بالزناد. عاد جيوفاني يصرخ: "لوكا! هيا.. الوقت ينفد ونحن نموت هنا ببطئ، أسرع فقط!"

وفجأة.. خرجت الشرارة. رأيتُ وميض الموت ينبعث من فوهة مسدسي، لكنني لم أسمع صوت الرصاصة التي اخترقت قلبي مباشرة... لماذا لم أسمع صوت رصاصتك يا لوكا؟ كنتُ أظنك مأمني، فإذا بك مقتلي.

في تلك اللحظة التي تلاشت فيها الألوان من عينيّ، أدركتُ أنها أنفاسي الأخيرة. ورغم بشاعة المشهد، شعرتُ بفخرٍ حزين؛ لقد متُّ بينهم، وعلى أيديهم. على الأقلّ لست أنا الخائنة هنا.

لكن لحظة!! أبداً لم أفهم لماذا ضحت بي إيزابيلا، الأم التي لم تكن سوى منبعاً لتعاستي وآلامي. كنتُ دوماً أختلق لها الأعذار لتخليها عني وأنا طفلة، لكن ما العذر الذي سأختلقه لها الآن وهي تضحك فوق جثتي؟

عندما تنقلب الأمانة إلى خيانة، ويتحول الحبيب إلى جلاد، والصديق إلى سمسار موت، فاعلم أنك في عالم المافيا.. حيث الوفاء نكتة سمجة، والموت هو الحقيقة الوحيدة الصادقة.

وغفت سيليست كاروسو، وانطفأت الشعلة الأخيرة..

□ End Yara's POV □

...

بعد مرور خمس سنوات...

ساد الصمت في الرواق إلا من صدى خطوات ساندرا المتسارعة، كانت ملامحها تحمل نضجاً صبغه الحزن. نادت بصوتٍ يرتجف فيه الحنين: "مايا، كايلي، سيليست، دانيال.. هيا بنا، لقد حان الوقت".

استقلوا السيارة التي كان يقودها كريس بوقار وهدوء، وكأن الطريق يجرهم إلى ماضٍ يأبى أن يندمل. توقفت السيارة عند أطراف المقبرة الموحشة، حيث ينام الصمت تحت ظلال الشجر. ترجلوا جميعاً، حيث اتجهت ساندرا بخطوات مثقلة نحو قبرٍ رُخم بلقبٍ يرتعش له الوجدان: "يارا سالفاتوري".

جثت على ركبتيها فوق التراب البارد، وضعت يدها المرتجفة على الحجر الذي يحتضن رفات أعز ما تملك، وانهمرت دموعها كشلالاتٍ لم تجف يوماً، ثم همست بصوتٍ يقطعه النحيب:

"أنا هنا يارا.. يا نصفي الضائع. لقد استغرقني الأمر خمس سنوات من البحث المضني والوجع المستتر لأجد مكانكِ. انظري إليّ.. هذه ابنتي، أسميتها (سيليست) كما أوصيتني، لم أنتظر إذنكِ لأحمل بها، فقد غادرتِ قبل أن نتبادل عتابنا الأخير. يقولون إن خمس سنوات تداوي الجراح، لكنها في غيابكِ لم تكن إلا دهوراً من النزيف. ماتت الأم (إيفا) بعد رحيلكِ مباشرة، وكأن قلبها لم يحتمل فكرة أن الأرض ابتلعتكِ قبلها.. انهرتُ حينها، لولا أن كريس كان الظل الذي لم يتركني قط."

شهقت بقوة وأكملت وهي تتحسس اسم يارا المنقوش: "لقد أخلفتِ بوعدكِ لي.. لم ترتدي فستانكِ الأبيض في ليلة زفافكِ كما خططنا. لا يزال معلقاً في خزانتي، يفوح برائحة الغياب، أتخيلكِ فيه كل يوم، لكنكِ اخترتِ كفنكِ بدلاً منه. اخترتِ المكوث تحت

هذا التراب بدلاً من البقاء في حضني. أشعر بيتمٍ لا يطاق يا أختي. كريس الذي حذرتِني منه لا يزال هنا، يسندني بكل قوته، لم يتخلَّ عني كما فعلتِ أنتِ.. لقد كنتِ مخطئة بحقه، لكنكِ كنتِ محقة في شيء واحد.. أن عالمكِ لا يترك أحداً حياً."

التفتت نحو الأطفال بابتسامة مكسورة: "مايا كبرت يا يارا.. صارت نسخة طبق الأصل منكِ، كلما نظرتُ إلى عينيها رأيتُ ابتسامتكِ النادرة والمتمردة. وكايلي تشبه أمها أيضاً.. أما دانيال، فهو (لوكاس) صغير يمشي على الأرض. انظري إلى سخرية القدر؛ أنا المحامية التي تحارب الجريمة، أربي الآن ثلاثة أطفال أولياؤهم ملوك المافيا.. أليس هذا مضحكاً؟ لكنني أقسم لكِ، لن أخلف بوعدي، سأعتني بهم حتى آخر نفس في صدري."

سكتت لبرهة تنتظر صدىً لن يأتي، ثم ضحكت بمرارة: "ما زلتُ أنتظر إجابة منكِ؟ حتى وأنتِ حية كنتِ تتجاهلينني ببرودكِ، فما بالكِ الآن وأنتِ تحت الرخام؟ أنا حقاً حمقاء.. معتوهة وغبية. اللعنة على خوفي الذي منعني من التبليغ عنك، على الأقل، في السجن المؤبد سأستطيع زيارتك والنظر في عينيك لكنني خفت أن لا تسامحيني لو فعلت، ولن تسمعيني لو قلت اتركي ذلك العالم اللعين، بسبب خوفي منكِ عليكِ.. خسرتكِ للأبد."

قطع حديثها صوت دانيال الصغير وهو يجري نحوها بعينين تلمع فيهما قوة أبيه: "ماما ساندرا.. أين قبر والدي؟".

أشارت بسبابة مرتعشة إلى القبر المجاور تماماً لقبر يارا، حيث نُقش اسم "لوكاس براون": "هذا هو يا صغيري.. هنا ينام والدك، بجانب من أحب."

سألت مايا وهي تشير بيدها الصغيرة إلى صف من القبور المتلاصقة التي اصطفت في صمت مهيب: "ولمن تعود هذه القبور الأخرى؟".

مسحت ساندرا دموعها وقالت بصوتٍ ملحمي حزين: "هؤلاء هم رفاق يارا ولوكاس.. عائلة (إمبيريو دي لانوتشي). لقد مات الثمانية في يوم واحد، وفي حادثة واحدة.. رفضوا أن يفترقوا حتى في الموت، فاصطفت قبورهم هنا لتخبر العالم أن الوفاء في المافيا لا يكتمل إلا تحت التراب."

وقفت ساندرا، ألقت نظرة أخيرة على القبور المتراصة: جيوفاني، لوكا، سيليست، باولو، ماركو، رايدر، براين، وفيليكس. ثم استدارت بقلبٍ محطم، تاركةً خلفها حكاياتٍ كُتبت بالدم، ووعوداً لم ولن تتحقق.

وهكذا، سُدل الستار على ملحمة "إمبيريو دي لانوتشي"، لتُطوى صفحة إمبراطوريةٍ عتيدة ولدت في الظلام وانتهت في جوف التراب. لم يتبقَّ من تلك الهيبة سوى أسماءٍ نُقشت ببرودٍ على صخورِ الرخام، وحكاياتٍ يهمس بها الريح بين شواهد القبور، وأطفالٍ يحملون في ملامحهم إرثاً من الدم والجمال، وعيوناً تبرقُ بذكاءٍ ورثوه عن آباءٍ لم يمنحهم العالم فرصة الوداع.

رحلت سيليست، تلك المرأة التي قاومت العالم بصلابة الجليد، لكنها حين آمنت بالحب سقطت به، ولعلَّ السخرية تكمن في أنها ماتت به أيضاً.

اكتشفت في أنفاسها الأخيرة أن الحب في عالمها لم يكن سوى خدعةٍ متقنة، وخيانةٍ مُغلفة بالوعود؛ فلم تكن نهايتها أرحم من نهاية كارولين، فكلاهما تجرعتا الكأس ذاتها، وكلاهما لفظتا الروح على يد الرجل الذي ظنتاه الملاذ والأمان، فكان هو المقتَل والختام.

رحلت سيليست تاركةً خلفها درساً أخيراً؛ أن الوفاء في عالم المافيا هو العملة الوحيدة التي تُدفع ضريبتها حيواتٍ كاملة، وأن القلب الذي يجرؤ على النبض هناك، لا بد أن يُخترق برصاصة. بقي الفستان الأبيض وحيداً في عتمة الخزانة، وبقيت القلوبُ التي عرفتها تنبض بالوجع، لتظلَّ يارا سالفاتوري أسطورةً عصيةً على النسيان.. القاتلة التي رقت، والضحية التي غفرت، والابنة التي ذُبحت على عتباتِ ماضٍ لم يكن لها فيه يد.

إهداء من الكاتبة لأبطالها

إلى **جيوفاني روسو**؛ الزعيم الذي لم يهزمه الأعداء، بل هزمه صراخ طفلة في ذاكرته. نم بسلام أيها الجبل الذي انهار بصمت، فقد دفنتَ أوجاعك تحت التراب، وتركت لنا هيبةً لا تُنسى وغدرًا لا يُرمّم.

إلى **لوكا موريتي**؛ القاتل المقتول قبل الرصاصة. إليك يا من حملت اسم حبيبتك وشماً على يدك، ورصاصةً في قلبها. نم بعيداً عن صراع الولاء والحب، فقد كنتَ ضحية عالمٍ لا يرحم، فقتلتَ نصفك الآخر لتنقذ ما تبقى من حطام إخوتك.

إلى الرجلين اللذين علماني أن العائلة تُبنى بالدم... وتُهدم به. وداعاً يا من رحلتما جسداً، وبقيتما جرحاً نازفاً في ذاكرتي.

إلى **سيليست كاروسو**؛ التي كانت أقوى من الرصاص، وهزمتها كلمة "حب".. إليكِ يا مَن اكتشفتِ متأخرة أن في عالم المافيا، القبلة والطلقة تخرجان من الفم ذاته.

وإلى **ساندرا الوفية**؛ الناجية الوحيدة من المقصلة، التي تحمل الآن وزر ذكرياتنا، وتربي أيتامنا على أنقاض أرواحنا.. أنتِ الشاهدة التي لا تشي، والقلب الذي لم يخن.

في قانوننا الملعون، لا ينتهي الوفاء بالعناق، بل بصوت الزناد.. رحل القتلة وبقي الوجع، لنعرف يقيناً أن الرصاصة التي تأتيك من (حبيب) هي الوحيدة التي لا تقتلك، بل تمحو وجودك حتى من ذاكرة الموت."

<u>انتهت الحكاية، وجفَّ الدم، وبقي الصدى.</u>